سيبيبجاج (2)

اســـــم العمـــــل : ســـــــــــيييجاج (2)

النـــــــــــــوع : روايـــة أدبيـــة تاريخيـــة

تـــــــــــــأليف : فـــــاروق عبـــــدالله

تصـــميم الغـــلاف : حكـــــيم صـــــالح

إخـــراج داخلـــي : عبـــــدالقادر فـــــايز

مراجعـــــة لغويـــــة : رشـــــا فـــــاروق

الطباعـــــــــــة : اتيليـه تـاتش – المحروسـة

الناشـــــــــــــر : الـــدار للنشـــر والتوزيـــع

المـــــدير العـــــام : محمـــد صـــلاح مـــراد

تليفـــــــــــون : 01125800467

البريـــد الإلكترونـــي : eddar_press@yahoo.com

فـــــيس بـــــوك : www.facebook.com/eldarpublish

رقـــم الإيـــداع : 2016/8289

التـــرقيم الـــدولي : I.S.B.N.: 978-977-702-138-8

سيبيبجاج (2)

روايــة

الجزء الثاني

فاروق عبدالله

الدار
للنشـــر والتوزيـــع

2016

مقدمة

زمكانية السرد في سيبيجاج

بقلم د./ يوسف نوفل

يقوم التاريخ على ركيزتين مهمّتيْن، الزّمان والمكان، بذلك جرى تيّار التأريخ للأحداث والرجال والمواقف والأمم والحضارات، وبذلك جرى تسجيل اليوميات والسير والمذكرات، ومن هنا قام السرد التاريخي فنيّا وواقعيا، على هذين الأساسين في الأعمال الفنية نثرية وشعرية، حيث يتجسد الزمان والمكان بطلين فاعليْن متفاعلين بوجههما المادي ووجههما المعنوي، سواء أكان ذلك في زمن السرد ومكانه، أم الزمن المستحضر من أعماق الغيب تمثلا أو استشهادا أو إحياء إو إسقاطا على الواقع المعاصر.

هنا يزداد السرد ثراءً، على نحو ما أسهم الكاتب الكبير فاروق عبد الله في السرد التاريخي، من قبل في روايته (آخر العائدين من بني هلال 1996)، وسيطرة الحس التاريخي والزمني في معظم أعماله، منذ جمل العنوان بالدلالة المباشرة أو الموحية من مثل روايته (رحلة إلى نهاية العمر 1986)، ورواية (آخر العائدين من بني هلال 1996) أدب رحلات، وحازت على جائزة الدولة التشجيعية 1996 ، ورواية (واحة الأمل 1998)، ورواية (آخر الداخلين من المكافحين 1999)، حتى نصل إلى روايته التي بين أيدينا، رواية الثورة الجزائرية (سيبيجاج 1 و 2).

المكان عنواناً / العنوان مكاناً:

أسْرع علامات المكان هنا العنوان، وللعنوان أهميته في الأعمال الفنية جميعها، وذلك لما يكتنزه من دلالات مباشرة، وإيحاءات مكتنزة بالمعنى الهامشيّ، وبذلك تكون العنوانات بمثابة مفاتيح للنص، حتى ليعدّ العنوان بحقّ نصّاً موازياً للنص ذاته، وهذا ما نراه في العنوان المكان، والمكان العنوان: **(سيبيجاج)**.

تناقضات الزمان والمكان:

وبين أيدينا رؤية تاريخية سردية اتخذت من هاتين الركيزتين محْوراً للسرد؛ تأريخاً لأحداث هي من أهم أحداث التاريخ العربي المعاصر، وهي أحداث ثورة التحرير الجزائرية المجيدة ضد المستعمر الفرنسي، الذي احتل الجزائر منذ سنة 1830، وفي سبيل نشره العنصرية والتحريض عليها، كان دفْعه الجزائريين عنوة وعدواناً نحو الجنوب ليفرغ الشمال للمستعمر الدخيل، تطهيراً عرْقياً، مع تزييف هوية المكان بتوزعه وتفرقته بين الشمال والجنوب، لتتم السيطرة على الأول لفرنسا، وتهجير العرب وإبعادهم إلى الجنوب، وتلك أقسى ملامح الغربة المكانية. بل تصدّع المكان، ومخاصمة بعضه بعضاً، حتى لكأن المكان قد "تشخّص" مستعداً لمبارزة نصفه الآخر واتخاذه عدواً، أمّا ملامح الغربة الزمانية، فتبدو في مخاصمة الماضي "التليد"، والتراث "العريق"، وذلك بطمس اللغة الأمّ وفرْنستها، واستبدال الهوية الفرنسية بالهوية العربية، وهكذا تضيع اللغة والهوية العربية في غياهب غربة الزمان والمكان، في تناقض مع ناموس الكون، ومنطق الوطنية، تماماً

مثلما يقوم التناقض في المكان بين الكوخ والقصر والمعسكر، والمستشفى والميدان، في خضم تناقضات الزمان والمكان. تلك الثورة التي أعْقبت قيام ثورة يولية 1952، الثورة المصرية التي قامت ضد الاستعمار العالمي بأسْره. لا الإنجليزي في مصر وحدها، ولا الفرنسي في الجزائر وحدها، وهكذا نجد البديل عن غربة الزمان والمكان ممثّلاً في وحدة الزمان والمكان، حيث انبلج فجر الثورة الجزائرية بعد عامين وبضعة أيام من قيام الثورة المصرية، وذلك في الفاتح من نوفمبر سنة 1954، في منطقة الغَرْب الجزائري، حيث محور جنوب غربيّ الجزائر، التي انتزعها الثوار من قبضة المستعمر الإنجليزي، في مواجهة محور(وهران . معسكر . تيارت)، لتتجسد أمامنا القضية الأساسية، عالمياً، وهي عدوان الشمال على الجنوب، وتلك غربة زمانية ومكانية أخرى، وهكذا اشتد أتون الثورة الجزائرية، واندفعتْ في إصرار، حتى قيّض الله لها الفوز، فانتصر الثوار في الخامس من يوليو 1962، لتضع الحرب أوزارها، بعد معارك ضارية بين الغازي والمغزوّ، ونالت الجزائر استقلالها بعد تقديم الثمن الغالي في المليون شهيد، ليتقابل التناقض المتجدد بين زمانين ومكانين: زمان الاحتلال ومكانه، وزمان التحرير ومكانه، زمان الحرب ومكانها، وزمان السلْم ومكانه.

عنوانات أخرى:

على أن النص الموازي لم يقتصر على العنوان الرئيس فحسب. بل تضافر مع العنوان الرئيسي للسرد، عنوانات أخرى كانت دالة أبْلغ دلالة

على الزمان والمكان، ومنها ما نراه من دلالة زمانية ومكانية في العنوانات التالية بما فيها من تذكر للحدث الزماني والمكاني:

معركة الثلوج البيضاء (الفصل الأول)، ونهر سيبيجاج (الفصل السادس)، وعودة الذاكرة (الفصل الحادي عشر)، وأغنية على النهر (الفصل الثاني عشر). أما في متن السرد، فنلتقي بعلامات المكان، ودوالّه، ومنها:

جبل عامور: حيث تطورتْ الحرب حول جبل عامور، ذلك الجبل شاهق الارتفاع، الواقع جنوب غربي الجزائر، والذي شهد فنوناً من حرب عصابات في البداية، ما لبثتْ أن استحالت إلى حرب شرسة منظّمة يقوم بها فدائيون منتمون لوطنهم.

مدينة آفلو: حيث درات رحى الحرب، في تلك المدينة البعيدة عن مظاهر الحضارة والمدنية، والتي تعدّ المعْبر الوحيد الواصل بين هضاب الجزائر العليا، وصحرائها الكبرى، حيث سال لعاب المستعمر وراء بترولها، وحيث فاوضتْ فرنسا من أجل الاستيلاء على بترول المنطقة، رغبة في نهبه والاستيلاء عليه.

الصحراء، والهضاب: ربما كان البطل الحقيقي في هذا السرد، والمعْلم الأساسيّ في المكان هو الصحراء، وهو منظور آخر لرؤية الصحراء، غير منظور السارد الليبي إبراهيم الكوني إلى صحرائه في أعماله المرموقة، صحرائه بأساطيرها وغياهبها، أما الصحراء هنا، صحراء ذلك السرد الذي بين أيدينا، فهي صحراء مقاتلة، جنباً إلى جنب مع كل مقاتل، تعبيراً عن مشاركة المكان الإنسان في المواقف، وأكاد أقول

المشاعر، بما فيها من صفات القسوة، فتلك الصحراء شاسعة جليدية جرداء، ذات شتاء شديد البرودة، بثلوجه البيضاء، كانت من أبرزها **معركة الثلوج البيضاء.**

المكان المأوى/ المكان البطل: يحتل المكان مكانة روحية في وجدان الشعب الجزائري؛ بانتمائه إلى العلم الشهير، أو المواقف الخالدة، أو المعاني السامية، على رأسها، جميعا، يطل وجه من وجوه المكان بتعدد وجوهه، ووظائفه، وسماته، وأدواره في معزوفة، وسيمفونية منظّمة، من: نزل المدينة/ الفندق . قصر الأمير"عبد القادر"، الواقع في وسط مدينة آفلو، وهو مكان يعد بطلاً. لا بوصفه مركزاً إداريا لقيادة الثوار، فحسب، بل لإشعاعه الروحي، المستمد من شخصية صاحبه الأمير عبد القادر الجزائري، وكذلك ما حمل اسم ذلك البطل الرمز من: قصور أو مدارس في كل مكان، ومن الأماكن ذات الدور البطولي: المستشفى . الميدان . القرية . المدينة . قرية "سيدي بوزيد". الفندق . النهر، نهر سيبيجاج . وادي بركة . الكوخ . المزرعة .. إلخ.

دورة الزمان والمكان/ المكان الموحّد، برغم المسافات:

توحّد المكانان: الجزائر، ومصر، توحّداً ألغى المسافات، والحدود، حيث شارك المصريون في الحرب، بأجسادهم، وأرواحهم، وأسلحتهم، أثناء دوران رحى الحرب، ثم شاركوا، بعد خمود نيران الحرب، حين شنّتْ فرنسا، مشتركة في اتفاق ليل الحقد، مع كل من إنجلترا وإسرائيل العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956، ليختلط الدم الجزائري والمصري معاً، مرة أخرى في دورة الزمان والمكان علي أرض أفريقيا.

ومع التوحد، يتجسد التنوع المكاني والزماني مع شيوع معجم "المكان" شيوعاً واضحاً، مع أوصافه الدالة دلالة رامزة أو موحية، من البرودة الشديدة القاسية، والثلوج البيضاء، وصفات: الجرداء . المعْتم . الجبل . الصمت الثقيل... إلى آخر تلك الصفات والمعالم المتفقة مع ضراوة الحرب وقساوتها، لتنتهي سمات المكان الحربي إلى المكان السلمي في آخر السرد، لتكون السنابل رمزاً للحياة بعد أشباح الموت الاستعماري، ورمزاً للتجدد في النماء وحياة النبات، ورمزاً للغد الماثل في الزراعة، من مرحلة البذرة في الأمس إلى مرحلة السنبلة والحصاد في الغد، وما بعد الغد من مستقبل واعد مشْرق، وربيع مورق مزْهر، وهكذا كانت جملة الختام السردي زمانا ومكانا :

" **أما القمح... فهو ما زال ينمو بغزارة وتجود زراعته، ويطيب حصاده مع الأغاني في الربيع، على ضفاف نهر سيبيجاج**".

الأعلام عنصراً من عناصر الزمان والمكان:

يمثّل استدعاء أعلام السرد علامة من علامات الزمان والمكان، بما تستدعيه الشخصيات من حضور اللحظة الزمانية الغائبة أو الفائتة، وبثّ الحياة فيها من جديد في رحلة تمّوزيّة، مثلما تستنطق السّير والملاحم، فتبعث أشخاصاً نابضة من سردها، وتمثّلها، هكذا يكون استدعاء أسماء أشهر زعماء الثورة، مستدعيا، بالضرورة، زمان وجودهم، ومكانه، وزمان أحداثهم ، ووقائعهم، ومكانها، ومنهم: "أحمد بن بلاّ، وبومدْين، والشاذلي بن جديد، وعباس فرحات، وقايدي أحمد"،

بما يرمز إليه اسم كل منهم من إيحاءات دينية وتاريخية وبطولية وفدائية مادية ومعنوية، تتسع تأويلاته في تفسيرات التلقّي.

واستدعاء أسماء الشخصيات العامة، والأبطال يكتنز بالدلالات الزمانية والمكانية، التي تتنامى مع تعدد التفاسير، وفي مقدمتهم "جميلة"، باشتقاق الاسم، وتناغمه مع الوصف الحسّي، والمعنوي لها، على نحو ما يفهم من معنى الاسم بصيغة المبالغة في الجمال، ومعنى الصفة من الشقرة والقوام والقدّ، وهو ما يتفق مع وصفها الحسّي، تلك الفتاة الجميلة، جميلة، المقيمة في دارها الريفية التي أقطعها إياها الحاكم العسكري الفرنسي، بسعْي من الشريف بن أحمد، والمرتبطة بالمكان" آفلو" لعملها ممرضة بمستشفاها العسكري، قبل اندلاع الثورة، حيث ضمتْ إلى عملها ممرضة، إمداد الثوار بالمعلومات، في سلسلة تاريخها النضالي المرتبط بزمان السرد، ومكانه، والمرتبط بزمان ومكان الزعيم الجزائري الأمير عبد القادر، حيث ولدتْ في قصره لأمها الوصيفة، وكاتمة سر الأميرة عائشة.

وتحْضر جميلة، ويحضر أبوها الشيخ عمران، وكأننا أمام " مريم ابنة عمران" ، وكذلك الأميرة عائشة، وخديجة، أم جميلة، وللاسمين دلالتهما، وإيحاءاتهما، دينيا وتراثيا، وكذلك البطل"عشراتي" قائد الحرب في مدينة آفلو، واشتقاق الاسم من: العشيرة، والعشْرة، مقاومة لأهداف المستعمر الفرنسي منذ سنة 1830: من تفرقة، وعنصرية، وإبادة، وإفناء، وتهجير، وطمْس للهوية العربية والإسلامية، لولا مواجهة العشائر والقبائل والوحدة والتوحد.

وفي مجال الأعلام، وتفاعلهم الزماني والمكاني، بل وصناعتهم للمكان والزمان، يعلو فوق هؤلاء جميعا: الأمير عبد القادر الجزائري، الذي خلّد، وحفر في أعماق الشعب الجزائري مرحلة ممتدة من مجايلة أحداث ومواقف خاضها في قيادة الحرب قيادة روحية، ثم استمراره مجسّدا نابضا في صفحات التاريخ الجزائري والعربي، حتى يومنا هذا، حتى صار عنصراً من أهم عناصر الزمان والمكان، مخلّدا اسماً وفانياً جسداً، مع ملاحظة اشتقاق اسمه من عبودية لملك الملوك القادر جل وعلا. ويجري في مضماره القادة والزعماء من أمثال ابن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، ومنْ انتسبوا إلى الأمير عبد القادر، من نسْل الأشراف، ومنهم الزعيم الشعبي "الشريف بن أحمد"، آخر سلالةالأمراء، والحاكم الروحي للمدينة، وأمثاله.

في ذلك كله تتجلى عبقرية المكان والزمان في هذا السرد الفني، الذي يظهر قيمة الكلمة الأدبية في حفظ معلوماتنا عمن سبقونا، وهو الذي يؤكّد ما ذهب إليه المؤرخ الجغرافي (بدلالة المؤرخ على الزمان، والجغرافي على المكان) . ياقوت الحموي في (معْجم البلدان) في قوله:

" لوْلا تقييد العلماء خواطرهم للأخبار، وكتبهم للآثار، لبطل أوّل العلْم وضاع آخره".

وتلتقي دلالة استمرار الزمان والمكان وعدم فنائهما مع ما كتبه الشاعر الناقد الأمريكي"توماس إسترن إليوت" في (الرباعيات الأربع) "الزمن الحاضر والزمن الماضي، كلاهما، حاضران . غالباً في زمن المستقبل، وزمن المستقبل حاضر في الماضي"، مهما تنوعتْ مناهج

تفسير التاريخ بين كوْنه من صنْع البطل، وفعلْه، وهو ما يعنّي أنْسنة التاريخ، على أيدي أبطاله وصانعيه.. أو كوْنه صراعا بين الأيديولوجيات: شرقية وغربية، استعمارية ومحتلة، محلية، ووافدة.. أو كونه نتيجة ما سمّاه" آرنولد توينبي": " التحدي والاستجابة"، حيث تيقظت الثورة؛ استجابة للمداهمة.. أو كونه في حاجة إلى مدخل، أو تفسير نفسي، أو اجتماعي، أو عسكري، تتضافر فيه تلك العناصر.. أو خضوعه للتفسير الجمالي، أو للتفسير العلمي، أو للتفسير التقارني، أو التفسير الروحي، حيث ظلال الزعماء وعلى رأسهم الأمير عبد القادر . أقول مهما تعددت التفاسير للتاريخ، فإنني أراها ماثلة في هذا السرد الذي استعاد الثورة الجزائرية، بقيمها وخلودها حية نابضة كأنها اليوم، أو كأنها الأمس القريب في هذا السرد الجميل للأديب الكبير فاروق عبد الله ،،،

د. يوسف نوفل

أستاذ النقد بجامعة عين شمس، ناقد وشاعر وقصاص.

عضو المجمع العلمي المصري، وعضو اتحاد الكتاب

الفصل الأول

الانتصار الصعب

انتهت الحرب نهايتها المحتومة في الخامس من يوليو سنة 1962، بانتصار الثورة الجزائرية، وعودة الكرامة إلى الشعب الذي عانى من حكم المستعمر الغاشم طوال قرن وثلاثة عقود من الزمان الأسود.. كان قد تحول خلاله سواد الناس إلى عبيد وأرقاء، بعد أن مُسخت هويتهم وشوهت معالم حضارتهم، في محاولة لدمجهم في فرنسا، وتحويلهم إلى توابع وصور متتالية متشابهة، تدور في فلك الامبريالية الفرنسية، التي سرعان ما تحطمت أسطورتها، ودالت دولتها على صخرة الوعي وعزيمة الثوار..

ومن هنا جاءت عظمة النصر وضخامة المسئولية التي تمخضت عنه، خاصة بعد أن تكشف الفراغ الضخم الذي تركه رحيل الفرنسيين عن البلاد، بعد أن كانوا يسيطرون على كل إداراتها وقطاعاتها الحكومية، إضافة إلى آثار الدمار الذي عم البلاد، من قرى مهدمة.. ونفوس مهشمة.. ومصانع مخربة.. ومدارس معطلة، كل هذا.. مما ألقى بظلاله السوداء على فرحة النصر.. فجعله .. نصراً صعباً.

لكن! لا يأس مع الحياة، ولا مستحيل أمام إرادة الشعوب، خاصة إذا ما وهبها الله طليعة من أبنائها المؤمنين، الذين تولوا قيادتها بعد النصر، وعلى رأسهم الرئيس "بن بللا"، بمساعدة معاونيه : هوارى بومدين والشاذلي بن جديد وقايدي أحمد.. وغيرهم من المجاهدين

الشرفاء، الذين ساروا ببلادهم في طريق الحرية بخطوات ثابتة ورؤية واضحة، وقد وضعوا نصب أعينهم عدة مبادئ، أهمها استرجاع الشخصية العربية والإسلامية للجزائر، لذا فقد فتحت أبواب العمل على مصراعيها أمام الخبرة العربية، ووفد إلى البلاد الكثير من المدرسين والأطباء والمهندسين، من المصريين والسوريين والعراقيين في حملة حضارية عرفت من ضخامتها "بحملة التعريب"، في سباق من الوقت لتعريب الإدارة التي تركها المستعمر فرنسية، وإعادة بناء الصناعة التي تركها المستعمر مهلهلة مدمرة..

بعد انتهاء الحرب نهايتها السعيدة، عاد المجاهدون إلى مزارعهم، فتوافرت بذلك الأيدي العاملة، مما خفف العبء عن كاهل الشيخ عمران، وجعل جميلة تطمئن على سير العمل بمزرعة أبويها الكائنة على ضفاف نهر "سيبيجاج" بأقصى جنوب غرب الجزائر، فأينعت ثمارها ودرت ألبانها وفاض خيرها العميم، لذا فقد استقر رأي جميلة وعزمت أمرها على الرحيل والعودة إلى المدينة، لتواصل عملها السابق الذي قطعته أحداث الحرب، ولتحتل مكانها اللائق بها ضمن معركة البناء والتشييد.

كم كان فراق جميلة لأبويها حاراً ومؤثراً، أقسى ما في الأمر قد كان فراق الشيخين لحفيدتهما أمل، تلك التي أعطتهما الأمل في الحياة، بعد أحداث مرت بهما كلها بؤس وشقاء، لكن جميلة سرعان ما تحاملت على نفسها وهى تودع أبويها، ودعت معهما كلبها الباشا أيضاً.. ذلك

الذي عاش معها أجمل حقبة من حياتها قضتها بالمزرعة مع الحب والعواطف الدافئة.

رفعت جميلة رأسها عالياً وقد تحملت عيناها بنظرة تصميم، ضمت إليها وليدتها أمل بين أحضانها الدافئة ثم استقلت عربتها المسرجة إلى عنق جوادها الأشهب، الذي انطلق يطير بها يسابق الرياح في الطريق الخالي بين الهضاب المزهرة والحقول المثمرة، وسرعان ما هدأ النسيم العليل أفكارها المضطربة، فلانت نظرتها وهي تنقلها ما بين الطريق ووجه أمل التي ما فتئت في لهوها وعبثها تستقبل الحياة..

تدفقت مشاعر جميلة فياضة مع قفزات حصانها الجامحة وقد ألهبت ظهره بضربات سوطها الطويل.. ومع العدو الحثيث انسابت أفكارها أمام مخيلتها تتسابق بغير نظام أو ترتيب، فإذا بها تعبس تارة وتبتسم أخرى.. إلى أن توقف بها الزمن فجأة عند لقائها الأول بحبيبها وزوجها عمر، وكيف قد أتى به رفيقاه جريحاً مطارداً ليخبئاه بمنزلها ويتركانه لعنايتها وهو بين الحياة والموت.. تذكرت ذلك الانجذاب الغريزي الذي شدها إليه منذ اللحظة الأولى لرؤياه فانتشلها من أفكارها السوداء التي كانت تعيشها في ذلك الوقت، وجعلها ترى العالم كله في وجوده، كيف رعته بعد ذلك وضمدت جراحه حتى عادت به مرة أخرى إلى الحياة، ولقد كانت عودته من العدم عودة لها هي الأخرى إلى الحياة، شفاؤه قد كان شفاء لها من أحزانها التي ألمت بها بعد أن فقدت

زوجها الأول "عمار" وحينما اندملت جراح عمر.. اندملت معها جراح قلبها أيضاً، فعادت ترى الحياة مرة أخرى في ثوبها القشيب.. إلى أن جاءت اللحظة التي أحبها فيها عمر وطلبها للزواج، فبادلته محبته بشوق وقدرة مماثلة على البذل والعطاء، وعاشا بعد ذلك أيامهما السعيدة بالمزرعة معاً، زوجان هانئان يمرحان في بحر السعادة، ويرتويان من عسله بلا حدود.. إلى أن جاءت لحظة فراقهما المؤلم فتقوض عالمها، وهوت – ما بين جدرانه المحطمة – صريعة المرض فريسة للذكريات السوداء.. لكن السماء قد كانت كريمة معها غاية الإكرام، فبفضل من محبه الأصدقاء وعناية الرحمن، برأت من مرضها العضال، وزادت الأقدار فوهبتها ابنتها أمل ثمرة طيبة وأجرة عادلة لحبها لعمر.. إخلاصها له ورعايته حتى تمام الشفاء.. فبهذا يستقيم الوضع وتتعادل الأمور.. لا غالب ولا مغلوب.. المكسب على قدر الخسارة، خسرت الحبيب وكسبت الربيب، وهى بهذا جد راضية، فليس لها أن تتوقع من الحياة أن تهبها كل شيء، إذ أنه كما قد يوجد المنع يوجد العطاء، وحينما توجد السعادة لابد أن يواكبها الشقاء..

انتبهت "جميلة" من أفكارها وحصانها الأشهب يتهادى بها على أبواب مدينة "آفلو" فأبطأت من سرعتها وهى تخترق شوارع وسط المدينة العامرة بسكانها ومتاجرها الزاخرة ببضائعها ونتاجها، إلى أن توقفت أمام قصر الأمير عبد القادر، فاستقبلها حراسه بالمعزة والإكبار مفسحين أمامها الباب للدخول كأحد الفاتحين العظام.. وسرعان ما

تلقفتها أحضان صاحبة القصر سليلة الحسب والنسب، الأميرة عائشة تضمها مع أمل إلى صدرها الحنون، فبددت بحنانها كل الغيوم السوداء التي ظللت أفق حياة جميلة الجرداء.. ثم ما لبث أن مثلت ما بين يدي حاكم القصر.. الشريف بن أحمد الذي هش لها وأحسن استقبالها، وأنزلها من قصره وقلبه بمكانتها اللائقة بها، كسليلة مجد، وبطلة من أبطال الجهاد والنصر..

هكذا استقبلت مدينة آفلو بطلتها جميلة بالأحضان الدافئة وباقات الزهور، لتعيش حياتها الجديدة بين ربوعها الواسعة عزيزة مكرمة.. وسرعان ما احتلت مكانتها السابقة كمدرسة مُهابة بمدرسة آفلو العامة، لتحيي بذلك لغتها العربية التي أوشكت على الاندثار، ولتعيد تدريس تاريخها الحديث بما يستحقه من فخر وبهاء.. يتنسم شذاه جيل جديد من أطفال النصر، أحرار أبناء أحرار، يحدوهم الأمل الواسع في مستقبل باسم سعيد..

كان التغير الذي ألفته جميلة بمدينة آفلو " بديعاً حقاً، فلقد نشطت أجهزة الدولة لإعادة الحياة إلى جميع المرافق التي دمرت أثناء الحرب، فأقيمت المساكن الحديثة مكان تلك التي تهدمت، وانشئت المدارس، وأقيمت المستشفيات، وشيدت المصانع التي زُودت بأحدث الأجهزة والمعدات، والتحق في إدارتها العديد من الخبراء والعمال الوطنيين والأجانب في مظاهرة حب لإعادة تعمير الجزائر، ولم يكن نصيب آفلو من إعادة التشييد والبناء بأقل من مثيلاتها من المدن البعيدة أو

النائية، فلقد قامت استراتيجية البناء على عدالة التوزيع التي تساوى أمامها البعيد مع القريب، بل لقد تميزت الأقاليم البعيدة في بعض الأحيان تشجيعا لارتيادها وتعميرها، حتى لقد عمها الرخاء وتمتعت بالدعة والبساطة والسكون.. لذا فسرعان ما تفاعلت جميلة مع حياتها الجديدة بالمدينة، التي ما لبثت أن سارت بها سيرها الحسن المعتاد، بعد أن آمنت سبل معيشتها من حاصل راتبها الذي تتقاضاه في التدريس، إضافة لمعاشها الشهري الذي تقاضته من الدولة باعتبارها أرملة للشهيد عمار وأماً لابنته أمل، بعد أن ساد الاعتقاد لدى الجميع بصحة ذلك لتزامن الأحداث وتقاربها.. قلائل هم الذين علموا الحقيقة المغايرة، لكنهم تكتموها بعد أن تعارضت مع المصالح العليا للبلاد، فاجتمعت آراؤهم على طمسها تماشياً مع الواقع الجديد، وليطوي بذلك الزمن قصة حرب ضروس سالت فيها الدماء، وقصة حب تساقط خلالها أبرياء شهداء.

في ردهات القصر الكبير، انطلقت الصغيرة أمل تروح وتغدو في مرحها الطفولي، فأعادت إليه نبض الوجود، مما جعل الأميرة "عائشة" تعيش من خلالها طفولة جديدة.. ازدهرت الأماني في صدرها وهى ترقب أمامها تجدد الحياة في أمل التي بدأت تنمو وتملأ جنبات القصر بصرخاتها الصاخبة وضحكاتها المجلجلة، فإذا الدنيا تضحك من جديد.. والكل سعيد، خاصة بعد أن استعاد القصر مجده القديم بتنصيب "الشريف بن أحمد" حاكماً عاماً لإقليم آفلو بدرجة نائب

للوالي، فسعى إليه الرؤساء، وخطب وده القادة والعظماء، وعقدت على شرفه المؤتمرات، وأقيمت احتفالاً بعدله الولائم والأفراح والأعراس..

كان يمكن لجميلة أن تركن لجانب الدعة فتعيش في سعادة بين ردهات القصر الواسعة وحدائقه اليانعة، حيث الجمال والسلطة والمجد والنفوذ.. لكنها أبت الا أن تخرج للحياة وأن تستمر في الكفاح، فهكذا حال الأبطال، كلما وصلوا إلى مجد، ألقوه وراء ظهورهم في تواضع وبحثوا عن مجد جديد، وهكذا فإن جميلة لم تقنع بما آل اليه مآلها من مجد بالقصر، أو بمكانتها كمدرسة مهابة بمدرسة آفلو.. لكنها عقدت العزم على أن تواصل تعليمها الذي توقفت عنه بفعل أحداث الحرب، فالتحقت بمعهد التعليم المعمم المتمركز بمدينة "تيارت" عاصمة الولاية، وراحت تواصل دراستها به عن طريق المراسلة، فكانت تصلها الكتب والأسئلة والمذكرات بالبريد، بينما يتم شرحها ومناقشتها عن طريق البرامج الإذاعية التي خصصت لذلك ضمن مخططات الإذاعة الجزائرية، فعوضت بذلك النقص في هيئات التدريس، وأشبعت نهم جميلة وأمثالها من العلم والتحصيل..

* * *

كان العام الدراسي قد أوشك على الانتهاء حينما انهت "جميلة" امتحانات أطفالها الصغار الذين تشرف على تعليمهم بمدرسة "آفلو"، وتفرغت بعد ذلك لاستذكار دروسها بالسنة الثانية الثانوية تمهيداً لأداء امتحانها فيه..

حينما حان الوقت، حملت جميلة طفلتها أمل مع كتبها وتجهيزات سفرها، واستأذنت من الأميرة عائشة التي باركتها ودعت لها بالنجاح، ثم استقلت حافلة الصباح التي سارت بها في الطريق المقفر الطويل الموصل إلى تيارت، وتذكرت جميلة المرة الأخيرة التي سارت فيها بهذا الطريق، وهي تحمل بين أحشائها أمل التي لم تكن قد أتت إلى الحياة بعد، وتحمل بين ضلوعها قلباً شغفه حب عمر، الذي فارقها ليؤدي واجبه في الانضمام لجيش الثوار بعد أن استرد ذاكرته وما نتج عن ذلك من نسيانه لأيامهما معاً.. تذكرت كيف أخفقت في العثور عليه أو الاهتداء إلى مكانه.. الحزن الذي هاجمها، اللحظة التي انكسر فيها قلبها تحت أسوار القلعة فبكت بحرقة دون أن يحس بمأساتها أحد في الوجود، سوى ذلك الضابط الغريب الذي أطل عليها من بين شرفات القلعة ولم تكد تتبين ملامحه جيداً من كثرة ما غصت عيناها بالدموع.. تذكرت كيف عادت من الرحلة وقد خاب مسعاها في رؤية عمر قبل عودته إلى بلاده عودة نهائية بلا أمل في لقاء أو رجاء، فعمر الذي أحبته هو شخص آخر غير الذي عاد.. عمر الذي أحبته قد كان مريضاً مجروحاً.. فلما شفي واستعاد ذاكرته.. طار إلى بعيد.. ونسيها.

نظرت جميلة من نافذة الحافلة إلى أبعد ما يمكن أن تصل اليه عيناها في الصحراء الممتدة المحيطة بها، فربما استطاعت نظرة أن تفلت من بين الكثبان الرملية.. لتطوي إليه المسافات الشائعة الفاصلة ما بين البلدين، فتنعم ولو بلمحة من محياه الوضاء الجبين الذي

أوحشها رؤياه كثيراً، تساءلت عما عساه يفعله الآن؟.. أفقد وجد السعادة مع زوجته السابقة التي عاد إليها!؟ أله منها بنين وبنات تقر بهم عيناه!؟ .. لكن مالها تسأل الآن؟! ألم ينته ذلك كله بعد؟ ألم تقطع على نفسها العهد وتأخذ المواثيق بألا تعيد ما قد كان؟ لا بأس.. إن هي إلا ذكريات الطريق الطويل الشاق وما اعتراه من ذكريات جياشة، ما تلبث أن تفارقها لحظة الوصول..

في تيارت نزلت جميلة وابنتها ضيفتان على الاستاذ "سحنون" وزوجته السيدة "آمنة" اللذان عادا بعد الحرب من هجرتهما البعيدة ليعمرا بيتهما الذي هجراه.. ولشد ما هال جميلة مرآهما الحزين، خطواتهما الهادئة الوقورة الناتجة عن كيان مهدم وقلب موجوع، لم تكفهما فرحة النصر للتغلب على شجنهما بفقد ابنهما الوحيد عمار، إذ هكذا هي الحرب، كثيراً ما تأخذ منا أعزاء، وتترك آثارها المدمرة على الغالب والمغلوب.. معاً.. وفي آن واحد..

لكن الابتسامة ما لبثت أن عرفت طريقها إلى محياهما الذي اعتاد التجهم والعبوس، فرحتهما قد كانت بلقاء حفيدتهما أمل باعتبارها الأثر الباقي لهما من ابنهما الشهيد.. كيانهما الهزيل يتفتح ويهتز أمام مرأى أمل في خطوها الواهن الضعيف.. حركاتهما البطيئة تسرع في استجاباتهما المطلقة لطلباتها العديدة، صوتهما يخفت وتتدفق الدماء حارة في نبض وجودهما، وهما يحاورانهما ويداورانها في محاولة التوصل إلى لغة للتفاهم المشترك بينهما وبينها.. لذا فلم يكن هناك بد

من أن تستمر جميلة في ترسيخ الاعتقاد السائد بأن أمل هي ثمرة زواجها من الشهيد عمار.. فأي معنى في إخبار الشيخين بأن أمل ليست حفيدتهما، وأنها ثمرة زواجها من عمر؟.. أليست الحكمة فيما شاءته الأقدار؟!.. السعادة أن يكون لأمل جدين عطوفين مثل سحنون وآمنه، يهبانها بقدر ما تعطيهما سعادة خالصة، قد يكون فيها العوض للشيخين عن فقدان ابنهما الشهيد، والعوض لأمل عن ضياع أبيها الغائب.. وأخيراً السعادة لجميلة فيما ينتج عن ذلك من السلوى والنسيان..

بعد أيام كان أداء جميلة لامتحانها بالقسم المعرب بمعهد التعليم المعمم الذي عقد في تيارت تحت إشراف نخبة من الأساتذة المعربين.. استيقظت خفيفة مع الصباح الباكر والآمال تغدو في صدرها وتداعب خيالها، حرصت على أن تنتقى ثيابها بعناية لتكون مثل قريناتها من المتجملات في أدائهن للامتحان، حتى ترقق قلوب المراقبين فلا يشتطوا أو يصعبوا الأمور.. لم تنس أن تضع لمسة من المساحيق الحمراء لتبرز جمال شفتيها النضرتين.. ألقت على نفسها ابتسامة راضية في المرآة قبل أن تخرج إلى عرض الطريق وهى تسرع الخطى برشاقة إلى لجنة الامتحان ..

انتظمت جميلة مع أقرانها في لجنة الامتحان الواسعة بينما أحاط بها حراسها ومراقبوها، تلقت الأسئلة بشوق، وكانت إجاباتها بحنين لأيام دراستها القديمة.. كان سرورها الأكبر في اكتشافها لمقدرتها الفذة

على التفهم والاستيعاب ثم الإجابة بدقة وثقة وتركيز، مما قرب إلى نفسها الأمل في النجاح والتصميم على المضي فيه..

بين الحين والآخر.. كانت تختلس النظرات لقريناتها المجاورات لها لتقارن نفسها بهن، ولكم أسعدها أن تحس بنفسها واحدة منهن لم تكد تكبرهن بعد، إذ معنى ذلك أن الفرصة مازالت أمامها سانحة لتجد طريقها بينهن، وأن قطار التعليم لم يفتها بعد..

لكن شيئاً من الضيق داخلها وهى تلمح نظرات المراقب الوقحة التي ما فتئت تنفذ من بين ثيابها ليرى من خلالها أجزاء فاتنة من جسدها البض التي افلتت من الحصار الذي أغفلته ملابسها الصيفية القصيرة الواسعة فسمحت للعيون بالكثير.. وربما هذا هو بالضبط ما دار بخلدها وما قصدت إليه وهي تتجهز أمام المرآة في الصباح، أن ينشغل مراقبوها بجمالها فيتركوا لها الفرصة للإجابة أو للنقل في هدوء.. لكن الخيال شيء والواقع شيء آخر، خاصة وعينا ذلك المراقب الوقحتان لا تكلان ولا تملان ولا ترحمان.. أرادت أن تعبس في وجهة، لكنه اقترب منها بابتسامته الصافية، قلب في أوراقها ليطالع إسمها قبل أن يجيبها بلهجته العربية الآتية من الشرق قائلاً: إسمك جميلة.. وأنت حقا جميلة..

خفق قلبها وغاص بين ضلوعها، وقد أعادت لهجته الأجنبية ذكرياتها المؤلمة لـ "عمر"، حتى لقد بادرته بصوتها الخافت وأنفاسها المتهدجة متسائلة: أ مصري أنت!؟..

أجابها بضحكته الصافية قائلاً: نحن أبناء عمومة واحدة ثم ما لبث أن عاجلها قائلا : أنا سوري.. واسمي "غسان" ..

غمغمت وهى تخفي اضطرابها في أوراق إجاباتها: أهلاً بك.. في بلدك الثاني الجزائر.. فكلنا أبناء عمومة واحدة..

****

وفد غسان إلى الجزائر للمشاركة في حملة التعريب بها، ولقد كان من حسن حظه العمل في مدينة تيارت عاصمة الغرب الجزائري، التي تتشابه في مناخها وطباع أهلها مع الشمال السوري الذي وفد منه، حيث الثلوج تغطي جبالها طوال فترة الشتاء.. حتى بشرته البيضاء وشعره الأشقر فقد تشابه كثيراً مع الأغلبية الشقراء التي حملت نفس الصفات بالجزائر، ربما لانحدارهم من أصل واحد، لذا فقد كان اندماجه مع الجزائريين سهلاً بدون تعقيدات.. بل لقد هيأت له وسامته الظاهرة العديد من الفرض للهو والاستمتاع مع أطراف نسائية عديدة، تهافتن عليه تهافتهن على كل غريب يدعو إلى حب الاستطلاع، لذا فلم تكن في نظرته الوقحة نحو جميلة شيئاً جديداً عليه أو خارجا عن المألوف، لم تغضبه نظراتها الحادة التي ما لبثت أن لانت بعد حديثهما الضاحك القصير، لذا فقد تابعها بعد ذلك ولاحقها في الأيام التالية للامتحان، لم يترك فرصة سنحت له إلا وتقرب إليها، وهو يكتشف فيها المزيد من الدماثة والخلق الرفيع، الرقة المتناهية مع نبل وشجاعة، مما حببها إلى قلبه فخرَ صريعاً بسهام لحظها الفتاك.. لكن الفرحة سرعان ما تلاشت

بنهاية الامتحان، انقطع عنه مرآها المحبب دون أن يعرف لها موطناً أو عنواناً.. لذا فقد راح يواسي نفسه بما كان عليه من قبل، من عبث وضحك وصخب ومتابعة الجميلات..

أما جميلة فقد عجبت من نفسها طوال فترة معرفتها به ومجاورتها إياه، كم من مرة أرادت أن تعبس في وجهه وهو يطالعها بنظراته الوقحة الجريئة لكنها لم تستطيع، ضعفت وهي تتكاسل وتتراخى وتترك شتات جسدها العارية نهباً مشاعاً لعينيه المتلصصتين، في كل مرة أرادت أن تصده كم وجدت نفسها عاجزة تعصاها، لانت مشاعرها بتأثير وسامته الظاهرة وابتسامته المشجعة البشوشة التي حركت فيها غرائز الأنثى بعد طول حرمان، ولكم ثارت على نفسها في تلك اللحظات وهى تعجب كيف سمحت لمثل تلك الأحاسيس أن تراودها مرة أخرى حتى ولو كانت مختلسة أو عابرة، فبعد ما كان لها من مأساة .. ما الذي يتبقى لها في الرجال!؟..

لكنها كثيراً ما تمردت على أشجانها في محاولة شجاعة لتفر من قدرها الحزين، تساءلت ما الضرر من تلك الأحاسيس؟! أو ليست هي امرأة كسائر النساء؟.. أ و ليس من حقها أن تحب وأن تشتهي وأن يشتهي جمالها الرجال؟.. وما الذي يمنعها من ذلك؟ أهو الوفاء لعمار الذي مات؟ أم لعمر الذي ماتت أحاسيسه تجاهها؟ .. وآه من موت الأحاسيس! كم هو مؤلم ومخيف، لذا فلا معنى للوفاء في مثل تلك الأحوال، لأنه بلا معنى وضرب من الجنون، إذ عنده تتوقف الحياة..

لذا فالعقل يقضي بأن ندع الحياة تمضي وتفعل بنا ما تشاء، فما أبدع الحياة ..

ما كادت أحاسيس جميلة تتفتح أمام هجمات غسان الوقحة، حتى انقطع مرآه عنها بنهاية أيام الامتحان، لذا فسرعان ما لملمت عواطفها المشتتة لتعود تقنع بحياتها الوادعة في كنف حميها الاستاذ سحنون، بينما وجدت آمنه في قربها من أمل البديل عن كل أحزان الماضي ومآسيه، ومن هنا جاء طلب الشيخين الملح في أن تنتقل إليهما جميلة لتعمل في تيارت، وتقيم معهما في مسكنهما الواسع الخالي، فتملأ بذلك– مع أمل– فراغ حياتهما الموحشة ..

كان العرض سخياً بل ومعقولاً أيضا، ففي انتقال جميلة للعمل في تيارت فرصة ذهبية لاستكمال تعليمها بمعهد التعليم المعمم المتمركز في عاصمة الولاية ولا توجد له فروع في آفلو، لذا فما كادت تعلم بنجاحها في امتحان النقل الذي أدته، حتى سعت بمعونة من الاستاذ سحنون، إلى أن كلل مسعاها بالنجاح، فانتقلت للعمل بمدرسة متوسطة داخل المدينة، وبذا فقد هدأ بال الشيخين وانشرح صدرهما بقربهما الدائم من حفيدتهما أمل التي ما فتئت تلهو وتصخب وتضحك للحياة ومن الحياة ..

في الأيام التالية، عمل الاستاذ سحنون بكل ما وسعه من طاقة وحنان على رعاية جميلة وفتح فرص الحياة أمامها، فبعد أن تبوأ مركزاً مرموقاً في حزب "جبهة التحرير" الحاكم، كجزاء له على كفاحه

المشرف من أجل الاستقلال.. فتهيأ له من النفوذ والسلطان ما جعلاه قادراً على تحريك الأحداث، لذا فسرعان ما وجدت جميلة نفسها قريبة من مواطن السلطة والإدارة في تيارت، تلك التي استقبلتها كبطلة من أبطال التحرير والنصر، فكان جزاؤها سخياً على قدر العطاء ..

بترشيح من إدارة الحزب، تم اختيار جميلة لتشرف على تعليم اللغة العربية لكبار موظفي الإدارة في الولاية ممن فاتهم تعلمها أثناء فترة الاحتلال، ولقد كان في أسلوبها السهل ومعاملاتها اللطيفة ما حبب فيها الجميع وجعلهم يتسابقون على خطب ودها وإطاعة أوامرها.. لكنها بقيت أمامهم صامدة، مثالاً مشرفاً للبطلة العفيفة المناضلة، مما صرف عنها قلوب الرجال إكتفاءً منهم بوضع عقولهم تحت سيطرتها، لتدخل فيها شعاع من نور اللغة العربية التي غابت عنهم عشرات السنين، وهكذا حققت جميلة دخلاً لا بأس به من أعمالها العديدة في تدريس اللغة العربية والترجمة في الإدارة والحزب، لذا فسرعان ما تطلعت لأن يكون لها مسكنها المستقل الخاص بها، حرصت أن يكون قريباً من منزل حمويها حتى يمكن لها أن تترك أمل في رعايتهما طوال فترات عملها وتغيبها عن المنزل.. ومن ناحيتهما فلم يمانع الشيخين في انتقالها إلى مسكنها الجديد، خاصة وأن الجوار قريب، والأهم لوجود أمل في ضيافتهما فترات عمل جميلة الطويلة، لا تكاد تفترق عنهما إلا في الليل لتلحق بأمها، تضمها أحضانها الدافئة حتى الصباح، بل كم من ليلة باردة أشفقت آمنة على أمل أن تنتقل خلالها إلى منزل جميلة، فأصرت على مبيتها معها حتى لا يصيبها البرد بأذاه، ومن جانبها فقد

سعدت جميلة بهذا الحب العظيم الذي جعلها تطمئن على ابنتها بين أيدي رحيمة محبة حانية طوال فترات تغيبها في أعمالها العديدة مما شجعها على التفرغ لأعمالها والتفاني في دراستها على حد سواء..

كثيراً ما كانت تفد إلى تيارت العديد من الوفود العربية المشاركة في إعادة بناء الجزائر وتنمية الصناعة في البلاد.. ولقد كان تفاهم تلك الوفود باللغة العربية مع الإدارات التي لم تعرب بعد شاقاً وعسيراً لذا فقد كان تواجد جميلة في مثل تلك الاجتماعات هاماً وضرورياً لتقوم بالترجمة بين الفريقين، بل وفي أحيان كثيرة لم يكن هناك بديل عنها، خاصة حينما يكون الوفد القادم على مستوى عال من السرية والأهمية، مما يتطلب وجودها باعتبارها معينة من السلطة الحاكمة وكاتمة لأسرار البلاد.

لم يمنعها ذلك كله عن مواصلة الدراسة والبحث والتحصيل لتجتاز سنتها النهائية بالثانوية العامة.. لذا فقد حرصت كثيراً على أن تحضر حصص الدراسة الليلية بمعهد التعليم المعمم، والتي كانت تعقد لأمثالها ممن تأخروا في التحصيل.. ولكم كانت دهشتها عظيمة ومفاجئة، وهى تكتشف أن غسان من بين أساتذتها ومعلميها بالمعهد.. بل أنه الوحيد دون سواه المكلف بأن يدرس لها مادة اللغة العربية.. تلك التي عشقتها ونذرت نفسها لتعلمها وتعليمها.. وكم ازداد إعجابها به وهى تكتشف فيه بحراً واسعاً زاخراً بقواعد اللغة العربية، عليماً بقوافيها خبيرا بفيافيها، فغاصت وتعمقت فيه بشغف وهى تنهل من موارده العذبة، وتزدان بدرره العجيبة..

الفصل الثاني

سوزي

بانتهاء حرب التحرير الجزائرية واستقلال الجزائر عام 1962، عاد عمر إلى مصر معززاً مكرماً كبطل من أبطال التحرير والنصر، واحتل مركزه المرموق في مجال الصناعة الوطنية.. وبرغم صدور قرارات التأميم لمعظم الصناعات المصرية بداية من عام 1960، فقد ظلت شركات هاشم حمدان المعروفة باسم أولاد حمدان بمنأى عن هذا التأميم لما تمتع به صاحبها من سمعة طيبة في مجال الصناعة والتجارة المصرية في الداخل والخارج، بالإضافة إلى صلاته القوية بالعديد من رجال الحكم في مصر، مما ساعد على ازدهار شركاته وتخلصها من العوائق، فنمت وانتشرت فروعها داخل البلاد وخارجها، بفضل إخلاص رجالها وتفانيهم في أداء رسالتهم التي اعتبروها جزءاً هاماً من رسالتهم الوطنية نحو بلادهم، حتى جاء عمر كثمرة طيبة من ثمار تلك الشجرة العملاقة، فتنقل بين فروعها، وطار خفيفاً بينها من بستان إلى زهرة، إلى أن حط به الرحال مديراً لفرع الشركة في صنعاء عاصمة اليمن.

كانت اليمن في بداية الستينات مسرحا لأحداث دامية، نتجت عن ثورتها المسلحة التي انتهت بخلع الإمام الحاكم عن حكم البلاد، مع إعلان الجمهورية التي لاقت مصاعب جمة في سبيل ترسيخها بالنظر لتعارض الحكم الجمهوري التقدمي مع طبيعة المجتمع اليمني المغلق

في ذلك الوقت المقسم إلى قبائل وعشائر تدين بالولاء للإمام المخلوع، لذا فسرعان ما استنجد قادة الانقلاب العسكري بعبد الناصر في مصر، ليمدهم بالعون في سبيل ترسيخ نظامهم الجديد، استناداً لمعاهدة الدفاع المشترك الذي سبق أن عقدت في عهد الإمام المخلوع، التي عُقدت لتمده بالحماية والرعاية فإذا بها تعود لتستخدم ضده وللقضاء على حكمه.. ولم يضيع عبد الناصر الفرصة الذهبية التي سنحت له لتغيير خارطة اليمن السياسية من حكم رجعي متخلف إلى حكم ديموقراطي تقدمي، تمارس فيه الحريات السياسية التي نادى بها واعتنقها وساعد على امتدادها بالمنطقة.. لذا فقد أرسل عبد الناصر بكل ثقله من رجال وسلاح وعتاد، وبدأ الجيش المصري يفد إلى اليمن بأعداد كبيرة ليحارب في أرض جبلية حرباً نظامية جديدة عليه، ضد ثوار على علم بطبيعة الأرض يضربون ويختفون في شقوق الجبال دون أن يعثر لهم على أثر.. في البداية كانت قوة أنصار الملكية ضعيفة متهالكة مما مكن القيادة المشتركة للثوار اليمنيين والمصريين من فرض سيطرتهم على مساحة كبيرة من البلاد.. لكن ما لبثت قوة الملكيين أن تعاظمت وهم يتلقون المدد من الدول الملكية المجاورة التي ربما رأت في امتداد نفوذ عبد الناصر وتغلغله فيما وراء خطوطها خطراً يتهدد أنظمتها، خاصة وأن عبد الناصر لم يكن يتورع عن إعلان عدائه صراحة لكل النظم الملكية في المنطقة ويتهمها بالرجعية وممالأة الاستعمار، لذا فسرعان ما قوي الصراع واشتدت المعارك بين الجانبين الذين تنافسا في استخدام الأسلحة الحديثة التي استجلبها الطرف الأول من روسيا والتي

ساندت نظام عبد الناصر، بينما استمدها الطرف الآخر من أمريكا التي ساندت نظام إمام اليمن المخلوع، وهددت الحرب في أحيان كثيرة بنشوء مواجهة عسكرية مسلحة بين القوتين العظميين اللتان حشدتا سفنهما وأساطيلهما على مقربة لمراقبة تطور النزاع في المنطقة.

في غمار هذا الوضع الملتهب.. أنيط بعمر مهمة افتتاح فرع شركة أولاد حمدان للتجارة والمقاولات باليمن، في نطاق الخطة المصرية اليمنية التي كانت تسعى لتقوية الروابط بين البلدين، وكان عمر من أوائل الرجال الشجعان الذين بادروا بخوض معركة الكفاح الاقتصادي في اليمن، والتي لم تكن تقل في ضراوتها عن معركة الكفاح المسلح، لذا فسرعان ما أثث مكتبة على أحدث النظم المكتبية، والتحق به العديد من المصريين واليمنيين، مهمتهم عقد الصفقات التجارية بين البلدين، والتغلغل داخل البلاد للاتصال بالقبائل لشراء محصول اليمن الرئيسي من البن المعد للتصدير، لكن معظم هؤلاء قد كانوا في حقيقتهم من المخابرات والجواسيس الذين يلعبون لعبة الذكاء لحساب هذا وذاك، في محاولة لاستمالة جانب ضد الآخر، أو لجمع المعلومات عن الخطط والمعدات العسكرية وتحركات القوات لينقلها هذا الطرف إلى ذاك أو بالعكس.. ولقد استمرأ عمر لعبة الذكاء تلك التي برع فيها وأجادها لمصلحة بلاده، خاصة وهو على صلات طيبة بأعلى الطبقات الحاكمة إن هنا أو هناك، مما كان يعطيه الفرصة لسرعة النفاذ والاختراق، ولقد قام بعدة عمليات هامة أداها بنجاح مشهود، لما

له من دراية سابقة بفنون الحرب والقتال، مع بسالته ومعدنه الحر المناضل المعني بقضية الحرية والمثقل بأفكار الثورة المحب لبلاده.. ولعبد الناصر، كل هذا مما وطد مكانته لدى النظام الحاكم، وبشر بمستقبل زاهر ونجاح موعود ..

كانت وفاء أحياناً ما تقوم بزيارة عمر في اليمن، مصطحبة معها الوفود النسائية لتنشيط الحركة النسائية وتقوية الروابط بين البلدين، أملاً في أن تسلط عليها الأضواء كنجمة من نجمات المجتمع وبطلة من بطلات الثورة.. لكن حرب اليمن قد كانت من نوع آخر مختلف، أشد جفافاً وأكثر مشقة، لذا فكثير ما كانت تعود إلى مصر هاربة، حيث الأضواء والبريق اللذان اعتادت عليهما، فلم يكن في اليمن سوى الحرارة الحارقة المشبعة بالرطوبة الخانقة، مع القليل من الزيارات المملة بين رجال الأعمال والصناعة والسلك الدبلوماسي، التي لم تكن تجد فيها ما يسلي أو يشد اهتمامها، خاصة في ذلك الجو المشحون بالمخاطر والأنباء المتضاربة والخطيرة عن القتال الدائر على سفوح الجبال بين القوات الملكية والجمهورية، وتزايد عدد الشهداء والقتلى بين الفريقين، مما كان يثير الذعر في النفوس، خاصة نفس وفاء المرهفة التي تأنف بطبيعتها ساحات الحرب والقتال، لذا فكثيراً ما كانت تعترض على تواجد عمر بتلك البلاد، وتعجب لماذا يتحمل معيشته القاسية بها، في الوقت الذي يمكنه ان يلتحق بأي فرع من فروع شركات أولاد حمدان في بلاد أخرى عربية أكثر أمناً، أو بلاد أوروبية عامرة بالحركة منتعشة

بالأضواء، ولو أنه استمع لنصحها بالالتحاق بالسلك الدبلوماسي، لكانا الآن ينعمان بوظيفة محترمة بإحدى السفارات المصرية في أوربا أو أمريكا، لكنه كان يرفض دائماً تلك العروض، مما كان يسبب النزاع الذي سرعان ما يتطور بينهما إلى شجار ينتهى بقطيعة تمتد إلى أيام وشهور ريثما يعود الصلح بينهما مرة أخرى.. وهكذا امتدت أيامهما معا في سلسلة متصلة من الخلافات العقائدية، دون أن يكون هناك بارقة للقاء فكرى قريب..

في إحدى الحفلات التي ضمت العديد من رجال السياسة والمال في اليمن، كان هناك خليط متنافر من الرجال والنساء من شتى الجنسيات، يلتقون لممارسة رياضتهم المحببة في لعبة الذكاء وجمع المعلومات، وبالطبع كان هناك عمر وزوجته وفاء التي تصادف تواجدها في إحدى زياراتها لزوجها في اليمن، ولقد كانت وفاء برمة ضيقة الصدر بهذا الجو الخانق الذي لم تعتاده من قبل، بينما كانت نظرات عمر كلها مركزة على تلك الشقراء الفاتنة التي خطفت القلوب وسلبت الأبصار بثوبها المكشوف وفتنتها الصارخة، مما ألهب الغيرة بنفس وفاء وجعلها تكيل لعمر الاتهامات.. لكنه طمأنها لعدم أهمية الأمر، وأن هذا إلا جزء من عمله في إيجاد علاقات عامة تجارية مع العديد من رجال السياسة والاقتصاد المتواجدين بالمكان، وعلى رأسهم تلك الغادة الفاتنة الشقراء المسماة مدام "سوزي"، والتي تعمل في السفارة الإيرانية والتي انغمست في لعبة الجاسوسية والذكاء حتى أخمص

قدميها، مما جعلها مستودع كبير للأسرار العسكرية والاستراتيجية الهامة، تدور حولها وبالقرب منها الحوادث والأحداث.. أما الشيء الذي كانت تجهله وفاء فهو أن التعليمات كانت قد صدرت إلى عمر بملاحقة تلك الغادة الهيفاء للحصول منها على بعض المعلومات الهامة بشأن إمداد سفارتها للملكيين ببعض الأسلحة والمعدات الحربية المتطورة مما يخل بتوازن القتال، لذا فسرعان ما تم اللقاء بين الفريقين (فلكل أتباع ومساعدين)، وكلاهما يحاول جذب اهتمامات الطرف الآخر والفوز بصداقته، إذ أن معظم ألعاب الذكاء تتم دائماً على أرض مكشوفة بلا سماء أو غطاء، حيث يعلم كل طرف مسبقاً بما لدى الآخر وما يود أن يعرفه من خلاله من معلومات، وتكون الغلبة في النهاية للطرف الأحد ذكاء والأكثر حيلة ..

كانت دهشة عمر بالغة وهو يكتشف مقدرة سوزي على التكلم باللغة العربية بطلاقة وأن كان يشوبها لكنة جزائرية، وسرعان ما أبلغته من خلال حديثهما المسترسل وشعورهما الفياض بأنها قد عاشت طفولتها ومهد صباها بالجزائر إبان الاحتلال الفرنسي لها، حيث تعلمت اللغة العربية هناك، إلى أن اشتد المد الثوري، فغادرت البلاد إلى فرنسا ثم انتهى بها المطاف للعمل ضمن مترجمي السفارة الإيرانية في صنعاء، أما الشيء الذي لم تقله سوزي فهي أنها تنحدر من سلالة اليهود الفرنسيين الأشد تعصبا ضد العرب والإسلام، لذا فقد كانت من أنشط العاملين في حقل الجاسوسية ضد العرب عامة، وحكم عبد

الناصر خاصة.. ذلك الذي غير بمده الثوري خريطة المنطقة السياسية، وأخل بموازين القوى التي كانت تميل من قبل لصالح اليهود، وساعد بدرجة كبيرة على اضطهاد شعبها اليهودي وخوض الحروب العديدة والمتكررة ضده، مما أوجدها على عبد الناصر وجعلها تسعى للعمل مع أعدائه بهدف تدميره والإطاحة بحكمه.. أما الشيء الذي لم يدركه عمر ولكن استطاع بعقله الباطن استشعاره والتعرف عليه لأول وهلة، هو ذلك الشبه الكبير في الشكل والطباع ما بين سوزي وجميلة، مما أشعل بداخله طاقة حب فياضة، ممتدة لا شعورياً إلى حقبة من ماضيه عاش خلالها أجمل فترات حياته.. ومن هنا جاء ذلك الانجذاب الغريب الذي دفعه للجري وراء سوزي ربما بسرعة أكبر مما تتطلبها مهمته في تعقب أسرارها وفضح نواياها والحصول منها على المعلومة المطلوبة، وربما وضعه ذلك في طريقها ومنذ البداية ومن حيث لا يدري ضعيفاً منزوع السلاح، مما أخل بتوازن العلاقة بينهما، وجعلها في مركز القوة قادرة على أن تحركه كيفما ترغب أو تشاء ..

لم يكن عمر يدري سبباً لهذا الضعف المتناهي الذي انتاب علاقته بسوزي، وهو الناضج المدرب على شتى فنون الحرب والذكاء، بل كثيراً ما كانت تضبطه عينا وفاء النفاذتان في لقاءاتهما المشتركة والتي تتالت بعد ذلك في النوادي والحفلات وهو يطيل النظر نحو سوزي التي شدت انتباهه كله فجعلته غائباً عن واقع الوجود.. عبثاً ذهبت محاولات وفاء لجذبه إلى أرض الواقع، لذا فقد كثرت ثوراتها

واندفعت تكيل له الاتهامات مما فتح باب الشجار بينهما على مصراعيه، انتهاء بمغادرة وفاء لليمن وعودتها غاضبة إلى مصر، وقد خلفت عمر وراءها ضعيفاً ملقى بلا سلاح أمام نظرات سوزي الجياشة وابتسامتها الفاتنة..

في البداية.. كانت سوزي مصممة على الفتك بعمر، مثله كالآخرين الذين سبقوه، كلهم عرب أقحاح، يسيل لعابهم عند رؤية امرأة فاتنة خاصة إذا كانت شقراء مثلها، لذا فقد اتقنت لعبتها في غواية الرجال ومعرفة ما لديهم من أسرار سياسية أو حربية أو اقتصادية، سربتها إلى بني جنسها من اليهود سواء أكانوا في المعسكر الإسرائيلي أو الأمريكي، فلقد اتحد المعسكران منذ فترة ليكونا فريقاً قوياً ذا غاية واحدة هي إسقاط حكم عبد الناصر.. بعد أن تزايد خطره وتفاقم ضرره، خاصة بعد أن صرح أكثر من مرة في خطبه الملتهبة التي تثير مشاعر العرب وتحرك فيهم أمجادهم القديمة، بأنه سوف يلقى بإسرائيل إلى البحر، كأنما لم يكفهم ما لاقوه من عذاب وتشتيت على يد "هتلر"، فجاء عبد الناصر ليقضي على ما تبقى من أمة اليهود شعب الله المختار، والذين هم أصحاب الأرض دون غيرهم، مملكتهم تمتد من النيل إلى الفرات، قريباً سوف يتحقق ذلك الحلم فيتحول إلى حقيقة واقعة، بفضل من كفاح أمثالها من المناضلين الشرفاء والمخلصين من أمة اليهود.. ومن ثم جاءت أهمية تواجدها في ذلك الجزء الهام والساخن من العالم العربي، حيث تدور المعارك على أشدها بين العرب

وبعضهم البعض، وكل المطلوب.. أن تؤلب هذا على ذاك، وأن تزيد المعركة اشتعالا حتى تنهد قواهم، فيسهل من بعد على إسرائيل ضربهم وابتلاعهم.. وها قد سنحت لها الفرصة الذهبية بعملها كمترجمة في السفارة الإيرانية في اليمن لتكون على قمة الأحداث فتؤثر فيها كيفما تشاء.. لكنها ومعها فريق من اليهود المدربين، قد كانوا على رأس خطة طموحة ترمي إلى ما هو أبعد وأخطر من ذلك، ألا وهى إذكاء الكراهية الكامنة منذ فجر التاريخ ما بين الفرس والعرب، تلك التي أخمد الإسلام نارها فأحالهم إلى أخوة متحابين في الله، لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى، لكن هناك المتطرفين دائماً الذين يحلمون بإعادة مجد الامبراطورية الفارسية القديمة لتفرض– كما كانت في القدم – سيطرتها على المنطقة العربية وتحول دولها إلى توابع يدورون في فلكها ويأتمرون بأمرها.. لذا فقد وجدت دائما تيارات خفية لتغذية الصراع الدائر في اليمن ما بين الجمهوريين ويساندهم عبد الناصر، والملكيين وتساندهم السعودية، وكان من مصلحة اليهود وأمريكا والمتعصبين من الفرس ودول أخرى كثيرة، إبقاء الصراع دائراً على أشده دون أن يتغلب طرف على الآخر.. ولو أن عبد الناصر فهم اللعبة جيداً، لما أقدم على تلك المغامرة بإرسال جنوده إلى اليمن، بل أن فرصة الجمهوريين في الانتصار على الإمام المخلوع كانت ستصير أكبر لو لم يتدخل عبد الناصر في اليمن، فمثل ذلك النظام الرجعي المتخلف كان سوف يزول وحده حتماً تحت عنفوان المد الحضاري دون تدخل خارجي.. أما وقد تدخل المصريون، فلن تكون اليمن والحال كذلك إلا مقبرة للطرفين،

وهذا هو بالضبط ما تمنته إسرائيل وخطط له حكماؤها وعباقرتها منذ وقت طويل مضى.. ومن هنا جاء دورها لتكون طرفاً في اللعبة، تراقب أحداثها، وتوجهها وجهتها المبتغاة للوصول إلى الهدف المنشود، ولقد نجحت في ذلك إلى حد بعيد، فلكم التقت هناك بضباط وسياسيين أفرغوا في فراشها كل ما لديهم من معلومات وأسرار بمجرد دعوتهم إلى سهرة بمنزلها وإغلاق بابها عليهم، وبعد ذلك فكل شيء سهل وممكن ومتاح.. ولم تكن في حاجة لتمارس عليهم ضغوطاً أو إكراه، فلقد كانوا دائما على أهبة الاستعداد للشرح والتفسير.. فمقتل العرب دائماً قد كان في ألسنتهم، ومن سماتهم كثرة كلامهم وحبهم للتعظيم والتفخيم والفخر بأنسابهم وسرد سير حسبهم ومجدهم القديم والحديث.. لذا فما يكاد يجمعهم مجلس مع من يعرفون أو لا يعرفون إلا ويتكلمون ويفرغون كل ما لديهم من أخبار وأسرار، ومعظمهم لا يقصدون خيانة بلادهم، إنما هناك دافع أقوى يكمن في تاريخهم القديم، يجعلهم ينتهزون الفرص التي تتاح لهم للتفاخر والخيلاء.. حتى رئيسهم عبد الناصر قد كان في كثير من الأحيان مصدراً أساسياً للعديد من الأسرار العسكرية والاستراتيجية التي أفشاها عن طريق خطبه وتصريحاته المفوهة، ففي كل مرة يعتلي فيها المنبر لا يتمالك نفسه- في سبيل إلهاب حماس الجماهير- عن البوح بأدق أسرار البلاد السياسية والاقتصادية والحربية، وعن طريق تحليلها في أجهزة المخابرات الأجنبية، أمكن لهم معرفة الكثير من الأسرار المخفية التي برعوا في استخدامها ضده، انتهاء بتوجيههم الضربة القاضية له..

هكذا كان تفكير سوزي أثناء تواجدها باليمن، ولقد استطاعت بجمالها الطاغي المستباح وحديثها الناعم وحكاياتها المسلية التي أشبهت حكاوي شهرزاد، مع إتقانها للغة العربية ومعيشتها السابقة مع العرب بالجزائر، مما مكنها من معرفة طباعهم والوقوف على نقاط ضعفهم، فأتقنت حرفتها في الوصول إلى الكثير من الرجال والأسرار، حتى استفحل خطرها ووصل خبرها إلى جهاز المخابرات المصري فبدأت مقاومتها ورسمت الكثير من الخطط لاصطيادها، لكنها مع ذلك ظلت بفضل دهائها ومساندة المخلصين لها، بمنأى عن أذاهم ممسكة بالكثير من خيوط اللعبة الدائرة، إلى أن استقر رأي المخابرات المصرية على أن يكون حربها بسلاحها عن طريق ند لها، استقرت الآراء واجتمعت الأطراف على أنه عمر لما له من خبرة ودراية وكفاءة وإخلاص، فضلاً عن مركزه المتميز في التجارة والأعمال، بعيداً عن الملابس العسكرية التي تثير دائماً الشكوك في النفوس.. لذا فقد صدرت له الأوامر للقيام بالمهمة الصعبة في حرب سوزي، ولم يدر بحسبانهم أنه يمكن أن ينهار أمامها وهو لم يكد يبدأ معها المعركة بعد، وما كان ذلك إلا لأسباب كامنه فيه لم يكن يدركها ولم يعلموها، مرجعها إلى الفترة التي عاش فيها بالجزائر، وتعلق قلبه خلالها بفتاة جميلة تدعى جميلة شابهت سوزي كثيراً في الشكل والطباع، حتى لقد استجاب بلا وعى لنداء عقلة الباطن في الانجذاب التلقائي نحوها، تاركاً كل ماعدا ذلك من حذر وتعقل..

في الجولة الحاسمة من الحرب الباردة التي وضع الطرفان فيها وجهاً لوجه انتظاراً للضربة القاضية التي يعلن بعدها انتصار الطرف الفائز على الطرف المهزوم، والموسيقى تعزف لحنها الهادئ الجميل في مسكن سوزي المنعزل بطرف المدينة المطل على جبال اليمن الشاهقة، ونسمة ليل رطيبة تحملت برائحة زهور برية ساقها الربيع الذي ما فتئ يتقدم بخطى وئيدة.. شحنة هائلة من المؤثرات التي هاجمت أحاسيس عمر بعنف وضراوة، حتى لقد أغمض عينيه قليلاً، فاذا به يرى سفوحاً جبلية وقلعة عتيقة وامرأة شقراء فاتنة تبكي بجوار سور القلعة تشبه إلى حد كبير سوزي التي تمددت أمامه الآن في فتنة وإغراء..

فجأة سألها عمر: ألم يحدث أنك ذهبت في يوم ما لمدينة في الجزائر تدعى "تيارت"؟..

أجابته سوزي باستغراب قائلة تيارت!؟.. انه اسم غريب أسمعه لأول مرة الآن .. وما الذي ذكرك به؟..

أجابها عمر وهو يرسل ببصره إلى بعيد : لقد شاهدت هناك على سور قلعتها القديمة، امرأة تشبهك إلى حد كبير..

أجابته سوزي بصوتها الحالم : حقا!؟.. أكنت تعرفها؟..

أجابها عمر بدون وعي قائلاً : لا أعرف!

التفتت نحوه سوزي وهى ترمقه بنظرة طويلة فاحصة، سألته باهتمام قائلة : كيف لا تعرف أن كنت تعرفها أم لا؟..

أجابها عمر بصوته الخفيض قائلاً: لقد ظننت أنني أعرفها..

كان الحديث قد وصل إلى درجة من التعقيد، حتى أن عمر لم يملك بإزائه إلا أن يفضي لها بما وعاه عن تجربته السابقة في الجزائر، إصابته أثناء حرب التحرير الجزائرية، المرأة المجهولة التي أنقذت حياته ورفضت الظهور مرة أخرى بعد شفائه.. وكيف استعاد ذاكرته المفقودة إلا أنه لم يعد يذكر شيئاً عن الفترة التي عاشها فاقداً للذاكرة.. أجهد نفسه كثيراً ليتذكرها، لكنها بقيت دائماً مجهولة مظلمة، لم يبق له منها سوى ذلك الخاتم الفضي الذي وجده ملتفاً حول إصبعه عشية عودة الذاكرة إليه، ذلك الخاتم الغريب المزين بحجر من العقيق الأزرق تعلوه صورة لأسد معقوف الذيل يحمل بيده سيفاً مسلولاً إلى الخلف كأنه سيف الحق البتار، ما فتئ يضرب.. ما فتئ يؤرق مضجعه بخيالاته الباهتة عن أسرى وحروب ودمار..

استمعت إليه سوزي بمزيد من الاهتمام، وقد شدتها نبرة الصدق في حديثه، فلم تعد ترى فيه ذلك الإنسان العدو الذي غزا مضجعها ليسرق أسرارها، بل شعرت بقصته المأساوية وقد مست شغاف قلبها فأنزلت به الرحمة عليه.. فهي أولا وقبل كل شيء امرأة ذات مشاعر وأحاسيس ذابت شفقة على ذلك المسكين الذي تعرض في ماضيه لأهوال لابد أنها فوق القدرة والاحتمال حتى أفقدته الذاكرة، هزتها أكثر

صورة المرأة المجهولة التي أنقذت حياته ثم اختفت منها بعد أن أعادته مرة أخرى إلى الحياة، لابد أنها أحبته لدرجة اختارت معها أن تضحي من أجله وأن تختفي من ماضيه.. وكأنما قد رأت سوزي من ماضي عمر ما لم يستطع هو أن يدركه أو يصل اليه، واحتارت وهى تزن الامور بمنطق عقلها الدقيق.. أيهما البطل الحقيقي في تلك المأساة!؟ .. أهو الذي ذهب إلى شعب لا يعرفه لكى يضحى بنفسه من أجله!؟ أم هي التي أنقذته دون أن تعرفه وضحت بنفسها من أجله!؟

لكن سوزي برغم ذلك لم تملك إلا أن تقدر ذلك الإنسان البطل الثاوي أمامها نهباً لمشاعره وماضيه، فريسة سهلة لأطماعها فيه.. شعرت بحنان جارف نحوه يدعوها للتسرية عنه ولإبعاده عن تلك الأشباح التي ما فتئت تطارده في ماضية، اقتربت منه في ضعف لتمسح من على جبينه قطرات عرق كأنما قد جريا معا مشواراً طويلاً حتى قطع أنفاسه وأنفاسها.. ثم سرعان ما احتوتهما لحظة حب جارف، وكل منهما يرتمي بين أحضان الآخر، كأنما يبحث كلاهما داخل الآخر عن إنسان من ماضيه يأوي إليه ويحتويه لينقذه مما هو فيه من ضياع وتوهان.. وسرعان ما إحتواهما فراشها الوثير يتبادلان الحب، وهى بين أحضانه مستسلمة والهة، تشعر بكل خلية من خلايا جسدها تتحلل وتستجيب لعاطفته المشبوبة، كأنما تحولت في لحظة إلى تلك الفتاة الأخرى المجهولة التي ما فتئ يبحث عنها في ماضيه.. فهذا هو إذن السبب الحقيقي في انجذابه اللاإرادي نحوها، وما كان به من

ضعف أو خور سوى ضعف الحب لامرأة شابهتها من ماضية ملكت علية قلبه وأحاسيسه وكل مشاعره بحيث لم يعد ير في النساء سواها، فمثل هذا الوفاء نادر بين البشر، ومثل هذا الإنسان النقي لجدير باحترامها، يجب أن تحافظ عليه وتنقذه – حتى من نفسه – وأن تبقيه للمرأة الأخرى من أجل عاطفته النبيلة، وهي على يقين من أنه لابد واجدها يوماً..

بعد ان انتهت لحظات الحب المشبوبة بينهما، وهو يحتويها بين ذراعيه ما فتئ يمسح على شعرها بحنان، سألته سوزي بهمس رقيق قائلة : من هي تلك المرأة الأخرى التي ناديتني باسمها منذ قليل؟..

تحسس عمر خاتمه الفضي بطريقة لاشعورية قبل أن يجيبها بتلعثم قائلاً : أحقا ناديتك باسم آخر؟.. إنني لا أذكر!

– لقد ناديتني باسم "جميلة"..

فكر عمر قليلاً قبل أن يجيبها قائلا: إن هو إلا اسم خطر على بالي.. ولكن ألست حقا جميلة؟ إنه ليس اسماً بل صفة تعبر عن حبى لك وإعجابي بك..

أجابته سوزي وقد تكشفت لناظريها العديد من جوانب مأساة عمر قائلة : إذن.. فقد كان إسمها جميلة؟!..

سألها عمر وهو ما فتئ ينظر نحوها بحيرة قائلاً : من؟!

ثم ما لبث أن تمالك نفسه وهو يجيبها مستدركاً : لا تبالى بأي اسم ناديتك به.. فأنا هكذا في لحظات نشوتي.. أُحلق في الآفاق البعيدة فأقول كلاماً غير مفهوم..

أشار عمر نحو الأسد المرسوم على خاتمه الفضي واستطرد كأنما ليدلل على صحة مزاعمه قائلاً: أترين هذا الأسد!؟ إنني كثيراً ما أراه على صورة كلب وهو يطلق نباحه العالي وأن اسمه الباشا!

ضحك عمر عالياً من طرافة الحديث، لكن سوزي اكتفت بالابتسام وهى تجيبه على فكاهته بفكاهة مماثلة قائلة: ما أدراك!؟.. فقد يكون أحد سلاطين العرب المخلوعين، انتهى أمره ليصبح كلباً بدرجة باشا..

اقتربت منه أكثر.. ضمته إلى صدرها بحنان ثم استطردت وقد اكتسى صوتها برنة اهتمام قائلة: لا عليك.. ولكنني الآن لعلى يقين من أن هناك امرأة أخرى في ماضيك المجهول بالجزائر، دفعت ما هو أغلى من الحياة لتهبك الحياة.. مسكينة تلك المرأة .. إن قلبي يتقطع شفقة عليها، يا عمر.. عد سريعاً إلى الجزائر للبحث عنها، وأنا واثقة من أنك حتما سوف تجدها.. وحينما تجدها، أرجوك.. بلغها سلامى!!

اهتز عمر من وقع الكلمات الجادة الواثقة التي قالتها له سوزي التي بدت له غير مفهومة، لكنها مع ذلك كانت قد نفذت إلى أعمق أعماقه السحيقة، فخلعت قلبه لمجرد أن خاطراً رجحته سوزي، تجسد أمامه فجأة يبلغه بوجود امرأة أحبته أثناء تواجده بالجزائر، تكون قد

ساعدته حتى شفي واسترد عافيته، إلا أنه نتيجة ذلك كافأها عن معروفها معه بخسة ونذالة، وترك الجزائر كلها قبل أن يراها أو يبلغها شكره على ما أسدته نحوه من جميل..

تكلم عمر بصوت خافت، كأنما ليبرئ نفسه من الاتهام قائلاً: لقد حاولت أن أعرفها قبل سفري من الجزائر، لكنها رفضت الإفصاح عن نفسها أو إبلاغي عمن تكون..

أجابته سوزي بهمس مماثل وقد اتضحت أمامها الصورة قائلة: ذلك لأنها أحبتك..

إكتنفهما لبرهة صمت موحش، لكنه ضمها أكثر إليه، كأنما يحتمي فيها من أشباح ورؤى رهيبة ما فتئت تطارده من ماضيه، بينما تخلصت سوزي من قبضته برفق، نهضت من الفراش وهى ترتدي ملابسها قائلة: إنك لم تحبني لحظة واحدة، وإنما حبك كله كان للأخرى والتي ربما كانت تشبهني كثيراً، وكنت تبحث عنها عندي طوال الوقت..

أجابها عمر وهو يدير وجهه إلى الناحية الأخرى المواجهة للجدار قائلاً : أنا آسف.. فلقد اختلطت أمامي الصورة ، حتى لم أعد أرى بوضوح..

أجابته سوزي وهى تقدم له سيجارة مشتعلة قائلة: لا تأسف.. فلقد استفدت كثيراً من التجربة التي هزتني من أعماقي، ومن يدري! فربما

كنت أبحث فيك أنا الأخرى عن إنسان آخر في ماضي حياتي، لذا فقد أمتعتني رغبتك المشبوبة، وطهرتني عواطفك الصادقة.

أجابها عمر بانكسار قائلاً: بل أنا الذي أشكرك، لأنك أوضحت لي أشياء خفيت من ماضي حياتي..

في الصباح الباكر، وقد جلس عمر في مقابل سوزي وهما بكامل ملابسهما على مائدة الإفطار، وقد شعر كل منهما بألفة وصداقة تربط بينهما، برغم ما بينهما من حروب وأسرار، حتى لقد بادرته سوزي وهى تضحك قائلة: تصور أنك جئت إلى ليلة أمس لتعرف منى أسرار صفقة الأسلحة الإيرانية الأخيرة، ولكنك أفضيت لي بكل تاريخ حياتك وماضيك..

تنبه عمر فجأة للمهمة المكلف بها والتي تعلو على كل ما عداها من عواطف وانفعالات، حتى لقد أحس لحظة بالخجل من نفسه لتهاونه فيها، لكن سوزي بادرته قائلة: لا تخجل، فلقد أثبت أولاً وقبل كل شيء أنك إنسان جدير بالحب والاحترام، لذا فسوف أرضى بأن أكون أنا في هذه المرة المرأة المهزومة، وسوف أبوح لك بكل المعلومات التي جئت من أجلها، والتي سوف تجد تفاصيلها في هذا المظروف الملقى فوق المائدة..

أسرع عمر بفض المظروف الملقى على المائدة حيث تفحص أوراقه باهتمام، ودهش حينما تأكد من صدقها وأهميتها حتى لقد سألها

قائلاً: يبدو من مظهرها أنها سليمة، لذا فما هو المقابل الذي تطلبينه ثمنا لذلك..

أجابته سوزي ضاحكة: بالطبع هي معلومات صحيحة، أما عن المقابل.. فلقد حصلت عليه مسبقاً.. لحظات حب.. ألا ترى معي بأن الحب هو أغلى ما في الوجود؟! تتضاءل أمامه الأمم وتتلاشى الحروب.. إنه الأكسير الذي يشفي الجروح.. ذلك الذي قدمته إليك المرأة الأخرى في الجزائر فأعادك إلى الحياة، لذا فلن أخذلك إكراماً لبطولاتها وتضحياتها من أجلك..

هكذا تم الأمر بين سوزي وعمر، خرج من لدنها فرحاً وقد حصل على أدق المعلومات الخاصة بصفقة المدافع الأمريكية بعيدة المدى التي جاء من أجلها، عددها ومواقعها وتوزيعاتها على سفوح الجبال، لكنه ما كاد يقدم ما لديه من وثائق ومستندات إلى القيادة المصرية حتى اكتشف عدم أهميتها.. كانت الوثائق كلها حقيقية لاشك فيها، لكن سريتها كانت قد انكشفت قبل ذلك في المعارك الأخيرة التي دارت بين الجانبين وكان من نتيجتها إلحاق أبلغ الخسائر في صفوف المصريين لما لتلك الأسلحة من مدى بعيد وأثر مدمر، خاصة وقد أجاد الملكيون استخدامها وأحسنوا التدريب عليها وتوزيعها في مواقع حصينه على سفوح الجبال..

لم يوجه أحد لوماً أو تجريحاً لعمر، إذ هكذا هي حرب الذكاء والمعلومات، عنصر الزمن فيها من أهم عناصر النجاح، وكثيراً ما

خابت فيها مهام كثيرة بسبب تأخر وصول المعلومة بفارق زمني قصير، لذا فقد اعتبر الكثيرون فشل مهمته بسبب سوء الحظ، بينما اعتبرها الآخرون نجاحاً طيباً يمكن أن يضاف إلى رصيده السابق من المهام الناجحة التي أتمها من قبل، وأن الفشل هنا راجع إلى سبب أجنبي لا دخل لعمر فيه..

أما عمر فقد تملكته الحيرة وهو يسترجع أحداثه الأخيرة مع سوزي، وتساءل كثيراً في داخله عما إذا كانت سوزي قد قصدت تضليله، أم أنها قد كانت مخلصة في تقديمها المستندات إليه على اعتقاد منها بأهميتها، وأنها لم يتم اكتشافها بعد، ولقد تبدت له الإجابة على تلك الأسئلة من الأهمية البالغة بمكان، على الأقل ليقيم من خلالها صدق أحاسيسها التي أظهرتها نحوه من عدمه، إذ معنى أنها خدعته في تقديم المستندات الزائفة له، أنها خدعته أيضا في كل ما قالته له، خاصة حديثها المطول عن امرأة أخرى أحبته في الجزائر على شبه كبير منها، مع طلبها منه البحث عنها وإبلاغها سلامها.. وما كانت كل تلك الأقوال إلا تخاريف لحظات سُكر، عليه أن ينساها ويمحوها من ذاكرته بمجرد انتهاء مهمته مع سوزي، أما سوزي فهي ليست سوى امرأة كباقي النساء، كلهن يبحثن عن المتعة والمصلحة، ولا مكان في حياتهن لمحبة أو إخلاص.. لذا فليس له أن يتوقع مثل تلك المرأة المعجزة التي تخيلها لحظة السُكر بماضيه المجهول في الجزائر، إن هي إلا أمنياته في امرأة غير موجودة سوى في خياله، جسدتها له أوهامه في لحظات الضعف والاشتهاء..

الفصل الثالث

غســـــان

كان غسان من أوائل المتعاونين الذين وفدوا من الشرق عقب استقلال الجزائر ضمن برنامج التعاون الثقافي العربي لتعريب اللغة في الجزائر التي كانت حتى لحظة ماضية فرنسية، أو هكذا ادعت فرنسا حتى أثبتت الأحداث كذب هذا الادعاء بعودتها كما كانت عربية، لكن التعريب لم يكن أبداً قضية سهلة يُمكن أن تُحل كما حلت قضية الاحتلال بحد السلاح، إذ أن التعريب هو خطة طويلة الأمد لابد أن تتم على مراحل ضمن مستويات مختلفة يبدأ أولها منذ النشأة والطفولة، فيتعلم أطفال المدارس الذين يدخلونها لأول مرة، اللغة العربية كلغة أساسية أولى للبلاد، بينما يتم مستوى التعريب الثاني للكبار ممن حرمتهم فرنسا من تعلم لغة بلادهم، ولم يعرفوا لهم لغة منذ ولادتهم سوى الفرنسية التي تدار بها كل مصالح الجزائر وإداراتها الحكومية والوطنية.

لذا فقد استلزمت تلك الخطط الطموحة التي وضعتها القيادة السياسية الجديدة للجزائر، جيشا آخر من المعلمين العرب، لم تكن معركتهم بأقل ضراوة من معركة جيش التحرير في جلبة للنصر والإستقلال، فالاحتلال الفرنسي للجزائر لم يكن كأي احتلال، بل هو نوع من الاحتلال الاستيطاني الذي خُطط له بأناة وروية على مدى عشرات السنين، بهدف محو كل ما هو عربي بالجزائر وإحلال كل ما

هو فرنسي بدلاً منه، توصلاً لدمج الجزائر بصفة نهائية في فرنسا، لم يبق شيء على حاله القديم سوى قلة من القبائل استطاع أهلها المحافظة على لغتهم القديمة متحصنين في الجبال العليا بولاية "تيزي أوزو" التي تعني ترجمتها "القبائل الكبرى"، تلك القبائل التي استطاعت أن تحتفظ بعاداتها وتقاليدها ولغة سكانها وسلمت من كل الغزوات بالنظر لمنعتها داخل الجبال، ولقد حاول الاحتلال الفرنسي الإبقاء عليها وإذكاء نعرتها الطائفية لتظل شوكة في ظهر العرب، لكنه كان واهماً، إذ كان هناك خير رباط يجمع إليه الجزائريين على اختلاف طوائفهم، ألا وهو الإسلام، فلقد كان القبائليون– برغم جهلهم للعربية – مسلمين مخلصين لدينهم الإسلامي يؤدون شعائره على خير وجه وأكمل صورة، لذا فقد فشلت محاولات الاستعمار في تفرقة الطوائف الجزائرية التي بقيت متماسكة حتى حققت الاستقلال، ورحبوا بعد الاستقلال بتعلم لغة القرآن الذي يتلونه ويتبعون تعاليمه، ومن هنا جاء تعاونهم مع القيادة السياسية الجديدة في الامتثال لقرار التعريب..

لم يكن هناك أحد بالجزائر كلها يرفض التعريب، بل لقد رحبوا بإخوانهم العرب الأوائل الذين وفدوا من الشرق للمساهمة في حملة التعريب بالجزائر، خاصة في البوادي والمدن البعيدة التي حرمت على مر السنين من نور العلم، فكان دخول العرب إليها أشبه بشعاع الشمس يخترق حجب الظلام بعد طول إظلام.. لذا فقد أحسنت القيادة الشعبية استقبالهم استقبال الغزاة الفاتحين، وأحيطوا بكل الرعاية والتبجيل،

وأفردت لهم أفخر المساكن المؤثثة بكامل فرشها المحلاة بالبسط والزرابي النفيسة، بل لقد وجد بعضهم تشابهاً في أسمائهم مع أسماء العائلات القديمة، حتى لقد اكتشفوا صلة قرابة ونسب تربطهم بهم، فاستقامت أمورهم وبدأت محاولاتهم في التعريب بداية موفقة سليمة..

لكن كانت هناك بعض العوائق والصعوبات والتجاوزات، الناتجة عن الجروح والبثور التي تركها المستعمر خلفه لتحمي مصالحه ولتذكر بوجوده الطويل، منها تلك الطبقة الوثيقة الصلة بالمستعمر، والتي ارتبطت مصالحها بمصالحه سواء أكان هذا الارتباط مادياً، أم كان مجرد حنين عاطفي لعودة أيام عز قديمة تمتعوا خلالها بالجاه والسلطان، فلما دالت دولة المستعمر، نزع عنهم مجدهم، ووجدوا أنفسهم عراة عاجزين عن التأقلم والاندماج، لذا فقد كانت هناك تلك الطبقة الرافضة، يقفون دائما في وجه العرب والمعربين، يرون في دخولهم إلى الجزائر بتلك الأعداد الهائلة استعماراً جديداً، لا يقل في نظرهم خطورة عن الاستعمار الفرنسي القديم، ويطالبون بأن تترك الجزائر للجزائريين يتولون شئونهم بأنفسهم دون حاجة إلى مساعدة أو معونة خارجية، حتى ولو كانت من أقرب الأشقاء وأخلص الأصدقاء.

ومن خلال تلك التناقضات كانت بداية غسان الجديدة بمدينة تيارت، التي انتهى أمره اليها ليقوم بتعريب أهلها وتعليمهم لغة بلادهم التي حرموا منها عشرات السنين، ولقد تلمس طريقه بحذر وعناية بين تيارين متناقضين، أحدهما يتعصب لتعلم العربية وتعليمها سُمى فريق

"المعربين"، والآخر يتعصب ضدها وسُمى فريق "المفرنسين".. لكن القيادة السياسية ألقت بكل ثقلها خلف التعريب، لذا فقد كانت جميع طلبات المعربين مجابة وأوامرهم مهابة، واستطاع التعريب أن يشق طريقة بين الجزائريين البسطاء، فوجد له بينهم أنصار ومؤيدين، التفوا حوله وذللوا له كل العقبات..

لكن نقطة ضعف غسان قد كانت دائما وأبدا في النساء، مع وسامته وخفة ظله، سرعان ما وجد نفسه محوراً لاهتمامات نسائية عديدة، الكثير منها بسبب الفضول وحب الاستطلاع لمعرفة هذا الغريب القادم من أرض بعيدة، لكنه بعد فترة اكتشف خطورة بعض تلك العلاقات وجدية البعض الآخر، بسبب تواجد طائفتان من النساء الباحثات عن الرجال، إحداهما تلك الفئة الكبيرة من المترملات اللاتي فقدن أزواجهن في حرب التحرير والتي كلفت الجزائر ما يزيد عن المليون شهيد من خيرة شبابها، من مجموع الشعب الذي لا يتعدى تعداده بضعة ملايين، فبقت زوجاتهم من بعدهم في بحث دائب عن الزوج الذي يؤمنهم شر العوز والاحتياج، أما الفئة الأخرى فهي فئة الساقطات اللاتي جندهن المستعمر لخدمة جنوده داخل بيوت الدعارة المرخصة، وبعد رحيل المستعمر بقيت تلك الطائفة متواجدة بأعدادها الكبيرة تبحث عن الحل.. والرجال.. لذا فكثيرا ما طرقت باب غسان الفتيات الحسان في بحثهن عن المتعة السريعة العابرة، وقد تتطور

بعض تلك العلاقات لتطالب بحقها عليه، أو في محاولة لخطب وده والاقتران به.

في البداية حاول غسان التماسك والمقاومة، فهو قد نشأ في الريف السوري، حيث التربية الدينية الملتزمة والتقاليد القديمة التي تمنع الاختلاط بين الجنسين، وتفرض نوعاً من الحزم في العلاقات يصل إلى حد الكبت والتزمت، لذا فقد وجد نفسه فجأة وقد أُقتلع من تربته المغلقة ليوضع فجأة داخل متناقضات وإغراءات، مع العديد من النساء اللاتي توافدن على داره طلبا للمتعة السريعة، خاصة وأن أغلبهن جميلات، وبعضهن شقراوات فرنسيات، عرفن كيف ينفذن من خلال تحصيناته، حتى لقد وجد نفسه بعد حين غارقا في الخمر والنساء والملذات، إلى أن كان لقاؤه مع تلك الفتاة الجزائرية الجميلة المسماة جمليه.

كان لقاؤه الأول مع جميلة بالصدفة، حيث طال تأمله لها وتفرسه في محاسنها أثناء أدائها لامتحان نهاية العام للطلبة والطالبات كبار السن ممن تقدموا لأداء امتحانات المنازل بالمراسلة.. ولقد وجد الفرصة متاحة ليطيل النظر في مفاتنها الظاهرة، خاصة وهى لاهية عنه بتتبع امتحانها والإجابة على أسئلته الطويلة.. كانت "جميلة" جميلة حقاً، بل قطعة من الفتنة النادرة جديرة ببرواز يوضع بأعرق المتاحف العالمية كرمز للجمال الفطري البسيط.. أجمل ما فيه.. شعرها الأشقر المسترسل على كتفيها تتخلله أشعة الضوء فيبدو من خلالها أشبه

بسبائك الذهب، ثم تقاطيع وجهها المتناسق وعينيها الدافئتين العميقتين المغلفتين بالأسرار، وآه من قوامها البلوري الأهيف الدقيق، وهى في جلستها اللاهية تغفل عن ستر أجزاء من جسدها البض، فتظهر لعينيه مفاتن كنوز خفية، تداعب أحاسيسه وتمنيه بألف خيال.. ثم وهي مع الوقت تنتبه لنظراته الجريئة المستطلعة، لكنها مع ذلك ظلت على بساطتها في غير عجلة لإنهاء القتال أوفض الاشتباك، بل خُيل إليه أحيانا أنها ترحب به وتدعوه للمزيد من الجدل والنقاش، إلى أن تبادلا الحديث بألفة واستمتاع، فلم يكن حديثها في بساطته بأقل فتنة وإغراء مما دل عليه شكلها وأنبأ به جمالها.. لكن سرعان ما انقطع الخيط وانتهى الاسترسال بنهاية الامتحان، اختفت فجأة من المدينة لتلوذ بتحصينات جبالها البعيدة التي وفدت منها فترة الامتحان، ابتعدت عن حياته بعد أن خلفت في القلب نظرة .. أعقبتها ألف حسرة.

مرت الشهور على ذلك اللقاء العابر فيما بينهما، وصورتها لم تبرح خياله قط، كنموذج فريد للجمال الجزائري الفتان، وهو من هيامه بها ما فتئ يسير في شوارع المدينة يفتش عنها، يتفرس الوجوه عله يلقاها مرة أخرى فيطفئ من مهجته لهيب الحب ولوعة الاشتياق، إلى أن كانت بداية العام الدراسي الجديد حيث أسند اليه التدريس لكبار السن بمعهد التعليم المعمم في فترته المسائية، ولقد أدهشه وأثلج صدره أن يجد جميلة من بين تلاميذه المكلف بأن يدرس لهم مادة اللغة العربية في شهادة البكالوريا القسم الأدبي، ولقد كانت تجلس أمامه طول

الوقت ترقبه باهتمام وهى تبتسم له تلك الابتسامة الودودة الناعمة كأنما تدعوه للاقتراب أكثر، ولا خوف أو لوم عليه.. ولقد كان اقترابه الأول من مشاعرها التي وجدها دقيقة مرهفة، تكاد تلتهم الكلام الذي يسيل من بين شفتيه التهاماً، أعذب لحظاتهما تلك التي يقضيانها أثناء الدرس في مناقشة الأدب العربي القديم، الاستمتاع سوياً بالصور الجمالية في شعر الغزل العفيف، ولكم رأى عينيها تفيضان بالدمع وهو يقرأ على مسامعها من شعر مجنون ليلى أو مشاهير العشاق ممن انتهت قصصهم بمأساة، لكنها ما تلبث أن تفيق من غشيتها وتعود إلى عالم الوجود بابتسامتها الودودة بمجرد انتهاء الدرس، تشكره بنظراتها الممتنة على الرحلة اللذيذة التي عبر بها معه في عالم الشعر والجمال..

كان غسان يعامل تلاميذه بالمعهد الليلى كأصدقاء له بالنظر لفارق السن الضئيل فيما بينه وبينهم، بل أن بينهم من كبار السن من يكبرونه بكثير، لذا فقد اعتاد ان يصطحب بعضهم في سيارته ليوصلهم إلى منازلهم في طريقه إلى منزله عقب انتهاء الدراسة الليلة، خاصة النساء اللاتي كن يخشين من سيرهن المنفرد في مدينة كبيرة كتيارت لم تكن آمنة تماما بعد الغروب، ولقد ألف أن تكون جميلة بين راكباته اللاتي دأب على توصيلهن كل مساء، وسُر أن يعلم بأن منزلها على مقربة من منزله، لكنه مع ذلك كان يلتمس الأعذار ويسلك في عودته طرقاً ملتوية لتكون هي آخر المتوصلات، حتى ينعم برفقتها بأكبر قدر من الحديث الممتع الشيق الطويل.. بل أنه كثيرا ما كان يدور بسيارته

حول منزلها أثناء النهار على أمل أن يراها تطل من شرفاته ولو لحظة خاطفة، لكن مسعاه كان دائما يخيب، فلقد كان لها دوراً آخر تؤديه بالنهار، ألا وهو القيام بأعمال الترجمة والتدريس في الولاية والحزب.. ولقد استمر هذا حالهما وهو به جد راض سعيد، إلى أن جاء الوقت الذي طلبت منه أن يعطيها بعض الدروس الخصوصية في مادة اللغة العربية للتغلب على بعض الصعوبات التي وجدتها بفروع النحو والصرف والبلاغة، نظراً لاقتراب امتحان نهاية العام، ولقد لبى غسان الدعوة مرحباً، فقد وجد فيها الفرصة الذهبية التي طالما تطلع اليها ليدخل بيتها ويقترب أكثر من حياتها الخاصة التي ظلت دائما بالنسبة له حصناً منيعاً وسراً مغلقاً.

في منزلها استطاع أن يعرف الكثير عنها، فهي أرملة لشهيد ولديها طفلة صغيرة منه تدعى أمل، تجرى وتلعب وتقفز في كل الاتجاهات كظبي صغير، لكنها مع ذلك شديدة الأدب لماحة الذكاء، ذات تقاطيع عربية سمراء أكدت له النظرية القائلة بوحدة الشعوب العربية وأنها كلها تنحدر من أصل واحد.. ولقد تطورت علاقته بجميلة بعد ذلك تطوراً ملحوظاً سادته الألفة وعمه الاهتمام المتبادل، مع المجاملات العابرة ورقة الأحاسيس والشعور مما قربها أكثر إلى قلبه، فكثرت لذلك فترات تواجدهما معاً، خاصة في العطلات التي كانا يقضيانها بالخلاء الطلق وبصحبتهما أمل، يمضيان الوقت الممتع تحت الشمس الدافئة في الغابات والمروج المحيطة بالمدينة، خاصة بعد

انحسار موجة البرد وتقدم الربيع بخطى واثقة ملقياً بردائه الأخضر على أشجار البلوط الضخمة، حيث سابقت جميلة ابنتها أمل في تسلقها وجمع ثمار البلوط الشهية من بين أطرافها العالية، مما أعاد اليها ذكرياتها السعيدة التي قضتها بمزرعة "سيبيجاج"، في الوقت الذي كان يقبع فيه غسان على الحشائش الندية أسفلهما ليجمع ما يلقى إليه من الثمار بين الضحكات المرحة والهوى البريء، لكن غسان لم يكن لهوه كله بريئاً، فلقد كانت أجمل لحظاته هي التي يقضيها أسفل الاشجار يستمتع برؤية ساقي جميلة البلورتين ويتعبد في محرابهما المقدس، بينما هي لاهيه عنه بسباق أمل وجمع الثمار..

مرت الأيام والعلاقة بينهما تزداد توثقاً، وغسان ما فتئ يُمني نفسه بوصالها القريب، لكن تمنعه عنها تلك الرهبة الناتجة عن كمال الأوصاف وسمو الغايات.. إلى أن انتهى العام الدراسي واجتازت جميلة امتحان البكالوريا بنجاح مرموق بفضل دروس غسان المشجعة ومساعداته القيمة، فجاءت إليه في داره وبيدها هدية النجاح لتشكره على الفضل ورد الجميل..

في غمرة الفرح بنجاحها، وهى لا تكاد تحرص على إخفاء مشاعر ودها أو عرفانها بالجميل نحوه، فتدفقت أحاسيسها فياضة تعتلى إشراقة وجهها المتهلل الندي الصبوح.. لم يشعر غسان إلا وهو في لوثته يحتويها بين أحضانه ليطبع على شفتيها قبلة طويلة نهمة وهو يُمني نفسه بلحظة استسلامها المرتقب له لتبادله عاطفته المشبوبة وتطفئ

اشتياقه لجمالها.. لكنه سرعان ما أفاق من غشيته على وقع المفاجأة التي لم يتوقعها قط.. فلقد انطفأت الفرحة من عينيها، وتحولت بين ذراعيه إلى قطعة متجمدة من الثلج البارد، وقد أصفر لونها وبهت وجهها وهمدت أطرافها، مما أجبره على التخلي عنها والابتعاد، وهو يتمتم بعبارات الأسف والاعتذار.. لكن جميلة مع ذلك ظلت على هدوئها لم تغضب ولم تثر في وجهه كما توقع أن يكون ردها على هجومه الوقح عليها.. جمعت شتات نفسها المبعثرة، وهي تغطي ما تعرى من جسدها، استترت برداء خروجها، ثم نظرت نحوه نظرة طويلة مبهمة، وانصرفت في سكون، وقد تركته نهشاً لانفعالات متضاربة عديدة..

* * *

كانت الخطوة التالية لنجاح جميلة في البكالوريا، أن تلتحق بالجامعة لاستكمال دراستها كطالبة بكلية الآداب قسم اللغة العربية، الذي لم يكن يتوافر في ذلك الوقت إلا في الجامعة الكائنة بالجزائر العاصمة، ولقد ترددت كثيراً أمام تلك الرغبة، فلقد كانت الخطوة أكبر من قدراتها المتواضعة البسيطة، فحتى هنا كانت الأمور سهلة ميسرة، ولقد كان من حسن حظها أن تجد الرعاية والتشجيع من أصدقائها الذين ساعدوها وأحاطوها- وابنتها - بشتى ضروب العناية والتأييد.. لكن أين هي والعاصمة التي تبعد عنها مئات الكيلومترات، حيث كل شيء هناك يسير وفق توقيت سريع، وليس لها هناك من معارف أو

أصدقاء يمكن أن يشرفوا على أمرها، خاصة وأنها ليست بمفردها، حيث توجد أمل التي لها مثل حقوقها وأكثر، بل أن لها الأولوية والسبق على كل الأحوال..

لكنها سرعان ما وجدت الحلول لكل المشكلات بفضل أصدقائها المخلصين، تكفل حمواها بضم حفيدتهما أمل إليهما لتعيش في كنفهما طوال فترة دراستها بالجامعة، والتي وفقت في الالتحاق بها كمنحة تشجيعية من الحزب والحكومة، بالنظر لتفوقها الدراسي، ولماضيها السياسي المشرف في خدمة البلاد وكمجاهدة وزوجة الشهيد.. لذا فسرعان ما التحقت بالجامعة الجزائرية الكائنة بحي بن عكنون بأعلى مرتفعات العاصمة الهادئة، وسارت بها الأمور سيرها الحسن بعد أن توافر لها السكن المجاني المريح داخل المدينة الجامعية مع طالبات في مثل طموحها، فاستقرت حياتها بينهن، وتمكنت في النهاية من مواصلة مسيرة التعلم والدرس والتحصيل..

هكذا تفتحت الحياة مرة أخرى أمام جميلة لتحقق أحلامها وطموحاتها التي ظنتها لحظة بعيدة، فاذا كل شيء أمامها سهل وميسور.. فانتظمت حياتها أو كادت كطالبة نظامية بجامعة الجزائر، حيث شغفت بدراسة اللغة العربية التي حاربت من أجل تعميمها بالجزائر، والتهمت في شغف كل ما قدم اليها من تراث العرب وآدابه، قديمها وحديثها، وتفتحت أمامها أبواب العالم العربي التي كانت من قبل موصدة، بل حرمها المستعمر الفرنسي واعتبرها رمزاً للتخلف

والفساد، فإذا بها الآن رمز للهوية الجزائرية العربية، لجزائر حرة مستقلة آن لها أخيراً أن تعود لحظيرة أشقائها العرب، مكافأة لها على نضالها المشرف المجيد.

استمعت بشوق إلى أساتذتها الجامعيون الذين يدرسون لها الأدب العربي ومعظمهم وفد من الشرق، سوريون وعراقيون ومصريون، لكنهم نوع آخر مختلف من الأساتذة كبار السن الموقرين، لا تكاد تلمح في عيونهم غير جدية وصرامة يتناسبان مع مكانتهم العالية كرواد ومعلمين.. لذا فكثيراً ما كانت تجد نفسها تقارن بينهم وبين غسان بطريقة لاشعورية وهى ما فتئت تفكر في تجربتها السابقة معه طول الوقت.. تلك التي بدأت بداية مشجعة من خلال قراءات واهتمامات مشتركة، لكن كان هناك دائماً ذلك الاشتهاء في عينيه، يخبرها بأنها أنثى جميلة ومحبوبة أيضاً، ولم تكن بغافلة عن ذلك طول الوقت، بل أنها أكثر من هذا تمادت وشجعته، وهي تخرج معه بصحبة أمل إلى الغابات البعيدة، لم تكن تحرص كثيراً على إخفاء مفاتنها عنه، وهى تعلم بأنه يرى ويراقب في شغف، ولم لا!؟ أليست امرأة ككل النساء من حقها أن تحب وأن تُحب، وأن يكون لها زوج يؤمن لها حياة سعيدة!؟ أليس من حق أمل أن يكون لها أب يرعى شئونها بدلاً من ذلك الذي حرمت منه قبل أن توهب الحياة؟.. لذا فقد قررت أن تترك نفسها لمشاعر الأنثى، ولتقدم على التجربة بلا خوف لتنعم بنصيبها من الحياة.. إلى أن كانت اللحظة الحاسمة، بعد أن نجحت في امتحان

البكالوريا بتفوق نتيجة لمجهودات غسان المخلصة، ذهبت إليه في داره لتشكره وكلها إرادة وعزم وتصميم على أن تترك نفسها له لتأخذ منه وتعطيه هدية النجاح.. إنها مازالت تذكر خطواتها الوجلة اليه، دقات قلبها التي تزايدت في اقترابها من المكان.. خاتمها الفضي الذي ضاق عليها حتى ليكتم أنفاسها، حاولت انتزاعه من إصبعها فلما عجزت أدارت نقشه الأزرق إلى باطن كفها حتى لا ترى فيه ذكرياتها الماضية، ومع ذلك فقد بقى الخاتم في أصابعها كقطعة من الجمر تلهب أحاسيسها وتعيدها إلى ما قد كان.. لكنها مع ذلك كله بقيت مصممة على المُضي قدماً فيما أتت إليه، ابتذلت نفسها أمام غسان لتعري من مفاتنها الشيء الكثير، ما أثار عاطفته وألهب حواسه وجعله يقدم على احتوائها بين أحضانه الدافئة ليطبع على شفتيها تلك القبلة العنيفة، وهو يكاد يسحقها بين ذراعيه القويتين سحقاً، لكنها تجمدت.. تحولت بين يديه إلى قطعة من الثلج لا تحس ولا تعي.. عجزت.. اصفرت.. تخشبت، خانتها شجاعتها وارتدت إلى الخلف، وهي تشعر بامتهان قاس لعواطفها وجسدها، تحول الجنس الذي طالما اشتهته مع عمر إلى شيء آخر مقزز مزعج، انتفضت له كل أحاسيسها ومشاعرها فلم تعد قادرة عليه.. ذكرها بتجربتها الشبيهة مع عزوز الخائن الذي حاول أن يحصل منها بالقوة على متعته الغريزية فكان جزاؤه القتل بيديها وهى قادرة عليه.. لكن شتان! فغسان ليس خائناً كعزوز وحاشاه أن يكون، فقلد وفد إلى الجزائر في مهمة نبيلة مقدسة، لمساعدة شعبها في جهاده الأكبر لاستعادة كيانه الذي خلفه الاستعمار الطويل مستباحاً مهدماً،

وهو فضلاً على ذلك كله لم يرغمها على شيء، بل أنها هي التي سعت إليه لتهبه هدية النجاح، وهي على علم تام بما تهب، بل أنها هي التي شجعته كثيراً على التمادي معها والوصول إلى ما قد وصل إليه.. لكأنما أرادت أن تضع مشاعرها وغرائزها الجنسية كامرأة موضع الاختبار، ولقد فشلت في الاختبار فشلاً ذريعاً مؤكداً.. فليس لها إلا أن تلوم نفسها.. فلقد حدث ما توقعته وخافته، تجمدت مشاعرها وعواطفها عند عمر فلم تعد تشعر برجل سواه، وتحولت إلى امرأة باردة الحس فاقدة المشاعر مصابة بلعنة اسمها عمر! لا فكاك ولا مهرب منها بعد الآن.. فلتجمع شتاتها وتلملم جراحها ولتنطوي على نفسها لتواصل تعليمها، فهو الشيء الباقي الوحيد أمامها كحقيقة مؤكدة تستند اليها وترتكز عليها فتمنعها من التهاوي والسقوط.. أما الحب فبكفايتها منه ما أخذته وما أعطته، ولتتركه الآن لما بعد.. ومن يعلم؟!.. فربما تأتى اللحظة التي تجده فيها..

في الجامعة توطدت علاقتها بالعديد من الزملاء والأساتذة والمعلمين، من بينهم الدكتور "برهان" أستاذ الأدب العربي المصري ذو النفوذ الواسع والتاريخ الأدبي الكبير، ممن تعدت شهرته أقطار الدول العربية، ليكون نبراساً عالمياً في الأدب الحديث، ولقد نهلت من كنوز علمه ما أشبع نهمها وغطى على ما عداه من مشاعر مكبوتة سحقتها، حتى لم تجد أمامها فرصة أخرى للرجوع إلى الحياة، فلتذهب تلك المشاعر الآثمة إلى حيثما ينبغي لها أن تكون.. في عالم النسيان فلم

تجن من ورائها سوى الهم والشقاء، أما العلم.. فهو الحقيقة الباقية بين الأوهام، النبراس الهادي إلى الحق، المصباح الذي ما فتئ يضيء الحياة..

وهكذا اجتازت عاميها الأول والثاني في الجامعة بنجاح ساحق وجدت نفسها فيه، وهى ما فتئت تعيش لحظات تكامل نفسى واجتماعي متوازن.. فهي طوال الشتاء مثال الطالبة الجادة المثابرة، أما في العطلات الموسمية أو الصيفية فهي ملك لابنتها أمل، تقضيها معها في تيارت أو تسافر بصحبتها لزيارة أصدقائها في آفلو أو أهلها في ربوع قرية سيدى علي على ضفاف نهر "سيبيجاج" حيث يقضيان الأوقات المرحة خاصة مع كلبها "الباشا" الذي لا يكف عن الحركة أو النباح تعبيراً عن فرحة اللقاء.

لكن غسان كان هناك دائماً، ما فتئ يرقبها وينتظرها في دأب وصبر وأناة، وقد ثاب إلى رشده بعد تجربته الجريئة معها.. كثيراً ما كان يلوم نفسه وهو يعرب لها عن أسفه وشديد ندمه، فلم يكن ينبغي له أن ينسى نفسه فيترك لعواطفه العنان.. لذا فمنتهى أمله أن تسامحه وتغفر له هفوته معها، إذ لم يكن ذلك إلا بدافع من حبه الشريف لها وشغفه بها، المشفوع برغبته الصادقة للاقتران بها بعد أن اكتشف معدنها الأصيل وأصلها العفيف الشريف.. يرجوها أن ترضى بزواجها منه، عله يحقق لها ما هي جديرة به من سعادة، وليكون بذلك محباً مخلصاً لها، وأباً عطوفاً لابنتها أمل..

وربما كان هذا هو ما خططت له جميلة وتمنته منذ بداية علاقتها بغسان، لكنها وبعد تجربتها الأخيرة معه ترددت، بقيت في شك دائم من نفسها وقدرتها على التكيف والاستجابة لنداء الحياة، شيء كامن في أعماقها ما فتئ يشعرها بأنها ليست مستعدة تماماً، فهناك من الجروح الغائرة ما لم يلتئم بعد، ومع ذلك تراودها أمنيات السعادة والاستقرار بزواج هانئ يعيد لحياتها البسمة في ظل رجل مكتمل محب كغسان، يحقق لها السعادة المبتغاة، ويعوض لأمل أبوتها المفقودة، لذا فهي ما فتئت تسوف وتماطل في الاستجابة لطلب غسان، تستمهله إلى ما بعد حصولها على شهادتها الجامعية، لعلها تسلو حبها القديم.. لكنها كثيراً ما ثارت على نفسها وهى تتساءل عن حكمة الانتظار والعمر يمضي هباءً! أمن أجل الوفاء لعمر!؟ لإنسان مضى عنها وانتهى من حياتها وهو لا يعلم حتى بوجودها أو بوجود ابنتهما على قيد الحياة؟ هذا في الوقت الذي لابد أنه ينعم فيه الآن بحبه لامرأة سواها عرفها قبلها وعاد إليها بعدها، فما الذي تنتظره منه بعد؟! أليست الحكمة في أن تنساه كما قد نسيها هو؟! .. لكنها مع ذلك كثيراً ما كانت تحن إلى ذكراه، خاصة في الساعات التي يضمها فراشها البارد إذا بجسدها يثور عليها، يعصاها يطالبها بحبيبها عمر وحقها بالحياة معه.. تتعرى.. تقف أمام المرآه تنظر إلى مفاتنها التي تعكسها لأنظارها الجائعة، تتحسسها بشغف كأنما تدعوه إليها ليطفئ بقبلاته الحارة النار المستعرة بخلاياها.. سريعاً ما تلبث أن تعود إلى واقع حياتها المر، يسحقها عجزها، فترتمي على فراشها وهى تطلق لدموعها العنان..

كثيراً ما كان يدعوها الدكتور برهان للعديد من الندوات والمؤتمرات التي يعقدها داخل الجامعة وخارجها لمناقشة العديد من قضايا الفكر العامة والمعاصرة، فكانت له نعم السميع المجيب، بل كثيراً ما كانت تشاركه بحماس أبحاثه التي يجريها في العديد من الكتب والمكتبات، فتقوم له بأعمال النقل والنسخ والترجمة من لغة إلى أخرى، خاصة وأنها تجيد اللغة الفرنسية إجادتها للغة العربية، حتى ألف أن يلجأ إليها في الكثير من أموره وقضاياه العديدة المتشابكة فكانت تقوم له بها خير قيام، لذا فقد اعتاد أن يوكل إليها أمر العديد من مهامه الشخصية، كأن يوفدها بدلاً منه لمتابعة بحث أجراه، أو إلقاء درس كان من المفروض أن يلقيه، بل كثيراً ما حلت محله في العديد من اللقاءات والمؤتمرات والحفلات التي كان يدعى لها فكانت بجهدها تسد الفراغ.. حتى لقد ألفها الجميع واحترمتها الأوساط العلمية وعاملتها كأستاذة ذات مكان مرموق في مجالات الأدب العربي والترجمة، انتهاء بدعوتها بالاسم في العديد من المناسبات العامة والهامة، لذا فلم يكن بغريب أن تدعى من أستاذها الدكتور برهان لحضور حفل السفارة المصرية الذي أقامته على شرف وفد الصناعة الهام الذي جاء من مصر لزيارة الجزائر، في نطاق التعاون الصناعي المصري الجزائري، .. ولتلتقي من بين أعضائه، بحبيب عمرها.. رجل الصناعة القوي عمر هاشم حمدان.

الفصل الرابع

اللقـــــاء الثـــــاني

عاد عمر من اليمن إلى مصر على رأس القوات المصرية المحاربة التي أنهكت قدراتها واستنفذت طاقاتها في حروب جبلية دفعت خلالها العديد من الضحايا والشهداء بلا نتيجة حاسمة أو نصر محققاً، لذا فكثير ما كان يعيد تقييم الموقف كله وهو يتساءل: ما الحكمة والهدف من إرسال قواتنا إلى اليمن ليحارب الشقيق أخاه الشقيق، ولتسيل نتيجة لذلك الدماء العربية بأيد عربية!؟ بينما معركتنا الأساسية – إن كان لابد لنا أن نحاربها – هي في فلسطين حيث العدو والدخيل الأجنبي عنا، والذي يجب أن نُكتل جهودنا لنواجه خطره ونتقى شره! لذا فكثيراً ما كان يشعر عمر بخطأ انحراف السلطة بين القيادات العليا للبلاد، وقد حكمتهم طموحاتهم الشخصية فأصبحوا بعيدين عن صوت العقل، لا يرون مواطئ أقدامهم، لذا فلن يأمنوا على أنفسهم من السقوط الذي أحسه قريباً وشيك الحدوث.. لذا فقد رحب بالفرصة التي سنحت له بالعودة إلى مصر ونفض يده من الحرب الدائرة في اليمن، وتطلع بعد عودته للمزيد من التعاون مع دول أخرى في حاجة إلى المعونة والخبرة المصرية التي ترسخت وقويت في مجالات الزراعة والصناعة، ولقد وجد الإجابة في الفرصة التي سنحت أمامه لمد نفوذ شركاته إلى الجزائر الشقيق توطيداً لأواصر التعاون المشترك بين البلدين.

* * *

كان هناك وفد من كبار رجال الصناعة في مصر في طريقه إلى الجزائر لبحث إمكانيات التعاون المشترك بين البلدين، في محاولة لتقديم المعونة المصرية إلى شعب الجزائر الشقيق لمساعدته على النهوض من كبوته بعد الحرب، وتصحيحاً من عبد الناصر للمسار العربي الذي اختل نتيجة لحرب اليمن، لذا فقد رحب عمر بالفرصة التي سنحت له لمرافقة الوفد ممثلاً لشركات "أولاد حمدان" في مجال التجارة والمقاولات، خاصة وأنه لم ينس قط ذكرياته القديمة عن الجزائر، التي ما فتئت تراوده في خيالاته وأحلامه.. بل ظل هناك دائماً ذلك النداء الخفي الذي يدعوه لزيارة أرض أحلامه التي أريقت على ثراها دماه، وربما أسعده لقاء رفقاء السلاح فينعم برفقتهم بذكريات النضال والكفاح.. ومن يدري فربما أمكنه التعرف على تلك الفترة الغامضة من ماضيه التي عاش خلالها مجروحاً مجهولاً حتى من نفسه، كل ما نقلوه عنها وما وصل إلى علمه بعد ذلك، أنه كان في ضيافة أسرة كريمة أشرفت على رعايته أثناء إصابته وفقدانه للذاكرة.. لذا حق عليه السعي إليهم والتعرف بهم، على الأقل ليعبر لهم عما تفيض به نفسه تجاههم من شكر وعرفان بالجميل.. وإن لم يكن هذا ولا ذاك، فبكفايته أن يكون سبباً في تقديم المعونة لشعب بطل مكافح كشعب الجزائر الشقيق.

كانت وفاء من السيدات القلائل المرافقات لأزواجهن ضمن هذا الوفد الهام، وقد اتفقت كلمتهن وأجمعن رأيهن مسبقاً أن تكون زيارتهن

للجزائر مجرد محطة يجتزن بعدها البحر الأبيض في زيارتهن لمعالم الحضارة الباريسية، حيث العطور الغالية والملابس الفخمة.

وهكذا تمت الرحلة إلى الجزائر، حيث استقبلوا من كبار المسئولين الجزائريين استقبالاً رائعاً حماسياً، أحاطوا خلاله عمر بشتى مظاهر الحفاوة والترحيب تقديراً لدوره الذي لم ينس بعد في حرب التحرير الجزائرية، لكن عمر كان كدأبه متواضعاً خجولاً، فما لبث أن شكرهم وانصرف عنهم لينضم إلى أعضاء الوفد لحضور الحفل الساهر الكبير الذي أقيم على شرف استقبالهم بالسفارة المصرية والذي دُعي إليه العديد من الساسة وكبار رجال الأعمال، ولقد جمعته بالعديد منهم أحاديث شتى وهامة تدور حول إمكانيات التعاون مع الجزائر، وهو يحاول جاهداً أن يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الصناعة الجزائرية والتعرف برجالاتها لتوطيد أواصر الصداقة والتعاون بينهم، إلى أن كان لقاؤه بتلك المرأة الجزائرية الجميلة التي ترفل في ثوبها العربي المحتشم الطويل فكانت نموذجاً فريداً للفتنة والدلال، اشبهت عليه أميرات ألف ليلة وليلة..

لكنه مع الوقت ازداد اقتراباً منها والتصاقاً بها، وهو يشعر بدافع خفي يجذبه إليها كأنما قد عرفها في فترة تواجده السابقة في الجزائر، يظنها تشبه تلك المرأة التي رآها تبكي عند سور قلعة تيارت يوم أن كان محبوساً بداخلها.. لكنه ما لبث أن حذر نفسه من مغبة تلك الأوهام والخيالات، وتجربة سوزي المُرة مازالت عالقة بذهنه لم تبرحه

قط، يخشى أن يكرر المأساة فيسألها ذلك السؤال الأبله الذي سأله سوزي من قبل، فيجعل من نفسه أضحوكة أمامها.. فأين تلك الأميرة الوقورة الواقفة أمامه الآن، من تلك المرأة الفلاحة اللائذة بسور القلعة القديم!؟.. شتان وفرق شاسع بينهما، ثم وعلى فرض أن تكون هي، فما الذي يهمه من أمرها؟! أمن حقه والحال كذلك أن يسألها لماذا كانت تقف بجوار سور القلعة في ذلك اليوم!؟ أو لماذا كانت تبكي!؟.. ثم ما شأنه هو ليسألها مثل تلك الأسئلة السخيفة التي بلا معنى خاصة بعد ذلك الوقت الطويل الذي مضى، والتي لن تؤدى إلا إلى السخرية منه! كما سخرت سوزي منه مرة من قبل.. لذا فيكفيه قربه منها والتمتع بحديثها الممتع وصوتها الجميل ذو اللكنة العربية المميزة، كأنما نسيم رقيق عليل يمر في رقة، فيبرد من آلام جراحه الدفينة.

* * *

كان وقع الصدمة على جميلة مباغتاً وعنيفاً، فلم تكن تتخيل قط وبعد كل تلك السنين التي مرت، أن يكون لقاؤها بعمر مرة أخرى هنا.. على أرض الجزائر، ولقد لمحته من بعيد، وهو يمشى بهامته المرفوعة وقوامه الأهيف الطويل، ينتصب واصلاً إلى القمة.. في طرف القاعة قبل أن يتقدم من مكانها.. فعرفته على الفور، لا .. بل هي قادرة على تمييزه ولو من بعيد وسط آلاف، فقبل أن تلتقي العيون هناك لقاء الروح والهيئة والكيان، وكلما كان الشخص محبوباً لدينا، كلما كانت قدرتنا أسرع على معرفته وتمييزه والإحساس به.

وبرغم أن اللقاء قد كان من طرف واحد هو طرفها، فهو كما يبدو من عينيه الغائمتين لم يتذكرها بعد.. إلا أنه قد كان بالغ التأثير في نفس جميلة، التي أرادت أن تتوارى وتتضاءل خلف المدعوين، حتى لتصبح نقطة غير منظورة في فراغ القاعة فتتبدد مع الدخان المتطاير في سمائها.. لكنها ما لبثت أن تماسكت وتحاملت وهى تطمئن نفسها بأن لا خوف عليها من أن تكتشف طالما أن عمر مازال على نسيانه لم يتذكرها بعد، لذا فما عليها إلا أن تتصرف إزائه بتلقائية وبساطة، وأن تفرض حصاراً على مشاعرها حتى لا تشي بما يعتمل بنفسها أمامه فتثير في نفسه الشكوك.. فإذا ما كان ذلك كذلك.. سلمت، وظل كل على حاله السابق مدفوناً في بحر الذكريات..

لكنها في تقديراتها تلك لم تكن مصيبة تماماً، فهي لم تحسب حساباً لذلك الدافع الخفي في عقل عمر الباطن الذي ما فتئ يقوده إليها ويجذبه نحوها، حتى لقد تابعها بنظراته وخطواته في كل النواحي والأرجاء، وهو ما فتئ يتصنع الحيل ويختلق الأسباب ليكون منها على مقربة، حتى لقد ذكرها ذلك بمقولتها التي سبق أن قالتها له مرة من قبل، حينما كان فاقداً للذاكرة وسألها عن السبب فأجابته: إن عقلك الباطن أكثر حكمة منك، لذا فهو يخفي من أمرك مالا يودك أن تتذكره..

ها هي ذي الآية معكوسة الآن، فعقلة الباطن أكثر حكمة منه هذه المرة أيضاً، لكن ليس للنسيان، وإنما بقصد دفعه للتذكرة، وهو إن

طال الوقت أو قصر لابد سوف يتذكر، حينئذ لا يمكن التكهن بالنتائج المترتبة على ذلك، والتي يمكن أن تكون خطيرة ومدمرة لكليهما، فلو أنه اختار أن يعود إليها لدمر حياته السابقة، ولو أنه تركها بعد أن عرفها لآلمها ذلك أشد الإيلام.. لذا فالأسلم لكليهما أن ينتهى أمرهما عند ذلك الحد، وأن تنتهى هذا الموقف السخيف الذي إذا استمر يمكن أن يثير الشبهات ويضعهما في موقف مربك لا معنى له ولا داعي إليه.. خاصة وأنها بالكاد نسيته، بالكاد اجتازت أزمتها معه، وبشق النفس تغلبت على المرارة والألم اللذين أعقبا فراقه لها، وبالكاد تستعيد حياتها المعتادة المغلفة بالنجاحات الباهرة والعلاقات الاجتماعية الواعدة ..

اقتربت امرأة سمراء متأنقة من عمر، تجذبه من يده كأنما لتعيده من جنوحه إلى أرض الواقع بعيداً عن تلك الغادة الجزائرية الفاتنة التي سلبت لبه فأفقدته رشده وجعلته يلاحقها في كل مكان.. كان من الواضح لجميلة بأن تلك السمراء التي تمارس نوعاً من السلطة والتملك نحو عمر لابد وأن تكون زوجته.. ولم تتمالك جميلة نفسها من الإعجاب بها، فلقد كانت فضلاً عن جمالها متأنقة واثقة من نفسها، وإن كانت تميل إلى الغرور بعض الشيء، حتى لقد خاطبت عمر قائلة : أتراك قد نسيت نفسك في الشعور الصفراء؟! ..

أجابها عمر وهو يغالب ارتباكه قائلاً: أتعنين تلك الجزائرية الشقراء!؟ الواقع هو أنني معجب بلهجة حديثها وطريقة نطقها للعربية، أترين كيف تنطق حرف الجيم!..

أجابته وفاء بتهكم قائلة: أظنك قد أصبحت خبيراً بمعظم اللهجات العربية والأجنبية، كما كان دأبك في اليمن..

تجاهل عمر التعويض الظاهر في حديث وفاء، فهي ما فتئت تذكره بتجربته السابقة مع سوزي، وكيف انغمس معها في اليمن حتى لقد تقولت عليه جميع الأوساط هناك، لم يهدأ بالها إلا بعد أن عاد إلى مصر، حيث بالكاد استقرت حياتهما معاً بعض الوقت دون خلافات خطيرة، إلى أن عاوده حنينه إلى الترحال، فعاد مرة أخرى إلى الجزائر، لم ترض بمصاحبته إليها إلا بعد أن وعدها بزيارة باريس بعدها، حيث الأضواء الباهرة والأسواق العامرة، ما يمكن أن ينسيها همومها السابقة، وخيبة أملها فيه.. لكن ها هي ذي لعنه سوزي ما فتئت تلاحقه، متمثلة في تلك الغادة الجزائرية الشقراء التي تكاد تشبهها إلى حد كبير، مما أطاح بصوابه وجعله يلاحقها في شتى الاتجاهات..

كاد الشجار ينشب مرة أخرى بين الزوجين، ما لم يتدخل بينهما الدكتور برهان الذي قاطع حديثهما قائلاً: من ذا الذي يتكلم في صميم عملي واختصاصي في تعليم وتعلم اللهجات الدراجة في الوطن العربي!؟ ..

أجابته وفاء وقد خجلت من نفسها قائلة: أن عمر معجب باللغة العربية التي تتكلم بها تلك الغادة الهيفاء.

التفت الدكتور برهان نحو جميلة، ثم ما لبث أن انفجر ضاحكاً، قال: من!؟ جميلة؟ إنها أخلص مساعداتي هنا، وأنبغهم في الترجمة واللغات..

لم ينتبه الدكتور برهان – في استرساله – لوقع اسم المرأة الذي نطق به وانعكاساته على أسارير وجه عمر التي انكمشت وتضاءلت كأنما ضبط متلبساً بالتفكير في أشياء ممنوعة، فلقد كان اسم جميلة مازال يلح في خاطره عقب مغامرته الطائشة مع سوزي، وهو يناديها في قمة نشوته معها باسم جميلة، ثم وهى تبلغه بأن عليه ان يبحث داخل الجزائر عن امرأة أحبها هناك وخلفها وراءه، واسمها جميلة، .. لكن رنيناً حاداً انبعث من داخله لينبهه لخطورة أفكاره تلك، وأن عليه أن يحذر لنفسه وألا ينساق وراء الخيالات والأوهام، وإلا جلب لنفسه السخرية وأصبح أضحوكة الحاضرين..

فجأة صاح الدكتور" برهان" على جميلة قائلا : جميلة .. أقبلي لنعرفك بالضيوف.

تقدمت جميلة استجابة للنداء بخطوات وجلة نحو عمر، عيناها بمليء اتساعهما مركزتين في أعماق عينيه الحائرتين، تلتهمه بنظراتها.. تهزه بعنف.. تناديه بلهفة: "استيقظ يا حبيبي، ها أنا ذا

أمامك .. في متناول يديك ورهن إشارتك، ما عليك إلا أن تفتح أحضانك الدافئة التي اشتقت إليها لتحتويني.. لتنهى عذابي الطويل".

خيل إليها لحظات أن هناك استجابة لرسائلها ما فتئت تعكسها عيناه المضطربتان، اللتان أحست بهما برهة يجاهدان للوصول إليها، لكن أطنانا من الركود ما لبثت أن غطتهما فعادتا إلى سكونهما المعتاد..

مد عمر يده على اتساعها نحو جميلة في مصافحة التعارف – المفروض أنه الأول بينهما – ترددت جميلة في لقائها بتلك اليد، فلقد كان هناك بإحدى أصابعها خاتمها الفضي يطل منه أسده المعقوف الذيل وبيده سيف الحق الملتوي إلى الخلف كأنما يهم أن يضربها به.. وبحركة لاشعورية امتدت أصابعها إلى خاتمها المماثل لتدير رأسه الأزرق إلى داخل باطن كفها، فبدا من الخارج مجرد خاتم فضي غير مميز، ثم مدت كفها بأصابعها المرتعشة لتصافح اليد التي طالما أحاطتها بالحب والرعاية والحنان، أطبقت عليها في عناق رقيق، ظلت جميلة لحظات ترسل أحاسيسها ورسائلها عبر تلك اليد، سرها أن تجد الاستجابة لنداءاتها من تلك الكف القوية الملتفة حول أصابعها، تهزها في قوة لكن في تصميم، تبلغها شوقها وحنينها، تؤازرها وتقف بجوارها تساند خطواتها وتهدئ خواطرها، لكأنما تلك اليد تعلم من أمرها ما يجهله عمر، وهى وحدها تفهم وتعي وتطلب منها الصبر والانتظار، لكن جميلة ما لبثت أن عادت إلى أرض الواقع، لتكشف مدى حماقتها

وسخافة أفكارها.. إن هي إلا يد لإنسان آخر غير ذلك الذي عرفته يصافحها بأدب واحترم وسط أغراب عليها أن تحترس لنفسها بينهم، فلا تسمح لعواطفها بأن تجمح بها أو تحيد، حتى لا تعرض نفسها للمهانة والسخرية والازدراء ..

سرعان ما تم التعارف بين الأطراف، وعمر لا يكاد يخفي اهتمامه بها، بينما عاملتها وفاء بتعال وجفاء.. لكن جميلة لم تأبه بها، كانت في عالمها الخفي تحارب معركتها الأخرى بضراوة لتخفي مشاعرها حتى لا تشي بها لدى الآخرين..

وجه الدكتور برهان حديثه إلى جميلة قائلاً: السيد عمر هاشم من كبار رجال الصناعة في مصر، وفد خصيصاً إلى الجزائر في إطار التعاون المصري الجزائري ..

أجابته جميلة بتلطف وهى تظهر البراءة قائلة : حقا.. ففي أي مجال يعمل السيد عمر؟..

أجابها عمر ببساطته قائلاً : في مجال الصناعة، أعمل في تشييد المصانع الجديدة، أما في مجال التجارة، فأنا مهتم بتجارة الحبوب..

أجاب الدكتور برهان: الحبوب هي شغل العالم الآن، خاصة بعد التزايد الرهيب في عدد السكان، لكن لك أن تطمئن على قدرة الجزائر على تحقيق فائض كبير للتصدير من القمح، بالنظر لقلة سكانها ووفرة محصولها..

استرسل عمر قائلاً : إن هذا الموضوع هو شغلي الشاغل منذ أن وصلت إلى هنا، وهمى الأكبر أن أجمع عنه أكبر قدر ممكن من المعلومات بالنظر لضيق الوقت وقرب مغادرتنا للجزائر..

أجابه الدكتور برهان قائلاً : إن القمح يزرع بوفرة في منطقة الهضاب العليا في الجزائر، إنها لمصادفة سعيدة أن تكون جميلة بيننا الآن لتعاونك في أبحاثك التي تطلبها عن القمح، فهي فضلاً عن علمها الواسع وصلاتها بالعديد من الشخصيات الهامة هنا، فهي أيضاً من سكان الهضاب العليا، وبالتحديد في مدينة تيارت..

غاض الدم فجأة في وجهى عمر وجميلة في آن واحد معاً، لسماعهما اسم مدينة تيارت يتردد على شفتي الدكتور برهان، فها قد تعددت المصادفات في اقترابهما كثيراً من السر الذي خفي طوال السنوات الماضية، لكن عمر سرعان ما تمالك نفسه ليوجه سؤاله إلى جميلة قائلاً : أحقا أنت من تيارت!؟..

لكن جميلة التي التزمت جانب الصمت حتى الآن، التقطت طرف الخيط لتسأله بحذر قائلة : ولماذا تهتم بالسؤال عن تيارت بالذات!؟ أيعنى الاسم شيئا بالنسبة لك؟..

غام وجه عمر لحظة وهو يجيبها قائلاً: إنها لمصادفة غريبة أن تكون لي أحداث سابقة في تيارت، فلقد كنت أحد الجنود الذين اشتركوا

في معاركها أثناء حرب التحرير، ومن يدرى فربما نكون قد التقينا أثناء ذلك..

لكن جميلة سارعت بالنفي قائلة : إنني لم انتقل إلى تيارت إلا بعد الاستقلال، لذا فاحتمال لقائنا هناك مستبعد..

أراحت تلك الإجابة وفاء التي ظلت حتى تلك اللحظة صامته ترقب مسار الحديث الدائر في سكون، إلى أن وجدت الفرصة سانحة هنا لفض الاشتباك، وإنهاء الموقف الذي تطاول بالرغم عنها، فتدخلت قائلة: لقد سعدنا بمعرفتك يا آنسة، لكنني لا أعتقد أننا نملك الوقت الكافي لمناقشة المزيد من تفاصيل القمح معك.. ذلك لأننا سوف نغادر الجزائر في الصباح..

كظم عمر غيظه، فلم يكن هناك سفر قريب كما ادعت وفاء في الصباح، بل كانت هناك عدة أيام أخرى مازالت بعد باقية على السفر ومغادرة البلاد، لكنه لم يشأ أن يخالفها في الرأي أو يظهرها بمظهر المرأة الغيور على زوجها أو المخادعة في كلامها، حتى لا يقلل من قدرها أمام أغراب، لذا فما لبث أن أجاب وهو يظنه الوداع قائلاً : أخشى أننا لا نملك الوقت الكافي لبحث المزيد من التفاصيل..

فبهذا ينتهى لقاء الأشجان، وليمض كل في طريقه المعهود الذي رسمته له الحياة من قبل بدقة وصلابة وإحكام، أما الأفكار الطائشة

والأماني الضائعة، فمكانها هناك مع طيور الظلام التي تهاجم الأحلام كل مساء بلا شفقة، بلا أمل في عودة أو رجاء بلقاء..

لكن الدكتور برهان ما لبث أن سحب عمر وجميلة من أيديهما متوجها إلى مائدة جانبية وهو يستأذن من وفاء قائلاً : بالنظر لضيق الوقت فسوف ننهى مناقشتنا للأمر الآن.. أما أنت يا سيدتي فيمكنك في هذه الأثناء تناول مشروب على نفقتي الخاصة وسوف أدفع الحساب..

ضحكت وفاء للنكتة التي أطلقها الدكتور برهان في انصرافه برفقة الطرفين إلى مائدة المفاوضات القريبة، وهي تحاول أن تخفي كمدها حتى لا تبدو مهانة أمام الآخرين، وانصرفت إلى أقرب المعارف والأصدقاء لتنضم إليهم في أحاديثهم الشتى، وقد تركت العاشقين يواجهان معا قدرهما المحتوم.

على مائدة المفاوضات القريبة، وعلى رشفات مشروبات مثلجة قدمت إليهم لتخفف من حرارة الموجة الساخنة التي اجتاحت العاصمة في ذلك الوقت المتقدم من الربيع.. رسم الدكتور برهان خريطة تقريبية للجزائر أوضح عليها أهم المناطق والمدن التي تزرع القمح بها، بينما شاركته جميلة الرأي وأدلت بما لديها من مقترحات أهمها بناء "الشونات" الكبيرة المعدة جيداً لتخزين الحبوب بطريقة حديثة، إذ أن كمية كبيرة من الحبوب تفسد نتيجة لسوء تخزينها بالطريقة التقليدية التي يتبعها الفلاحون منذ قديم الزمان، فإذا ما تم التخزين بطريقة

سليمة، أمكن بعد ذلك نقل الحبوب وتصديرها بكميات كبيرة، وحددت جميلة بعض المدن على الخريطة يمكن أن تُبنى بها الشون من بينها مدينة تيارت.

بعد أن استوعب عمر معلوماته الكافية عن زراعة القمح بالجزائر، شكر مرافقيه، وتم الاتفاق معهما على أن يتصل بهما إذا ما أعوزته المعونات الإضافية أو المزيد من التفاصيل..

* * *

في عودتها تلك الليلة بعد انتهاء الحفل الساهر، إعتمدت جميلة رأسها بين راحتيها، وهى وحيدة في حجرتها بالمدينة الجامعية، انخرطت في بكاء طويل.. لم تكن تدري أهو من الفرحة بلقاء الحبيب بعد أن عز الرجاء فيه، أم من الحزن على فراقه مرة أخرى بعدما تحقق اللقاء به؟.. ولكن ما بالها قد ضعفت هكذا وقد كانت على وشك ان تبرأ من دائها به وأن تنساه؟ .. بل ما الذي تريده أو ترتجيه بعد وقد تكشفت لها من حياة عمر أشياء كانت تجهلها، من شأنها أن تؤكد استحالة لقائهما من جديد، فحياته العائلية المستقرة مع زوجة متألقة جميلة، وحياته الاجتماعية اللامعة الواعدة، من العسير التضحية بهما للعودة إليها ليستكملا ما كانا عليه من فلاحة الأرض ورعاية الأغنام.. شكراً لأنه مازال لم يتذكرها بعد، فماذا في إعادة الذكرى!؟ .. كلمات شكر على جميلها نحوه وعنايتها به، عطف وشفقة من شأنهما أن ينكئا جروحها التي قاربت الشفاء، ويطيلا من أمد عذابها وشقائها به.. فالأفضل أن

تنتهى الأمور عند ذلك الحد، وحمداً لله أنه بخير وأنه في صحة جيدة، وتحت رعاية امرأة جميلة كوفاء تهتم به وتغير عليه، وتوفر له من السعادة والرفاهية ما لم يكن في إمكانها هي أن توفره له لو أنه استمر معها، أشبه بالعامل الأجير في قرية سيدى على، على ضفاف نهر سيبيجاج بأقصى جنوب غرب الصحراء الأفريقية الكبرى.. نقطة ضئيلة ضائعة هباء في رمال الصحراء.. لا أمل .. لا رجاء.. بل واقعهما الآن أفضل لكليهما جداً..

بعد أن انفض حفل السفارة المصرية بالجزائر، حاولت وفاء مع غيرها من النساء فرض رأيهن على أزواجهن بمغادرة الجزائر في الصباح لإنجاز زيارتهم الموعودة لباريس، لكن الرجال لم يكونوا قد تهيأوا لهذا السفر، خاصة وأن هناك العديد من الأعمال ما زالت في انتظارهم بالجزائر لم يتموها بعد.. لذا فقد تفتقت عبقريتهم عن خطة جهنمية من شأنها ضرب عدة عصافير بحجر واحد، فيجمعون كل الزوجات في طائرة تطير بهن إلى باريس لإتمام رحلتهن التي يحلمن بها تحت رعاية السفارة المصرية هناك، بينما يتفرغ الأزواج لإنجاز أعمالهم بالجزائر.. لكن وفاء لم تكن تريد للأمر أن يتم على هذا النحو، فبعد أن عاينت انجذاب زوجها للشعر الأصفر واللكنة العربية الدارجة، تمثلت لذهنها مغامرة عمر في اليمن مع سوزي ذات الشعر الأصفر واللكنة الغريبة، لذا فلم تعد تأمن عليه من أن تتكرر نفس المأساة مع المرأة الجزائرية الجميلة التي تشبه سوزي إلى حد كبير،

خاصة وقد شاهدت بحاسة الأنثى أشياء غريبة غير منظورة تجري بينهما من شأنها أن تؤكد خطورة الأمر وإمكانية تطوره إلى ما لا يحمد عقباه.. لكنها وجدت نفسها محاصرة بين زميلاتها وهن يدعونها للسفر معهن، خاصة وأنها هي الداعية إليه والمنظمة له، وفي نكوصها الآن بلا سبب واضح أو تفسير معقول ما سوف يزيد وضعها سوءاً بينهن فضلاً عن تطلعها منذ البداية بشوق لزيارة باريس بما تمثله من حضارة وأضواء.. لذا فلا معنى في رفض سفرها الآن، وربما هي في شكوكها مجرد واهمة، فلقد كان واضحا جلياً منذ البداية بأن المرأة الجزائرية الشقراء تقابل زوجها للمرة الأولى في حياتها، ولم تكن مثل سوزي مبتذلة جريئة، وإنما كانت تتكلم طول الوقت بأدب دون أن يبدر منها أو يصدر عنها أي إساءة للأدب أو خروج على المألوف، ولقد انتهى ما بينهما بمجرد انتهاء الحفل.. لذا فلا معنى لغيرتها الحمقاء تلك، ولها أن تسافر مطمئنة، فهي لن تغيب عن الجزائر أكثر من أيام قليلة ستعود بعدها لتمنع أيه علاقة قد تنشأ في غيابها بين زوجها وأية امرأة أخرى، فلقد تعلمت منذ حين ألا تستسلم وأن تدافع عن حقوقها فيه، لذا فسرعان ما قبلت الرحيل وهى تودع زوجها في الصباح المبكر، أوصته بأن ينتبه لنفسه جيداً أثناء غيابها خاصة من الشعور الصفراء، ولقد وعدها بالحذر، لكن أنى للحذر أن يغنى من القدر!

كان عمر يشعر بحنين جارف نحو تلك المرأة الجزائرية الجميلة التي ظهرت فجأة أمامه، فجذبته اليها بطريقة غير مفهومة، لا بل إنه

يدرك الآن السبب، وهو يرقد وحيداً في فراشة الوثير داخل الفندق الكبير بعد رحيل زوجته وسفرها مع باقي الوفد إلى باريس، داهمه شعور قاس بالوحدة والاغتراب، فراغ هائل ما فتئ يكتنف حياته فيلونها بلون رمادي كئيب، حتى أثناء تواجد وفاء بجواره فهو أشد وحدة واغتراباً، يفتقد دائما إلى شيء ثمين لا يعرف كنهه دائماً يبحث عنه ولا يجده، ولكن أليست هكذا حياتنا جميعاً، نبحث فيها عن جنه ضائعة مفقودة، غير موجودة سوى في أحلامنا وتصوراتنا!؟ وفي كل مرة نقترب منها أو نظن أننا وصلنا إليها، إذا بها مجرد أوهام.. حتى في المرة الوحيدة التي شعر بنفسه قريباً منها في علاقته الغير مفهومة بسوزي، إذا به يكتشف مدى غبائه، وأنه قد كان مجرد ألعوبة في يد امرأة مخادعة استغلت سذاجته واندفاعه الأعمى نحوها لتوقع به ولتستغله أبشع استغلال.. لذا فعليه أن يحذر لنفسه دائما، يجب ألا ينساق وراء عواطفه أو يجرى خلف أوهامه حتى لا تقوده إلى بعيد.. لكنه مع ذلك لم يستطيع أن ينكر جمال تلك المرأة الجزائرية الشقراء التي قابلها بالأمس، رغبته فيها واشتهاءه لها كنموذج فريد متميز لجمال أخاذ، لكن لا بأس عليه إن هو عاش معها لحظات في خياله، فيضمها إليه، و يطبع على بشرتها الصافية بعض القبلات الحارة، تعبيراً عن حبه لها واشتهائه إياها، وليجد في أمانيه بها بعضاً مما افتقده من وفاء.. لكن الكرى ما لبث أن داعب عينيه المرهقتين، وشده النعاس إلى عالمه البعيد، فراح في عالم الأحلام يكمل معها ما بدأته أحلام يقظته، حيث احتواه نوم مريح هادئ، لأول مرة خالي من

الأحلام المزعجة التي ما فتئت تراوده عن حروب ودمار، وأسد يضرب بسيف الحق البتار.

استيقظ عمر في الصباح الباكر نشيطاً مرحاً، يتغنى بأناشيد الثورة الجزائرية التي رددها على الجبال في حرب التحرير، فأثارت في نفسه أحاسيس العزة والفخار، تغني بأناشيد المفدى زكريا :

نحن جندٌ في سبيل النصر ثرنا

وإلى استقـلالنا بالحق قمـــنا

لم يكن يصـــغي لنا لما نطـقنا

فارتضينا رنـــــة البـــارود لحنا

وعقدنا العزم أن تحـيا الجزائر

فاشـــــهدوا.. فاشـــهدوا،،،

ارتدى ملابسه وأصلح من هيأته قبل أن يلحق برفاقه من زملاء الوفد المجتمعين في بهو الفندق في تناولهم لطعام الإفطار تمهيداً لسفرهم المرتقب إلى مدينة وهران ثاني المدن الجزائرية بعد العاصمة وعاصمة الغرب الجزائري ليتفقد مع الوفد أحوال الصناعة بها.

كانت الشمس مازالت في شروقها الجميل، حينما انطلق ركب السيارات الطويل المقل لأعضاء الوفد في الطريق الساحلي الجميل الموصل إلى وهران، حيث ركب كل عضوين أو ثلاثة بإحدى السيارات

بمصاحبة أحد الأدلاء الجزائريين ليقوم بالشرح والارشاد.. ولقد شعر عمر بسرور غامر وهو يكتشف أن المرأة الجميلة من بين المصاحبين للوفد، بصفتها المترجمة المناط بها ترجمة كل ما هو فرنسي للوفد المصري، لمحها بسيارة مجاورة تتبادل الحديث الضاحك مع المرافقين لها، فخفق قلبه لمرآها العابر السريع، ودق دقاته العنيفة الغير مفهومة، وتمنى لو أنها كانت هي المرافقة له في سيارته بدلاً من الدكتور برهان الملاصق له، ذو الوجه المتجهم الوقور، لكنه ما فتئ يمني نفسه بفرص أخرى قادمة، لابد سوف تجمعه معها في رحلتهما القادمة الطويلة.

الفصل الخامس

الرحلة الطويلة

في الطريق إلى "وهران" التي تبعد عن العاصمة حوالى 500 كم غرباً، كان عليهم أن يمروا على العديد من القرى والمدن التي مازالت تحمل آثار دمار المعارك الحربية ووحشية المستعمر، التي تمثلت في هدم الكثير من مبانيها وحرق غاباتها الكثيفة التي اختفى بداخلها الثوار، حتى لقد تحولت المنطقة إلى أرض عارية جرداء.

كان على الوفد أن يتوقف أثناء الطريق عدة مرات لزيارة بعض المدن والمصانع على الطريق، ولقد قامت جميلة بأسلوبها المميز وروحها الطيبة بدور المرشدة والدليلة خير قيام، تولت نيابة عن الفلاحين الشرح والتفسير، ونقلت إليهم أراء ومقترحات الوفد المصري، وأين يمكن أن تقام نقاط الصناعة الجديدة بالتعاون مع المصريين، ولقد وجد الوفد المصري في مروره كل الحفاوة والترحيب، وهم ما فتئوا يسمعون كلمة "ناصر" تتردد على شفاه الفلاحين والمواطنين أينما حلوا، بل ويحملونهم تحياتهم إليه، فلقد تحول "عبد الناصر" مع الوقت في نفوس البسطاء إلى رمز للحرية والنضال..

وبالطبع فقد قام الدكتور برهان بدوره في قيادته للرحلة والتنسيق بين أعضائها خير قيام، لكن عمر انتهز فرصة تجاورهما مدة سفرهما الطويل ليسأله عن جميلة بغية إماطة اللثام عن ماضيها عله يجد فيه ما يذكره بها أو يهتدى من خلاله لشيء مما يبحث عنه أو يرتجيه.

أبلغه الدكتور برهان أنها مجاهدة حاربت في صفوف الثوار، وأنها أرملة لشهيد من شهداء حرب التحرير ولديها منه طفلة في حضانة جديها القاطنان في تيارت، ولقد جاءت إلى العاصمة لتواصل تعليمها العالي، ولتشارك في معركة بناء ما بعد الحرب.. لذا فهي مناضلة شجاعة تستحق كل الإكبار والتشجيع..

تضاءل عمر في سماعه لتلك الأخبار الهامة عن جميلة، إذ بها يصبح الأمر منتهيا، فليس له نصيب من ماضيها الذي ملأه شهيد وطفلة وحياة نضال بعيدة تمام البعد عن حياته السابقة، وخجل أن سمح لنفسه بأن يفكر فيها أو يشتهيها كامرأة، بينما هي بطلة جديرة بالاحترام والتقدير كرمز للكفاح والنضال.. لذا فقد عقد العزم على أن يتحاشى الوقوف في طريقها وأن يتركها تؤدي دورها البطولي في سلام، بعيداً عن أمنياته الفجة وخياله المريض، ومن هنا جاء حرصه على أن يكون دائما في آخر الوفد، يستمع إلى شرحها ومناقشاتها من بعيد دون أن يتدخل في الحديث..

ما كاد عمر يعود إلى سيارته عقب زيارته لأحد المواقع على الطريق، حتى أسند رأسه على وسادة المقعد الخلفي إستجماعاً لأفكاره واستجلاباً للراحة ليكون أقدر على مواصلة المرحلة القادمة من الرحلة الشاقة في مرحلتها الطويلة القادمة.. فجأة صك سمعه حفيف خافت لملابس رقيقة في ملامستها للمقعد المجاور له، وصوت انغلاق هادئ للباب يختلف كثيراً عما إعتاده من الدكتور برهان في عودته الصاخبة،

أراد أن يفتح عينيه ليتبين حقيقة القادم الجديد، لكن عطراً فواحاً مميزاً ما لبث أن داهم عقله فحلق به إلى الأبهاء البعيدة، وأكد له أنها هي دون سواها بأنفاسها اللافحة وتيارها الممغنط الخطير.. لا مهرب هذه المرة ولا فكاك..

فتح عينيه ببطء.. والسيارة تتهادى على الطريق المعشوشب المخضر الجميل، طالعه وجهها الملائكي البشوش، وهى ترمقه من خلال عينين عميقتين مشجعتين بادرته قائلة: كيراك؟ (وهى التحية الجزائرية الدارجة، بمعنى كيف أراك ..أو كيف حالك!)

تلعثم وتردد كثيراً قبل أن يستجمع ما تبقى في ذاكرته من اللهجة الجزائرية ليجيبها بنفس اللهجة قائلاً: لاباس.. (بمعنى: لا بأس، أو: إننى بخير).

والسيارة تنهب بهما الطريق الواسع السلس، أوضحت له جميلة سبب تواجدها بجواره، الناتج عن انتقال الدكتور برهان المفاجئ لاستكمال مباحثاته العاجلة بسيارة بعض أفراد الوفد المرافقين، مما نتج عنه استبدال أماكنهما المرحلة القادمة من الطريق، ثم ما لبثت أن اعتدلت في جلستها وهى تواجهه قائلة: سيد عمر.. أراك تتحاشى الاقتراب مني في الفترة الأخيرة، فهل لي أن أعرف السبب؟!

أجابها "عمر" وهو يتصنع الفكاهة قائلاً: لقد اكتشفت أنك مجاهدة خطيرة، حاربت وفتكت ودمرت.. لذا فقد خشيت على نفسي.. وآثرت السلامة..

حاول عمر أن يبتسم، لكن جميلة وجمت برهة قبل أن تسأله قائلة: فمن الذي أخبرك بذلك؟!

أجابها عمر وهو يغالب حياءه قائلا: أنه عاشقك المتيم الدكتور برهان.

ضحكت "جميلة" ضحكة قصيرة قبل أن تجيبه قائلة: لا تصدق كل ما يقوله عني الدكتور برهان، فهو يراني بعين المحب الولهان.. وعين المحب – كما يقولون – عمياء..!

ضحك عمر على الدعابة التي أطلقتها جميلة عن الدكتور برهان، وسرعان ما احتواهما حديث مرح وقد فارقه إحساسه الموحش بالحرج تجاهها، فإذا به يكتشف فيها إنسانة أخرى بسيطة حاضرة البديهة واسعة الاطلاع، فراحا يخوضان في أحاديثهما العديدة المتشعبة، كأنما هما أصدقاء منذ وقت طويل..

في لحظة الصمت التي أكتنفتهما بعد حين، فكر عمر في تلك المرأة التي احتلت مكانها بجواره والتي ما فتئ القدر يدفعها في طريقه لتحتل من مشاعره القدر الكبير، ولتجعل بذلك مهمته في نسيانها والابتعاد عنها أمراً عسيراً بعيد المنال، وبعد أن قرر المحافظة على

مسافة بُعد مناسب يفصل بينهما، ها هي ذي تجلس بجواره تكاد تلتصق به في فراغ السيارة الضيق لتدغدغ حواسه بشحنة من المؤثرات القوية، حتى لقد فتح نافذة السيارة، يتناول من خلالها جرعات كبيرة من الهواء النقي المحمل بعطر مزارع البرتقال التي تناثرت على جانبي الطريق، تغلغل الهواء المعطر إلى أعماقه السحيقة، يجلو بنفسه ويغسل أفكاره، فتبين من خلالها أحاسيس بكر جديدة ثارت في نفسه بمناسبة اللقاء، حتى لقد اضطربت دقات قلبه قبل أن يتسائل نفسه في هلع: هل هو يحب تلك المرأة الجميلة الجالسة بجواره؟!.. هل سقط صريع هواها منذ النظرة الأولى التي طالعته من عينيها الجميلتين؟ لطالما قرأ عن قصص المحبين من قادة وملوك، ممن هزمتهم العيون الفاتكة، فهل أصبح واحداً منهم، غلبه هوى العيون الدعجاء؟!

لكنه ما لبث أن طمأن نفسه وهو يطرد عنه هذا الخاطر الغريب، أن هو إلا مجرد اشتهاء وقتي للجمال ما يلبث أن يزول، لذا فقد فاجأها من خلال ضحكته المرحة قائلا: أظنني سوف أنضم إلى طابور عشاقك الطويل، فلقد رأيت فيك ما رآه الدكتور برهان..

أجابته جميلة بعبث قائلة: إذن فأنت مثله أعمى..

تعالى ضحكهما قبل أن تسأله جميلة قائلة: وماذا رأيت في؟..

أجابها عمر باندفاع وبلا تفكير قائلا: أرى أنك جميلة..

سألته وهى تغالب ابتسامتها الرقيقة: أهو أسم أم صفة؟..

أجابها عمر وهو يتخلى عن حذره قائلاً: كلاهما..

أجابته جميلة وهي تغض برأسها حياء إلى الأرض قائلة: أشكرك على المجاملة الرقيقة..

فكرت جميلة.. ها هي ذي بداية الطريق.. ما أسهل السير فيه وأجمله، مرة أخرى تبدأ معه طريق الحب، فمن ذا الذي لا يملك أن يحب هذا الملاك الطاهر والفارس النبيل، بكل ما تجلى على أماراته من وسامة وما تحلى به من رجولة وشمم وإباء!. لكنها ترددت وهى تُسائل نفسها: إلى أين ينتهي الطريق؟!.. إلى أي هدف ونحو أي غاية؟ أهي تبحث معه عن مغامرة سريعة عابرة يفترقان على أثرها وهما يحملان لبعضهما الذكريات الجميلة؟.. وأن لم يكن الأمر كذلك؟ فإلى متى؟.. أ إلى لحظة ينتبهان بعدها ليكتشفا استحالة موقفها وطريقهما المسدود.. فلكل منهما عالمه الخاص وفلكه الذي يدور فيه، ويستحيل لذلك إتفاقهما أو تلاقيهما من جديد.. وبعد ما كان لها من ذكريات حلوة معه في قديم الزمان، عليها أن تبتعد عنه وأن تتساه، أن لم يكن من أجل زوجته وأطفاله وعالمه الذي يمكن أن تقوضه مثل تلك المغامرة الطائشة، فعلى الأقل من أجل إعزازها لما كان بينهما من رباط مقدس وجهاد مشترك.. ومن أجل أمل، تلك الطفلة المسكينة التي كتب عليها أن تتحمل مرارة اليتم، برغم أن أبيها مازال سليماً معافى يحتل أعلى المراكز المرموقة في المجتمع.. وتساءلت جميلة بالرغم عنها: أليس من حق أمل أن تعلم بوجود أبيها!؟ أليس من حق عمر أن

يشاهد إبنته ويعلم بوجودها ولو للحظات قصار!؟.. لكنها سرعان ما طردت عنها هذا الخاطر الذي من شأنه إضافة المزيد من التعقيدات لحياتها البائسة التي بالكاد تستقيم، تكاد من خلال العواصف الهوجاء أن تصل إلى شاطئ السلامة وبر الأمان..

فجأة سألها عمر وهو ينبهها من أفكارها قائلاً: من هو ذلك السعيد الحظ الذي أستحوذ على كل أفكارك.. وذهب بك إلى بعيد..؟

أجابته "جميلة" بلا تفكير قائلة: أمل..

سألها "عمر" من خلال ضحكته الفاترة قائلاً: أهو أسم أم صفة؟..

أجابته "جميلة" مستدركة: إنه اسم لأجمل مخلوقة في الوجود، أنها ابنتي الصغيرة التي تركتها في تيارت، ولكم اشتقت إليها كثيراً..

سألها عمر: كم عمرها؟!

أجابته: في هذا الشهر تتم عامها الرابع.. لكنني أجد الصعوبة في الحصول على أجازة أقضيها معها للاحتفال بعيد ميلادها..

أجابها عمر : كم كنت أتمنى لو طال بقائي في الجزائر لكى أحضر معك تلك المناسبة السارة للاحتفال بعيد ميلادها.. لكن أرجوك أن تقبليها من أجلي، وأن تبلغيها تحيات عاشق مجهول..

وصل الركب أخيراً إلى مدينة وهران، حيث أُستقبل استقبالاً طيباً من القيادات السياسية بالمدينة التي أشرفت على استضافته وإنزاله أحد

الفنادق الفخمة المقامة في بقعة منعزلة قريبة من البحر، ريثما استراحوا من وعثاء السفر الطويل، إلى أن جاء المساء فبدأت سلسلة من الاجتماعات الطويلة بين مجموعات صغيرة من رجال الصناعة المصريين والجزائريين، إشترك في الإعداد لها والتنسيق بينها عدد كبير من المترجمين والمترجمات من بينهم جميلة والدكتور برهان، لذا فكثيراً ما التقى عمر وجميلة معاً في اجتماعات اللجان المشتركة والزيارات التي تعددت لأماكن الصناعة في المدينة وفي كل مرة تتوطد صداقتهما ويزداد التصاقهما وقربهما معاً، وهو ما فتئ يقرأ في عيني تلك المرأة الجميلة أسراراً دفينة تشده إليها وتخيفه منها، دون أن يعرف لها سبباً أو مبعثاً!..

كانت زيارة الوفد في اليوم التالي لقبر الجندي المجهول حيث وقف الجميع حوله في إجلال وإكبار، بينما استعدت ثلة من الجنود لإطلاق بنادقهم في الهواء إجلالاً وتعظيماً للشهداء.. أغمض عمر عينيه في توقع لسماع الطلقات المخيفة، التي انبعث بريقها يخطف الأبصار مع دويها الهائل الذي أصم الآذان.. تشبث لا شعوريا بيد جميلة القريبة منه والتي أطبقت عليه في شدة كأنما لتنتشله من الهوة السحيقة التي أوشك على التردي فيها.. رأى من خلال إغفاءته القصيرة صورة لقبور متراصة طويلة وبعضاً من الأهالي ببنادقهم القديمة يطلقون نيرانهم وهم وقوف على مشارف قرية "عين سيدى علي".. وقبل

أن تغيم ذاكرته تماماً، شعر بيد جميلة تهزه بشدة وتسأله بقلق: هل أنت بخير يا سيد عمر؟..

أجابها وقد بدأ يسترجع إحساسه بواقع الأمور: نعم.. نعم.. أشكرك..

سألته جميلة باهتمام: لقد أنتفض كيانك كله لسماع الطلقات.. فماذا حدث؟!

جفف عمر قطرات العرق من فوق جبينه، حاول أن يبتسم وهو يجيبها قائلا: أتصدقيننى لو قلت أنني كنت منذ لحظة أقف على حافة واد تنساب مياهه بقرية ما نائية من قرى الجزائر؟..

أغمضت جميلة عينيها وقد بُهت لونها، أجابته من خلال جفونها المطبقة قائلة: نعم.. أصدقك..

هل أحسست بما أحسسته من تعدد القبور هناك؟..

تشبثت جميلة بيده بشدة وهى تستحثه على التذكر، هتفت به قائلة: أظننى قد رأيتها أيضاً..

لكن عمر هز رأسه بشدة كأنما ينفي عنه خاطراً مزعجاً أو غير معقول، ما لبث أن أجابها قائلا: لا.. بل هو قبر واحد.. ذلك الذي نراه أمامنا الآن..

غمغمت جميلة وهى ترافقه بعيدا عن المكان قائلة: نعم.. نعم.. إنه كما قلت أنت .. قبر واحد.

ثم ما لبثت أن أضافت لنفسها مصححة: أنه بلا شك قبر واحد.. ضم ذكرياتنا القديمة معاً..

كانت جميلة تأمل أن تتحقق المعجزة فتعود لعمر ذكرياتهما القديمة معاً، في تلك اللحظة الخاطفة التي غاصت فيها أحاسيسه في تجاويف الماضي بتأثير لحظة انطلاق البارود، التي شابهت لحظة اطلاق البارود بقرية أولاد سيدي علي، على ضفاف نهر سيبيجاج، حينما استرد عمر ذاكرته التي فقدها هناك، وفقد باستردادها أعزاءه الذين أحبوه وأحبهم هناك أيضاً.. كانت اللحظة قريبة وعودة استرداده للجزء المفقود من حياته ممكنة، وهو يشاهد القبور التي انطلقت عندها بنادق المجاهدين في قرية أولاد سيدى علي.. لكنها سرعان ما انطمست بفعل أحداث الواقع وستار اللاشعور الكثيف الذي أراد لها أن تختفي وتتأخر إلى حين..

ابتعد عمر عن قبر الجندي المجهول ليتابع حركته مع باقي أعضاء الوفد في تفقد معالم المدينة وانجاز أعمالهم بها، وسرعان ما ودعت جميلة أحلامها الطائشة في أن يتذكرها عمر أو أن تعود إليه ذكرياتهما معاً.. وهى تلوم نفسها على هذا المدى الواسع الذي اشتط إليه خيالها، خاصة بعد أن كانت قد عقدت عزمها على ترك الأمور على ما هي عليه من وأد للماضي الذي أراد له الجميع الموت

والنسيان، والذي لن يأتي من وراء نبشه سوى الآلام والمزيد من التعقيدات..

بعد تفقد الوفد لمعالم المدينة، عاد أفراده إلى الفندق الذي يقيمون فيه لتناول طعام الغذاء والحصول على فترة راحة تستأنف بعدها اجتماعات المساء والليل، في سباق مع الوقت للانتهاء من أعمال ومهام الوفد المتشعبة في الفترة الضيقة التي يزور خلالها الجزائر.

قبل أن تدخل جميلة إلى حجرة الطعام لتناول غذائها، ناداها موظف الاستقبال ليسلمها برقية وصلت في التو محولة من العاصمة على عنوانها الجديد في وهران.. فتحتها بلهفة لتقرأ فيها:

"إحضري حالاً.. أمل في خطر.."

قبل أن تنهار جميلة، كانت هناك يدا عمر القويتين تشدانها وتقيمانها ثابتة في مكانها حتى لا تسقط إلى الأرض، بينما سألها بانزعاج قائلاً: ماذا بك سيدتي؟.. هل الأمر خطير لهذه الدرجة؟..

لم تجد جميلة القدرة على أجابته مباشرة، أطلعته على البرقية قبل أن تجيبه بصوتها المتهدج الخفيض قائلة: ابنتي أمل.. إنها في خطر..

أجابها "عمر" وهو يغالب انزعاجه وتأثره قائلا: إذن.. فعلينا أن نذهب إلى تيارت في الحال..

برغم حزنها ولوثتها، فقد لاحظت جميلة صيغة الجمع في حديث عمر بما يفيد اشتراكهما معاً في مسئوليتهما عن أمل، وأنتابها العجب للحظة أن يكون ذلك الذي يتكلم هو عمر آخر، يتصرف بأوامر صادرة إليه من عالم خفي تعطيه الحق في الاهتمام بابنته أمل، تذكرت كلمات نطقت بها الأميرة عائشة في مولد أمل، وهى مازالت بعد قطعة من اللحم الأحمر تصرخ وتضرب الهواء بأطرافها الصغيرة، كانت الأميرة عائشة قد تنبأت بأن والدها عمر سوف يعود استجابة لنداء أمل إليه.. أتراه قد سمع من الغيب صراخها في لحظة الخطر فاستجاب إليه؟.. بل لماذا لم يشأ هذا الخطر أن يداهم أمل إلا الآن وأبوها على مقربة؟!.. أليس لكي يكون نداؤها له أشد استماعا وأسرع استجابة!..

لكن جميلة سرعان ما أفاقت من خواطرها وهى تتبين سوء موقفها، خاصة في ذلك الوقت المتقدم من المساء حيث تنعدم وسائل النقل الموصلة لتيارت، فأجابت عمر في يأسها قائلة: كيف السبيل إلى تيارت الآن، ولا توجد مواصلات إليها إلا في الصباح؟

أجابها عمر بحزم قائلاً: لك أن تطمئني، فسوف أقوم بتدبير الأمر..

تغلب عمر على كل اعتراضات جميلة التي ساقتها وهى تشفق عليه من مشقات الرحلة إلى تيارت، التي تمر خلال جبال ووديان خطرة.. لكن عمر كان كما عرفته دائماً، شهماً وحازماً وسريعاً.. فما أسرع ما تجهزت السيارة ذات السائق الخاص، التي انطلقت بهما

تسابق الرياح في الطريق الجبلي الوعر الموصل إلى الهضاب العليا، حيث تحتل مدينة تيارت إحدى قمم الجبال هناك..

سألته جميلة وهى ما فتئت تحاول أن تثنيه عن عزمه قائلة: ولكن ماذا بشأن أعمالك التي سوف تتعطل في وهران؟..

أجابها عمر وهو يأخذ يديها بين يديه قائلاً: لقد أردت أن أقوم دائماً بتلك الرحلة، فبجانب أنها تذكرني بما كان لي في تيارت أثناء الحرب، فإن جزء من عملي الآن أن أكون بها لتفقد مواقع العمل وبناء الصوامع هناك.

ثم أضاف ضاحكاً: فضلا عن أنني في شوق لملاقاة معشوقتى الجديدة ..أمل.

أسقط في يد جميلة، فها هو ذا القدر الذي يتكلم الآن، ما فتئ يرتب الأحداث.. يذلل العقبات ويسبب الأسباب، ليصل عمر بأمل، فهكذا هي حياتنا في لحظات الخطر، تتولد بها طاقات خفية غير منظورة من شأنها علاج ما أفسده الدهر وتصحيح المسار..

في ضعفها كانت جميلة في أشد الحاجة ليد حنون توضع عليها لتسري عنها ولتخفف مصابها، لذا فلم تعترض حينما لف عمر ذراعه حولها وهو يربت عليها بحنان، وقد شعرت إزاء يديه القويتين بمدى ضعفها واحتياجها إليه.. هو وحده من دون الناس زوجها وحبيبها، وأبو أمل الحقيقي، الذي يحق له وحده أن يشاركها قلقها وحزنها عليها، لذا

فسرعان ما أسلمت نفسها لغفوة سريعة بين يديه، شعرت بها تسري عنها وتنتشلها من مخاوفها وتطمئنها إلى أنه بجوارها قوياً شامخاً وعلى أهبة الاستعداد، وسيهب للدفاع عنها وإنقاذها- هي وأبنتها أمل- من الأخطار التي تتهددهما، كما قد أنقذته من المخاوف والأخطار التي تعرض لها مرة من قبل في سابق الزمان..

لكن عمر في إغفاءته القصيرة بجوار جميلة، في السيارة الفارهة التي ما فتئت تنهب الأرض نهباً بين الجبال الشاهقة إلى تيارت.. أسند رأسه على مقعد السيارة وأغمض عينيه، وهو يخاطب تيارت قائلا: تيارت.. أيتها المدينة العاصية المستعصمة.. هآنذا آت إليك أخيراً لأنزع عنك ستر أسرارك الغامضة.. ولأعلم ما الذي حدث لي في ربوعك طوال شهور عشتها ضائعاً جريحاً فاقداً للذاكرة.. عطفت علي أثنائها أيد رحيمة مجهولة، ضمدت جراحي وضمتني لصدرها الحنون، وأعادت إلي العقل والأدراك والشعور..

لماذا يا مدينة الأسوار العالية تتعالين علي.. تحجبين عني وجهك الصبوح.. تتباعدين أبعد مما تطاله يداي؟.. إرخى شعورك على أسوار قلعتك حتى أصعد إليك، فأنا على استعداد دائما لكى أصارع من أجلك الغول الذي يقطع الطريق، سأجمع حولك كل قمح الدنيا قرباناً لضفائرك الشقراء.. سأقتل أسدك المفترس بسيف الحق البتار، ويل لك مني.. وويل لي منك، فلقد كنا سويا.. ألعوبة في يد القدر..

* * *

كانت آمنة قابعة في فراش أمل المسجاة فيه غائبة عن الوعي بمستشفى تيارت العام، وهي تدعو وتبتهل إلى الله العلي القدير أن يعيد حفيدتها من غيبوبتها الطويلة مرة أخرى إلى الحياة، بينما أفترش سحنون حصيراً في جانب الحجرة ليصلي ركعات إلى المولى سبحانه، وهو يرجوه أن يأخذ بيد حفيدته ويشفيها، فهي الأمل الباقي لهما بعد أن عدما إبنهما الوحيد.

إستقبل الجدان جميلة من خلال دموع غزيرة فاضت بها العيون الكليلة تعبيراً عن سوء الحال الذي آلت إليه أمل، والتي ما فتئت تصارع المرض بجسدها الواهن الصغير، بحيث لم يبق أمامهم سوى الدعاء والرجاء في الله.. بينما وقف عمر من بعيد يراقب وجه أمل المحتقن من خلال أنفاسها الواهنة، وقد تخللته الأجهزة والأنابيب لتساعده على العودة إلى الحياة.. خُيل إليه لحظة أن وجهها مألوف لديه كأنما قد رآها من قبل.. أسرع يواسي الشيخين المتهالكين اللذين أنسا إليه وشكرا له سعيه واهتمامه بعد أن علما بهويته ومؤازرته لجميلة في محنتها ومصيبتها في أمل..

تجلدت جميلة وهى تستمع إلى الدكتور/ ترينوك، المتعاون الروسي، في شرحه لحالة أمل التي تدهورت سريعاً في الساعات القليلة الماضية نتيجة لإصابتها بالتهاب حاد في القصبة الهوائية لم ينتبه إليه أحد، حتى انتشر وانتقل إلى الحنجرة، مما نتج عنه إرتفاع في درجة الحرارة وفقدانها للوعى، إنتهاء بوضع أنابيب لتوصيل الهواء إلى

الرئتين، لذا فقد وضعت تحت العناية الطبية المركزة ريثما يعالج التهاب حنجرتها، فإذا ما خفت الحرارة وانفرج الانسداد وعادت مرة أخرى إلى الوعي، أمكن لهم إجراء الجراحة لاستئصال اللوزتين الملتهبتين اللتين سببتا كل تلك المشاكل والتعقيدات، إذ لا يمكن لأى جراح أن يخاطر بإجراء العملية الجراحية لها، والحال كذلك من ارتفاع لدرجة حرارتها وسوء حالتها.. لذا فما عليهم سوى الانتظار والدعاء لله الواحد القدير أن يتولاها برعايته وأن يعيدها إلى الحياة سالمة معافاة..

جلست جميلة الساعات الطوال بجوار فراش أمل التي ذوي عودها وهى غائبة عن الوعى تصارع الموت.. تأملت وجه ابنتها الذي كان دائما فتياً صبوحاً، فإذا به الآن باهتاً مصفراً فاقداً للحياة.. شيء محزن أن نرى أحبائنا يذوون ويتهاوون أمامنا بينما لا نملك حيالهم عمل شيء.. تذكرت عمر وهو في موقف شبيه في المرة الأولى التي رأته فيها، كان والدماء تنزف من جروحه الغائرة غائباً عن الوعي أقرب ما يكون إلى عالم الأموات، لكنها مع ذلك وبفضل ما تيسر لها من معدات وأدوات طبية، وبفضل من قوة بنيته وإرادة الحياة فيه، وبفضل من الله وتوفيقه، استطاعت أن تتغلب على الموت وأن تشفيه، فتفوز به وبأمل غنيمة وأجرة.

تحملت جميلة بإرادة حديدية وهى تدافع عن حياة إبنتها، استعملت كل فنون طبها وعلمها في التمريض التي تعلمتها أثناء عملها كممرضة في حرب التحرير، فجلست الساعات الطوال بجوار فراش أمل تراقب

حالتها وتزودها بالأدوية والعقاقير والسوائل التي ما فتئت تدخل وتخرج من جسدها الواهن من خلال الأنابيب التي نفذت إليه، كأنما في عنادها وتصميمها تصارع وحشاً هائلاً ما فتئ يجثم فوق صدر أمل ليخمد أنفاسها ويختطفها إلى بعيد، فإذا بجميلة وقد انقلبت إلى وحش أقوى تطارده وتسد عليه المنافذ والأبواب.

وعمر يحاول أن يكون مفيداً ومعاوناً، ينتقل ما بين جميلة والشيخين والطبيب، فيوصل طلبات هذا إلى ذاك، ويحضر الأدوية والمعدات، أو يشرف على إعداد الأطعمة والمشروبات، أشبه بجندي مثابر دؤوب في معركة الحياة والموت..

إلى أن كانت تباشير الفجر الأولى، فإذا بحركة واهنة تصدر عن أطراف أمل الضعيفة فتنبئ بتحسن حالتها وعودتها مرة أخرى إلى الحياة، فتهللت الوجوه التي كانت حتى لحظة سابقة متجهمة عابسة، ودب الأمل في النفوس، خاصة بعد أن أكد لهم الدكتور/ ترينوك، بأن مرحلة الخطر قد زالت، وأنها ستعود إلى حالتها الطبيعية في الصباح إن شاء الله.

بعد أن زال الخطر عن أمل استراحت جميلة وهدأ قلبها، خاصة بعد أن تولى فريق من الممرضات المدربات نوبة العناية والأشراف على أمل الساعات القليلة الباقية حتى طلوع النهار، لذا فلم تمانع جميلة حينما قادها عمر بعيداً عن فراش أمل، وهو يمددها برفق على الأريكة الضيقة بحجرة الانتظار الموحشة، أحكم حولها الغطاء وتمنى

لها أحلاماً سعيدة، بينما تمدد على مقعد بجوارها وقد تدثر برداء صوفي ليحميه من برد الليل، والكرى يداعب العيون المجهدة، كان عمر قد رأى جبالاً قد اخضرت روابيها، وأسداَ ما فتئ يتمسح به وهو يطلق نباحه الخافت، كأنما ينشد مودته وصداقته..

كان الصباح على وشك البزوغ حينما انتفضت جميلة من رقادها وقد فارقها النعاس، بينما أسرع عمر بإحضار قدحين من القهوة تناولاهما في نهم حتى انتعشا وجلسا في ترقب وانتظار.. إلى أن أهلت الشمس بنورها الوضاح ومعها الدكتور/ ترينوك يبشرهما بزوال الخطر عن أمل بعد أن أفاقت من غشيتها وفارقتها الحمى..

هرولت جميلة إلى حجرة ابنتها حيث طالعها وجه أمل النابض بالحياة كأنه بدر التمام، فأسرعت باحتوائها بين يديها الحانيتين لتغمرها بقبلاتها الحانية، بينما راحت أمل تتمسح بها كأنما تهرب لديها من أخطار محدقة، بينما وقف عمر يرقبهما من بعيد وعلى فمه ابتسامة راضية.

بعد برهة تنبهت جميلة لتواجد عمر بجوارها، فهمست لأمل قائلة: أمل.. أود أن أقدم لك عمر، إنه يحبك كثيراً، ولقد كان قلقاً عليك طول الليل.. وسهر بجوار فراشك حتى تحسنت حالتك..

مدت أمل يدها الواهنة في سلامها الرقيق لعمر، الذي أسرع بتلقف اليد الممدودة، ضمها قليلاً بين يديه قبل أن يقبلها بامتنان،

وتفرس في وجه أمل المشرق قبل أن يتمتم قائلاً: أنها لفتاة رائعة حقاً.. ولكم هي جميلة..

أجابه الدكتور/ ترينوك الذي تدخل في الحديث قائلاً: إنها لفتاة شجاعة أيضاً، فلقد تحملت وقاومت كثيراً، أما الآن فسوف نقوم بلعبة صغيرة معا..

ثم ألتفت نحو أمل وسألها قائلاً: هل أنت مستعدة؟..

أجابته أمل من خلال ضعفها قائلة: نعم..

من خلال ألعابهما المشتركة، استطاع الدكتور/ ترينوك بطريقته اللطيفة أن يقوم بتخدير أمل دون أن يثير في نفسها الخوف أو الشكوك، وسرعان ما تم نقلها إلى حجرة العمليات حيث أتم استئصال لوزتيها الملتهبتين، خرج بعدها ليعلن على المنتظرين نجاحها وأنها بين أيد أمينة ترعاها بعنايتها، لذا فما عليهم سوى الانصراف والعودة بعد حين.. تكون أمل قد أفاقت من تأثير المخدر..

الفصل السادس

البحث عن الماضي

كان الوقت يقترب من منتصف النهار، حينما غادرت جميلة المستشفى برفقة عمر بعد أن اطمأنا على حالة أمل التي استقرت بعد إجراء العملية الجراحية الناجحة لها، كان الإرهاق بادياً على جميلة بعد ساعات التوتر والسهر الطويل، لذا فقد قبلت الدعوة التي وجهها إليها عمر لتناول الغذاء، حيث إحتلا مائدتهما الصغيرة بإحدى شرفات المطعم الصغير المطل من بعيد على أسوار القلعة القديمة التي ما فتئت تتعالى فوق الجبل القريب في شموخ، تعلن عن نفسها كأنما لتعيد ما قد كان في إصرار..

بعد تناولهما لوجبة الغذاء الدسمة التي أعادت إليهما الكثير من عافيتهما الضائعة، وعلى رشفات القهوة القوية التي نفذت رائحتها الشهية إلى أعماقهما فحركت أشجانهما إلى أيام مضت، أطلق عمر بصره نحو القلعة وتردد كثيراً قبل أن يسألها قائلاً: سيدتي.. ألم يحدث.. في فترة ما بعد الحرب مباشرة، أنك قمت بزيارة تلك القلعة، أو وقفت بجوار سورها الشرقي، وكنت ترتدين ملابس زرقاء؟..

خفق قلب جميلة فجأة وغاص بين ضلوعها وهى تتذكر زيارتها لتيارت عقب استرداد عمر لذاكرته وتسليم نفسه للقلعة، وعجبت أن يكون قد رآها في ذلك اليوم أثناء وقوفها على سورها الشرقي وبكائها الطويل على فراقه لها، فلقد كانت في خلوتها تظنها منبتة الصلة عن

الآخرين، لم يحدث ما يعكر صفوها سوى تلك الحركة الواهنة لغلق النافذة المطلة من أعلى أسوار القلعة، وهى تلمح خلفها ضابطاً في ملابسه الرسمية لم تتبين ملامحه جيداً بسبب امتلاء عينيها بالدموع، ما لبث أن فارق مكانه خلف النافذة واختفى إلى الداخل، وتساءلت في عجب: أيكون عمر هو هذا الضابط الذي لمحته خلف النافذة! وأنه رآها دون أن تراه ومضى عنها دون أن يعرفها، ولكن بقيت صورتها عالقة بذهنه حتى الآن؟.. كادت أن تجيبه بصدق على السؤال الذي لابد سوف يدخلها في سلسلة من الشرح والتفسير، لكنها تذكرت نصائح الدكتور سرباح لها، بأنه طالما لم يسترد ذاكرته عن تلك الفترة، فإن من العبث تذكيره بها، لذا فقد أسرعت بإجابته قائلة: لا فلم أنتقل للسكن هنا إلا بعد انتهاء الحرب بوقت طويل ولكن لماذا تسأل؟

أجابها عمر وهو يحدق إلى بعيد كأنما ينظر في ماضيه، قائلاً: ذلك لأنك تذكرينني بامرأة رأيتها تبكي عند سور القلعة الخلفي، يوم أن كنت نزيلاً خلف أسوارها بعد الحرب..

إذن فقد كان عمر هو هذا الضابط الذي رآها من خلف أسوار القلعة، ولو أنها التفتت إليه أو أمعنت النظر فيه قبل أن يغلق النافذة لتبينته جيداً، ولرأته كما قد رآها، وربما تغيرت تبعاً لذلك الأحداث، لكنها تماسكت قبل أن تسأله قائلة: هل كنت تعرفها؟..

لا.. ولكنني ظننت نفسى كذلك.. أظنها تذكرني بواحدة عرفتها أثناء إصابتي في الحرب..

سألته جميلة وهى تتماسك وتحاول أن يبدو سؤالها بسيطاً عابراً: هل كانت أصابتك خطيرة؟..

أجابها عمر قائلاً: لا أدرى.. كل ما أعرفه أنني فقدت الوعي عقب إصابتي في آفلو، وأفقت بعد ذلك بشهور فإذا أنا سليم معافي في تيارت، والتفسير الوحيد لذلك أنني فقدت ذاكرتي طوال تلك الشهور، فلما عادت ذاكرتي، نسيت كل ما كان لي أثناء تلك الفترة من ذكريات.. شيء مقلق جداً أن يجد الإنسان نفسه منقطع الصلة عن جزء من ماضيه لا يعرف عنه شيئاً، سوى صور باهتة قديمة لا تكاد تفصح بذاتها عن شيء..

سألته جميلة كأنما قد جاء سؤالها عفواً أو بلا تفكير قائلة: لعلك تذكر لي بعضاً من تلك الأحداث التي ما فتئت تراودك عن تلك الفترة؟!

أجابها عمر وهو يطلق ببصره إلى بعيد قائلاً: أنها مزارع وجبال ونهر صغير، وأسد ينبح.. كثيراً ما أراه ممسكاً بسيف الحق البتار.. يضربني به بلا شفقة أو رحمة.. يشبه كثيراً ذلك الأسد المرسوم على هذا الخاتم..

كور عمر قبضته ودفعها في اتجاه جميلة ليريها الخاتم الملتف حول إصبعه، حتى كاد أن يلكمها، مما جعلها تجفل وترتد لا شعوريا إلى الوراء، وهى ما فتئت تخفي يدها المزينة بالخاتم الشبيه أسفل

المائدة.. لكن عمر ما لبث أن تمتم من خلال عبارات اعتذار قائلاً: أترين هذا الخاتم؟ لقد وجدته حول إصبعي عشية عودة الذاكرة إلي، فهل بإمكانك التعرف عليه؟ أو ربما رأيت شبيها له من قبل يمكن أن يدلني على معناه أو من أين جاء؟..

أشاحت جميلة بعيدا عن عمر وهى تهز كتفيها علامة عدم المعرفة، إجابته قائلة: أنا لست أعلم شيئا عن هذا الخاتم، فلم يسبق لي أن رأيت شبيهاً له من قبل..

تساءل عمر وقد اكتسى وجهه بالأسى قائلاً: تُرى ما الذي حدث لي في ذلك الماضي المجهول؟ ولماذا أراني غير قادر على تذكر ما حدث لي فيه؟..

ذكرت جميلة نفسها بأن له زوجة وحياة أخرى ومستقبل مازال ينتظره في بلاده، قبل أن تجيبه قائلة: إن عقلك الباطن أكثر حكمة منك.. فلابد أن هناك أشياء حدثت في تلك الفترة لا يريدك أن تتذكرها، لأنه لا ينبغي لك ذلك..

فكر عمر قليلاً قبل أن يجيبها قائلاً: أن هذا مما يزيد من قلقي ومعاناتي.. إحساسي بأن هذا الماضي يمكن أن يكون خطيراً أو بالغ التعقيد، أو أنني أسأت لنفسي أو للآخرين فيه بما لا مجال بعده لإصلاح..

مثلت أمام عيني جميلة حياته الحالية التي يقودها بنجاح بعيداً عن حياته الجافة التي قضاها معها في الجبال، قبل أن تجيبه بشجاعة قائلة: أحيانا ما يكون من الأفضل للماضي أن يبقى مدفوناً حيث هو، فلن ينتج من إعادة نبشه سوى الآلام.. فعلى سبيل المثال، أنا فقدت زوجي السابق أبو طفلتي أمل في الحرب، ولقد عانيت كثيرا حتى نسيته، لذا فكم تكون إعادة الذكرى مؤلمة.. وكم يكون سحق اليقظة مريعاً.

أجابها عمر وعلى فمه ابتسامة مستخفة قائلاً: شكراً على النصيحة، ولكنني مع ذلك لن أعمل بها، وسوف أستمر أبحث حتى أعلم على وجه التحديد ما قد كان لي في تلك الشهور المفقودة من أحداث..

* * *

بعد عودتهما إلى المستشفى، كانت أمل في حالة جيدة بعد أن أفاقت من المخدر، وبرغم ضعفها إلا أنها حيت أمها وعمر من بعيد تحية واهنة متضمنة تبادل القبلات الطائرة في الهواء تعبيراً عن الروابط الغريزية فيما بينهم، وفي جانب من الحجرة كان هناك سرير آخر قد أعد لجميلة لتبيت معها الأيام القادمة ريثما تتماثل أمل للشفاء، فيغادران المستشفى معا.

بعد قليل إنضم إليهما سحنون وزوجته آمنة وبرفقتهما غسان حيث اطمأنوا على حالة أمل واجتيازها لمرحلة الخطر بسلام..

كان غسان يتصرف بإزاء جميلة وأسرتها تصرف الرجل المسئول صاحب السلطة والامتياز، ولقد كانت شهامته واضحة ورجولته بادية مما جعل عمر يعجب به بالرغم من غيرته لتواجده في حياة جميلة وأسرتها، فلقد كان واضحاً جلياً بأن غسان يحتل مكانة مرموقة بين أفراد العائلة، خاصة جميلة التي كان يعاملها بألفة ويصاحبها بود في غدواتها وروحاتها، مع نظراته الوالهة تجاهها دليل على علاقة الحب بينهما، لذا فقد آثر عمر التراجع عن أمانيه في حب جميلة، خاصة وأنها لم تحاول أن تنفي علاقتها بغسان، بل تركته يعبر عن شعوره نحوها بتلقائية على مرأى ومسمع من عمر، في رسالة واضحة إليه تبلغه بوجود شخص آخر غيره في حياتها، سبق أن ارتبطت معه بعلاقة عاطفية تبشر بنهايتها السعيدة، كل هذا كانت قد أرادته جميلة وسمحت به، فربما فيه الحل الأمثل لعلاقتها بعمر فيفترقان كل إلى عالمه البعيد، يستكملان طريقيهما المرسومين من قبل في سلام، دون أن تترك في نفسه أمل في حبها أو رجاء بلقاء جديد..

في الأصيل.. كان فراق عمر لجميلة في عودته إلى رفاقه في وهران، وقبل أن يغادر المكان، ألتفت خلفه ليرى جميلة تودعه وهى ترمقه بنظرة عميقة وعلى شفتيها ابتسامة باهتة .. ولجزء من الثانية.. ومضت في خياله صورة أخرى باهتة لامرأة أخرى شبيهة، رآها تودعه

بنفس النظرة والابتسامة وهي تلوح له بيدها وبينهما مجرى نهر عميق.. لكن سرعان ما غامت ذاكرته وهو يتخبط في دهاليز المستشفى يبحث عن باب الخروج، وهو يحاول إجهاد عقله ليتذكر تلك المرأة الأخرى التي شعر بأن لها دوراً هاماً في حياته السابقة، لكن عبثاً ذهبت محاولاته وهو يشعر بأن هناك حاجزاً صلباً ما فتئ "يمنع عنه الرؤية".. فبدأ في هرولته في الدهاليز أشبه بمن يتخبط في الظلام الكثيف..

قبل أن يخرج من المستشفى تذكر أنه كان يعمل بها دكتور يدعى سرباح، أشرف على علاجه أثناء فقدانه للذاكرة، ولقد كان لتقريره الذي كتبه عن حالته الفضل في إثبات براءته من تهمة الهروب من الخدمة العسكرية فأطلق سراحه ورد له اعتباره.. وربما بحكم أشرافه على علاجه يكون على علم بماضيه أثناء الشهور الغامضة من حياته، فيساعده على تذكرها أو يدله على أحد يمكنه أن يساعده على ذلك..

توجه عمر إلى إدارة المستشفى للسؤال عن الدكتور سرباح، وكم كانت خيبة أمله قوية حينما علم بأنه تقاعد عن الخدمة وترك عمله بالمستشفى ولاذ بقريته الكائنة بزمام مدينة فرندة التي تبعد عن تيارت قرابة الخمسين كيلومتراً.. كان قد أعطى تعليماته لسائق سيارته بالتوجه إليها على الفور حيث وصلها قبل الغروب والشمس تلون المرئيات بلونها الذهبي الجميل، وبعد البحث والسؤال توصل إلى منزل الدكتور سرباح الريفي الذي تقاعد فيه، ولم يكن متواجداً به، بل كان مشغولاً بممارسة هوايته المفضلة في صيد الأسماك على شاطئ النهر القريب،

لذا فقد فضل عمر التوجه إلى مكانه سيراً على الأقدام، لعدم صلاحية الطريق لسير السيارات وحتى لا يلفت لقدومه الأنظار..

كان الدكتور سرباح يقف مرتدياً ملابسه الوطنية المكونة من الجلابة السميكة المصنوعة من وبر الأغنام ذات غطاء الرأس السميك، وبيده أدوات صيده، بالقرب من مجرى النهر العميق الذي تدفقت مياهه في هدير صاخب، وهو ما فتئ يجذب سنارته المحملة بالأسماك الكبيرة.. خُيل لعمر أن المكان مألوف لديه، أو أنه يشبه مكاناً من ماضيه طالما وقف عنده وأصطاد من مياهه الصيد الوفير..

في اقترابه من مكان الدكتور سرباح، عرفه الأخير على الفور برغم تغير هيأته عن آخر مرة رآه فيها، فلقد استرد جسده النحيل عافيته، وإكتسى وجهه بإمارات الجد والوقار، ومع ذلك فقد التزم الدكتور سرباح جانب الحذر وركن إلى الصمت، إلى أن أقترب عمر من مكانه، ثم وقف إلى جواره برهة في صمت يرقبه في صيده للأسماك، قبل أن يبادر الدكتور سرباح بالكلام قائلاً: صيد جيد.. والأسماك على ما يبدو كبيرة وافرة ..

أجابه الدكتور سرباح من خلال ضحكته الهاشة المرحبة قائلاً: مرحباً بالمنافسين.. فالسمك الذي في النهر يكفي الجميع..

= دكتور سرباح!؟.. أليس كذلك؟..

نظر الدكتور سرباح نحو عمر كأنما يتفقده للمرة الأولى قبل أن يجيبه قائلاً: نعم.. فما هي الخدمة التي يمكنني أن أؤديها لك؟..

= ألا تذكر أنك رأيتني من قبل؟..

تشاغل الدكتور سرباح بالنظر إليه تارة وإلى أدوات صيده تارة أخرى قبل أن يجيبه قائلا: يحتمل.. فمهمتي كطبيب جعلتني أقابل الكثيرين..

أجابه عمر قائلاً: لقد كنت أُعالج تحت إشرافك أثناء الحرب من حالة فقدان الذاكرة.

تأمله الدكتور سرباح برهة قبل أن يجيبه مستدركاً: أوه.. لقد تذكرتك الآن، فأنت الجريح المصري الذي حوكم بتهمة الهرب من الجيش، بينما كنت في حقيقة الأمر فاقداً للذاكرة، نعم.. نعم.. أنت بلا شك هو، لشد ما غيرتك السنين عن آخر مرة رأيتك فيها، لكنني مسرور أن أجدك بصحة جيدة، أفضل بكثير مما كنت عليه حينذاك، كيف حالك الآن؟! أعدت إلى الجزائر في عمل؟..

أجابه عمر وهو يتصنع الأهمية قائلاً: الحق أنني جئت ضمن وفد مصري لتفقد الصناعة هنا..

ضحك الدكتور سرباح ضحكته الصافية، قبل أن يجيب عمر قائلاً: أراك قد ابتعدت كثيرا عن مراكز الصناعة في البلاد بمجيئك إلى تلك القرية البعيدة الخالية من الصناعات..

أجابه عمر موضحاً: ليس تماما.. فمهمتي الأساسية هنا هي لتفقد مراكز إنتاج القمح في الجزائر، ولقد أبلغت بأن "فرندة" ذات محصول وافر من القمح..

أجابه الدكتور سرباح وهو يؤمن على كلامه قائلاً: في هذا أنت محق، فإن "فرندة" لهي من أخصب مناطق زراعة القمح في الغرب الجزائري كله، ولكن لماذا اهتمامك بالقمح بالذات؟!

أجابه عمر قائلاً: إنني أمثل شركة "أولاد حمدان" المصرية المكلفة بالتعاون مع الجزائر في بناء صوامع الغلال الحديثة لتخزينها استعداداً للتصدير..

أجابه الدكتور سرباح وهو يلقي بسنارته إلى أبعد عمق في الماء قائلاً: شركة أولاد حمدان!؟.. أليست هي الشركة التي يملكها أبوك "هاشم حمدان" رجل الصناعة المصري المشهور؟..

سأله "عمر" في استطلاع قائلا: أوكنت تعرفه؟!..

أجابه الدكتور سرباح ببساطة قائلاً: لقد تشرفت بمعرفته مرة أثناء حضوره إلى الجزائر ضمن وفد صناعة مصري منذ عدة سنوات، وعلى ما أذكر فهو رجل طيب دمث الأخلاق، أرجوك أن تبلغه سلامي في لقائك معه.

أجابه عمر: سأفعل، ولكن أيمكنني السؤال عن مناسبة لقائك معه؟.

تفرسه الدكتور سرباح ملياً قبل أن يجيبه قائلاً: ذاك تاريخ قديم من الصعب تذكره.. أظن أنه كان هنا بمناسبة بحثه عن أدلة تبرئك من تهمة الهروب من الخدمة العسكرية، ولقد أفدته بما في علمي وزودته بتقريري الطبي عن حالتك..

ساد الصمت الحذر بينهما فترة من الوقت قبل أن يبادر عمر الدكتور سرباح قائلاً: دكتور سرباح.. الواقع أنني قد حضرت إلى هنا بدافع شخصي لكى أزورك، فربما وجدت لديك الإجابة على بعض الأسئلة!!..

أطلق الدكتور سرباح نحو عمر نظرة طويلة مختلسة قبل أن يجيبه قائلاً: ماذا تريد أن تعرف على وجه التحديد؟..

أجابه عمر : أي شيء يمكن أن يساعدني على تذكر الفترة التي أمضيتها تحت العلاج فاقداً للذاكرة..

أجابه الدكتور سرباح قائلاً: لقد تقدمت كثيراً في السن كما ترى، ولم تعد ذاكرتي كما كانت في الماضي، فضلاً عن أنني كنت ألتقي كل يوم بالعشرات من أمثالك، لذا فلن تجد لدي الكثير..

عمر: على الأُقل أريد أن أعرف منك كيف كانت إصابتي على وجه التحديد؟..

سرباح : الحق أنني لم أتول الأشراف على علاجك إلا بعد أن كان غيرى قد قام بالدور الأكبر في شفائك من جروحك.. لكنني

أشرفت على علاج المرحلة الأخيرة من مرضك بمناسبة فقدانك للنطق والذاكرة، وكان دوري قاصراً على إعطاء النصح والتوجيهات، بينما تولى الآخرون القيام بكل العمل بدقة ومهارة، مما كان له الفضل في شفائك وعودتك لحياتك الطبيعية كما أرى..

سأله عمر باهتمام قائلاً: فمن هم أولئك الذين أشرفوا على علاجي غيرك؟..

أجابه الدكتور سرباح قائلاً: هذا مالم أعد أذكره، وربما تجد تفاصيل أكثر بمستشفى آفلو.

سأله عمر: لقد ذكرت التقارير أنني كنت أثناء إصابتي تحت رعاية أسرة جزائرية كريمة رفضت الإفصاح عن نفسها، فهل يمكنك أن تدلني على تلك الأسرة، على الأقل لكي أشكرهم على عنايتهم بي ومعروفهم معي..

أجابه الدكتور سرباح بسرعة قائلاً: أن تقريري عن حالتك لم يشر لوجود مثل تلك الأسرة، لذا فلا تتوقع منى أن أعطيك تفاصيل عنها..

أجابه عمر قائلاً: أليس عجيباً أن تتذكر بعد كل تلك السنين تفاصيل ما جاء بتقريرك عني، بينما تدعي ضعف الذاكرة ونسيان الكثير!!.

رمقه الدكتور سرباح بنظرة عميقة فاحصة قبل أن يجيبه قائلاً: أراك فتى نابغاً لا ينقصك الذكاء أيضاً.. ولكنني كطبيب أقول لك: أنك

أخطأت طريقك في البحث عن ماضيك هنا.. لذا فعليك أن تتبع طريقاً آخر للبحث..

سأله عمر قائلاً: أيمكنك أن تقترح علي طريقاً آخر أبدأ منه؟..

أجابه الدكتور سرباح: عليك أن تبحث في داخلك، فأي طريق آخر بخلاف ذلك سيكون بلا جدوى عديم الفائدة..

أجابه عمر من خلال حيرته قائلاً: لقد أجهدت نفسي في البحث داخل عقلي، فلم أجد سوى صوراً قديمة باهتة لا تدل على شيء..

عاجله الدكتور سرباح قائلاً: فعليك أن تتبع تلك الصور .. فسوف تقودك إلي ما تبحث عنه!!

أجابه عمر في يأسه قائلاً: أشكرك علي النصيحة، وأشكرك كذلك على إهتمامك بي ورعايتي أثناء مرضي في الجبال، و ليجزيك الله خيراً عما أسديته لي من فضل وجميل.

أجابه الدكتور سرباح بتواضع: أنني لم أقم إلا بواجبي الذي يحتمه علي عملي في رعاية المرضى والمصابين.. وعلى كل فإنني أراك الآن في حالة جيدة، وربما تود قضاء بعض الوقت في ضيافتنا لنشترك سوياً في صيد الأسماك..

شكره عمر على دعوته، واعتذر عن قبول ضيافته قائلاً: الواقع أن وقتي ضيق ولا يسمح لي بالبقاء، فعلي أن ألحق بموعد هام في وهران، لكنني ربما أفكر في قبول دعوتك في وقت لاحق..

أجابه الدكتور سرباح وهو يومئ له قائلاً: أن السمك في انتظارك.. وفي أي وقت تحضر فيه ستجدني هنا..

اقترب عمر من الدكتور سرباح كأنما يهم بمصافحته في وداعه له، لكنه بسط أمامه يده فجأة وهو يريه الخاتم في إصبعه قبل أن يسأله قائلاً: هل لك معرفة بهذا الخاتم، أو ما الذي يعنيه النقش المرسوم عليه على وجه التحديد؟!.

تأمل الدكتور سرباح الخاتم الفضي ملياً، قبل أن يجيب عمر وهو يعلو برأسه قائلاً: أنه شعار حاكمنا المبجل الأمير عبدالقادر، ولقد حمله قبلك سلالة متصلة من النبلاء حتى انتهى أمره إليك..

تابع عمر سؤاله قائلاً: لقد وجدته ملتفاً حول إصبعي عشية استعادتي لذاكرتي المفقودة، فهل تعلم شيئا عمن أوصله إلي أو من أين جاء؟!..

أشاح عنه الدكتور سرباح وهو يتابع صيده قائلاً: عليك وحدك أن تبحث في داخلك عن إجابة هذا السؤال!..

شكره عمر على حفاوته وحسن استقباله، ثم ودعه وانصرف بسيارته متوجهاً إلى وهران للحاق بزملائه هناك..

والسيارة تنهب الطريق الجبلي الموصل إلى وهران، والليل يزحف ليغطي الكائنات بردائه الأسود الثقيل، ألقى عمر برأسه على وسادة السيارة خلفه في محاولة لتجميع أفكاره وبحث نتائج الرحلة التي قام بها

إلى تيارت، تلك المدينة الغامضة التي شهدت فترة الحرب الجزائرية بكل ضراوتها، وكانت له فيها قصة بطولة ومرض ونضال، ومن يدرى!.. فربما قصة حب لامرأة مجهولة ما فتئت تراوده في خياله وهى تبتسم له مودعة بالقرب من مجرى نهر عميق.. ولكم عاش على أمل أن يقوم بزيارة تيارت ليعرف ما خفي، لكنه عاد وهو أشد حيرة مما ذهب، فهو مازال يجهل من ماضيه بها كل شيء، بل أنه كثيراً ما تخيل بأن هناك محاولة متعمدة من كل من سألهم أو تخيل أن لهم صلة بماضيه، وأنهم قد أجمعوا رأيهم وعقدوا العزم على أن يبقى هذا الماضي سراً مغلقاً عليه لا يود أحد أن يخبره بشيء عنه، فها هي ذي جميلة التي ظنها تشبه كثيراً المرأة التي كانت تبكي على سور القلعة يوم التحاقه بها، والتي أشبهت كثيراً سوزي التي ظن أنه يعرفها من ماضيه، والتي أشبهت عليه تلك المرأة التي رآها بخياله تلوح له مودعة عند النهر.. ها هي ذي جميلة التي تمثل له خيطاً قوياً يصله بماضيه، ها هي ذي تطلب منه نسيان هذا الماضي والنظر إلى مستقبله، فلن يجد في نبش ماضيه سوى الألم.. كأنما هي على علم دونه بشيء ما في ذلك الماضي لا تريده أن يعرفه شفقة عليه..

بل ها هو ذا الدكتور سرباح، المفروض أنه أشرف على علاجه أثناء مرضه وأصابته وفقدانه للنطق والذاكرة، ويكون لذلك قد علم من ماضيه الكثير.. ها هو ذا يتهرب من إجابته على أسئلته عن هذا الماضي بحجة نسيانه، ويطلب منه الاتجاه في بحثه عنه إتجاهاً آخر،

داخل نفسه التي تعصاه هي الأخرى ولا تريد أن تفصح له عما دار بماضيه المفقود من أحداث.. وتساءل كثيراً عن كنه تلك الأحداث التي لا تريد أن تفصح عن نفسها، ولا يريد الآخرون الإفصاح عنها، أتكون مزعجة لهذا الحد، أو يكون عقله الباطن – كما قالت جميلة – أكثر حكمة منه، فحجبها عنه حتى يجنبه المزيد من الآلام التي تنتج من ذكراها، لكنه في النهاية "محارب" تعرض للموت أكثر من مرة دون أن يهاب الأخطار، فهل يهاب تلك الذكريات مهما كانت مؤلمة!!.. لذا فسوف يظل يحارب ويناضل ليعرف ماضيه مهما كان من أمره، فقط عليه أن يناضل الآن وحده بالاعتماد على نفسه، وأن يتبع كل الخيوط التي لابد سوف تقوده لكشف هذا الغموض، وأولها وأهمها جميلة، التي يشعر شعوراً يكاد أن يصل إلى حد اليقين بأن لها دخلاً في ماضيه المفقود..

جميلة!.. أتراها تعلم شيئا عن ماضيه!؟، أم أنه فقط يعلل نفسه بذلك ليكون دوماً على مقربة منها؟.. أتراه قد وقع في غرامها ولذلك يحاول تلمس الأعذار ليكون منها على مقربة؟!.. لكنه سرعان ما استبعد ذلك الخاطر، فهو لا ينكر أنها جميلة وفاتنة ورقيقة يسهل الوقوع في غرامها، لكنه يشعر بأن ما يربطه بها أعمق من ذلك بكثير، شيء ما في قوة الكفاح المسلح يمكن أن يموت من أجله الإنسان وهو راض سعيد.. أما الحب فهو شيء زائد يتمتع به المنعمون والمترفون، وهو لا يمكن أن يدعي لنفسه الحق في مثل ذلك الترف أو النعيم

المقيم.. خاصة بعد ما رأى من علاقتها بغسان، والذي يبدو من علاقتهما معاً أنهما مرتبطان برباط عاطفي وثيق يجمع بينهما كمقدمة لزواج سعيد، فضلاً عن كونه هو نفسه متزوج بوفاء التي برغم خلافاتهما المتكررة لا يفكر في تركها أو الارتباط بسواها.. لذا فإن كل ما يربطه بجميلة أو يشده إليها هو إحساسه بأنه يعرفها من ماضيه، وأنها يمكن أن تساعده على التذكر أو معرفة ما قد كان له فيه من أحداث، وهو في هذا أيضاً وبعد ما رآه منها من نكران قد يكون مخطئاً وأن ما تخيله عنها مجرد أوهام، وفي هذه الحالة عليه أن يبتعد عنها ويقطع كل صلاته بها فيدعها مع أسرتها ومحبيها تعيش بينهم في سلام.

لكنه على أي الحالات.. وحتى يمكنه التعرف على هذا الماضي وتتبع خطواته فيه فلابد له أن يبقى قريباً منه، يلزمه بعض الوقت ليبقى هنا، لذا فربما أمكنه التخلف بالجزائر عقب سفر الوفد الذي جاء معه، والبحث عن عذر أو وسيلة تبرر هذا التخلف دون أن يثير حوله الشبهات، خاصة شبهات وفاء التي لم تنس له مغامرته العاطفية السابقة مع سوزي، وما فتئت تذكره وتجرح أحاسيسه بها، بل أنها تحولت بعدها إلى امرأة متسلطة كثيرة الشك والغيرة، لا تأمن تركه مع غيرها من النساء خاصة إذا كن جميلات شقراوات مثل جميلة.

* * *

وصل عمر آخر الأمر إلى وهران في وقت مناسب قبل أن ينهي الوفد أشغاله بها، فأدرك من أمره ما فاته، وعاد الجميع سوياً إلى العاصمة الجزائرية التي وصلوها قبيل عودة الزوجات من رحلتهن إلى فرنسا، لذا فقد بادر الأزواج باستقبال زوجاتهن اللاتي بدت عليهن إمارات السعادة وهن يقفزن من الطائرة خفيفات فرحات مثقلات بما تحملن به من باريس عاصمة الأضواء والعطور والملبوسات.. وسرعان ما انفض الجمع وقد اختلى كل أليف بأليفه، واحتوتهم غرف الفندق الكبير يقضون به ليلتهم، تمهيداً لسفرهم في اليوم التالي لعودتهم إلى القاهرة، بعد أن أدى كل مهمته التي أتى من أجلها.. إلا عمر الذي بات مُسهداً يفكر في مشكلته التي بلا حل.. ماضيه المظلم الذي لا يريد أن ينجلي، ذاكرته التي تعصاه.. نهر.. جبل.. وأسد ينبح.. يحمل بيمينه سيفه المسلول، كلما أراد أن ينام، أيقظه بضربة قوية من سيف الحق البتار..

بات عمر في فراشه مُسهداً، لم يكد يغمض له جفن.. ينقب في ذاكرته المشوشة عن ماضيه المفقود، يبتهل إلى الله العلي القدير بأن يزيل حجب الظلام عن عقله ليعلم ما قد خفي عليه.. يا رب هذه المرة فقط.. ولتكن الأخيرة، أنر بصيرتي، بحق كل الأعمال الصالحة التي أكون قد عملتها.. هاأنذا لائذاً بك تائباً إليك عن ذنوبي.. أسألك العفو عنها والمغفرة فأنت غافر الذنوب.. وسأحاول بكل ما أوتيت من جهد أن أحسن للآخرين خاصة زوجتي وفاء، فسوف أخلص لها وأوفيها

حقوقها كاملة.. حتى تلك المرأة الجزائرية الجميلة.. التي فتنتني بغموضها وشدتني إليها بسحرها، سوف أبتعد عنها وأنساها، فقط لا تجعل تلك الفرصة تفلت من يدي فأعود من الجزائر دون أن أعرف سري الذي خفي بها، والذي أشعر بأن الجميع يحاولون بإصرار حجبه عني بلا سبب معلوم..

هكذا استغرق عمر في صلواته الخاشعة وابتهالاته الخفية.. إلى أن أتى الصباح ومعه الحل الذي بدا أن السماء وقد استجابت لدعائه.. قد أرسلته إليه من بعيد، ليعلل به بقاءه بالجزائر، وليعطيه الفرصة لمتابعة البحث عن ماضيه المفقود..

الفصل السابع

حكم الأقدار

في دخول عمر إلى بهو الفندق صباح اليوم التالي، وجد في انتظاره برقية قدمت إليه من والده في مصر، يطلب منه أن يتولى أمر إنشاء الفرع الجديد لشركة "أولاد حمدان" في الجزائر، بعد أن وافقت سلطات البلدين على ذلك، وأن له أن يتخذ كل الخطوات التنفيذية والإجراءات اللازمة لقيامه بدوره في الصناعة والتجارة، خاصة جمع القمح وتصديره إلى مصر، في مقابل ما تصدره مصر إلى الجزائر من منتجات تلزمها، في إطار التعاون المشترك بين البلدين..

استقبل عمر الأمر الصادر إليه بمزيد من الغبطة والارتياح، فلقد جاء في وقته تماماً، استجابة لدعواته وتحقيقاً لآماله في إماطة اللثام عن ماضيه.. وعليه في نفس الوقت أن يودع أحلامه الطائشة التي ما لبثت تشده إلى جميلة دون مسوغ أو مبرر معقول، خاصةً وبعد أن بات واضحاً بأنها قد اختارت طريقها بجوار غسان، بعيداً عن مشاكله، واقترابه منها لن يزيد حياته إلا تعقيداً هو في غنى عنها، لذا فعليه أن يلتفت إلى مستقبله بجوار وفاء، فهو الواقع الوحيد الملموس أمامه الذي يمكنه التشبث به حتى يحميه من التوهان، برغم أنه ليس ما يحلم به ويتمناه.. إلا أنه بالإمكان تعديل مساره وإصلاحه بقليل من الصبر والمثابرة والكفاح، لذا فقد طلب من وفاء بأن تشاركه حياته الجديدة بالجزائر بعيداً عن أخطاء الماضي وحماقاته، فيتكاتفان سوياً لبناء فرع

شركة "أولاد حمدان" بالجزائر، ولإعادة بناء ما سبق أن تهدم من حياتهما الزوجية..

راقت الفكرة لوفاء، وهى ترى في عمر شخصاً آخر جم النشاط مشحوذ الإرادة مصمماً على اجتياز العقبات وتجاوز أخطاء الماضي بروح مشبعة بالمحبة مفعمة بالحنان، حتى لقد أنستها أحزان الماضي وحماقاته.. ولعل فيها الحلول لمشاكلها وأخطائها السابقة.. وعلى كل فالجزائر ليست سيئة، بل أن مناخها أفضل من اليمن بكثير، فضلا عن قربها الشديد من أوروبا مما سيعطيها الفرصة للقفز منها إلى الشمال لقضاء عطلاتها هناك، لذا فقد قبلت العرض، وتحمست للوقوف بجوار عمر في شق طريقه الجديد ممثلاً لشركات "حمدان" بالجزائر، التي أنشئ فرعها بالعاصمة الجزائرية على أحدث طراز، وضم إليه الكثير من المعاونين المخلصين الذين آمنوا بسمو غايته في التقريب بين البلدين، فسعوا جاهدين لإنجاحه وبسط نفوذه إلى أقصى أنحاء البلاد..

في حي "الحيدرة" أفخم أحياء العاصمة الجزائرية، أثثت وفاء مسكنها الجديد الذي أقامت فيه مع عمر، وزودته بأجمل التحف وأفخم الرياش، لذا فسرعان ما تحول إلى منتدى ثقافي واجتماعي، كثيراً ما ضم إليه النخبة الممتازة من رجال الصناعة والمال الجزائريين والأجانب المقيمين بها، وكثيراً ما امتدت اللقاءات حتى الساعات المتأخرة من الليل، حيث عقدت الصفقات وتكونت الشركات، وأقيمت على شرفهم

الولائم والحفلات.. حتى لقد أوشكت حياتهما أن تنجو من الهلاك الذي كاد أن يودي بهما غرقا في بحر خلافاتهما القديمة..

لكن الخطر كان هناك دائماً، متمثلاً في تلك اللحظة من الثانية التي تشبه حد السكين الكامنة في وفاء، التي يمكن أن تجعلها تثور بلا سبب أو لأتفه الأسباب، فتكتسح في ثورتها المدمرة كل الحواجز وتحطم كل السدود، وتقطع كل الروابط والخيوط التي حاول عمر أكثر من مرة إمدادها لإنقاذ سفينة زواجهما من الغرق.. كانت وفاء دائمة المقارنة بينه وبين أقرانه من المعارف والأصدقاء الذين ركبوا أحداث الثورة في مصر، والتي كانت تمر في منتصف الستينات بأحداث صعبة، جعلت فئة من كبار الموظفين يحكمونها ويكونون ما عرف في تاريخ مصر باسم "طبقة أصحاب النفوذ" أو "مراكز القوى"، ومن ألمعهم ضابط مخابراتها "حازم" الذي لم تنسه قط، برغم ابتعادها عنه، إلا أنها ظلت تفكر فيه طوال الوقت، وهي ما فتئت تُسائل نفسها عما إذا كانت قد ربحت أو خسرت بتركها إياه واللجوء إلى كنف عمر؟! لذا فكثيراً ما عقدت في خيالها المقارنات بين الرجلين لتتبين أيهما قد حقق النجاح الأكبر، وأيهما يبشر مستقبله بالخير الموعود..

* * *

أما حازم فقد كان ركوبه للموجة قوياً مدروساً محكم التدبير والتخطيط.. فعمله بالمخابرات جعله يعلم من أسرار الآخرين ما يمكنه من التأثير عليهم وتحريكهم لخدمة طموحاته وأغراضه.. لذا فسرعان ما

أحتل مركزه المرموق في معية "عبد الناصر".. خاصة وقد ازدادت شعبية "ناصر" داخل مصر وخارجها بفضل دأبه على مناوأة المستعمر والرجعية في العالم أجمع.. وأصبحت لذلك كلمته – في داخل مصر – من شدة مهابته هي القانون، لا يجرؤ أحد أن يناقشها أو يراجعه فيها، وربما عمل عبد الناصر نفسه على سحق منافسيه أو إخماد صوت الرأي الآخر، حينما كان هذا الصوت الآخر يدعو لعودة الحكم الملكي البائد أو ممالأة الاستعمار البغيض، أو سلب العمال والفلاحين من مكاسبهم الثورية، لذا فلم يكن يود أحد أن يسمع هذا الصوت الآخر أو يريد له الانطلاق.. إلا أن الأمر اختلف مع أعضاء الثورة أنفسهم، إذ سرعان ما اختلفوا على السلطة، وبالطبع فقد فاز أقواهم وأكثرهم بطشا وجمعا للأعوان والمحاسيب، وبدأ كل منهم يؤمن مركز قوته بالمزيد من المتحالفين معه، ولو أبعده ذلك عن الأهداف الأساسية للثورة أو كان من شأنه تقديم بعض التنازلات، إلى أن تكونت جبهتان قويتان تنازعتا حكم البلاد.. جبهة عسكرية بقيادة قائد الجيش "المشير عبدالحكيم عامر"، الذي وزع الرتب وأغدق النياشين على ضباطه، وأمَن وجوده بينهم بجهاز مخابرات عسكرية قوي، تدخل في كل كبيرة وصغيرة داخل البلاد.. أما الجبهة الأخرى فهي سياسية صنعتها الكلام بقيادة علي صبري، الأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي الذي تغلغل إلى كل القرى والنجوع وجمع حوله الأعوان والأنصار، وأنشأ له قاعدة شبابية ضخمة تسانده أطلق عليها "منظمة الشباب"، شُحنت بالكراهية والحقد الطبقي نحو فئات من الشعب كلفوا بمراقبتهم وتزويد القيادة السياسية

بتقارير عنهم، بحجة حماية مكاسب الثورة وتأمين خلفيتها.. ونتيجة لهذا الصراع الشرس بين الطبقات الحاكمة فقد توزعت السلطة وتعددت الرئاسات وتضاربت القرارات، وتنافس كل طرف في فرض إرادته بالقوة دون النظر للأنسب والملائم، لذا فقد خفتت الكثير من الأصوات الشريفة التي حاولت التنبيه إلى فداحة الكارثة القادمة على الأبواب، والتي تحققت بعد ذلك بنكسة 1967، نتيجة للغفلة وسوء التدبير..

في هذا الوقت العصيب المتسم بالصراع على السلطة والتنافس على اقتسام الأسلاب، استطاعت فئات من أصحاب السلطة والمجد القديم، ممن نحاهم حكم عبدالناصر عن حكم البلاد في بداية الثورة.. استطاعوا العودة مرة أخرى إلى الحكم والتسلل إلى حيث مناطق النفوذ الجديدة.. ولقد عادوا إلى الثورة بعد أن كانوا قد استوعبوا درسها وخبروا ثغراتها وهناتها، فركبوا الموجة الجديدة، مرددين لشعاراتها العالية التي أصبحت بمثابة "جواز المرور" لكل من يرفعها دون البحث في هويته الأصلية أو ماذا يحمل أو من أين جاء.. على رأس هؤلاء المتسللين كان "منصور باشا فهمي" والد وفاء، وأحد أعمدة الحكم الملكي السابق الذين أقصاهم حكم عبدالناصر، لكنه عرف كيف ينفذ إلى الجبهة السياسية الجديدة، من خلال شعاراتها الرنانة التي ما فتئت تتكلم عن وجود فراغ سياسي بين طبقات الشعب، لابد للثورة أن تنفذ إليه فتستقطب أفراده لتجعل منهم صفاً واحداً قوياً يؤازر مسيرتها ويحمى عمقها.. إلى آخر ذلك الكلام... الذي حفظه "منصور باشا فهمي"

وأتقنه، حتى استطاع أن يشق به طريقه الجديد بين قيادات الاتحاد الاشتراكي، التي أصبح البقاء فيها للأقوى، والمجد لمن يجيد الكلام.. وهل هناك أفضل وأقدر من "منصور فهمي" في إجادته للعبة الكلام!..

في هذا المناخ المضطرب المتلاطم بالأمواج، كانت وفاء ما تفتأ تقارن زوجها بالعديد من أقرانه وزملائه من ضباط الجيش السابقين الذين اعتزلوا مثله الحياة العسكرية وتولوا مقاليد السلطة في البلاد فأصبحوا من أنصار هذا أو ذاك، وأقربهم حازم الذي أصبح على رأس السلطة في جاه وعز مقيم.. بينما عمر لا يقل خبرة أو وطنية عنهم، فلماذا يستأثرون دونه بسلطة الحكم، خاصة وأن أبيها ما فتئ يتقدم بخطواته الوئيدة على رأس التنظيم السياسي المسيطر على حكم البلاد، وبإمكانه أن يستخدم نفوذه ليولي عمر أعلى المناصب والرتب.. لكن المشكلة قد كانت دائماً وأبداً في عمر نفسه، الذي لم يكن يفكر في أن يتولى سلطة رسمية في الدولة، بل وقف طموحه واقتصر دوره عند إدارته لإحدى الفروع البسيطة في شركات "أولاد حمدان" تلك التي تضخمت وتوسعت في شتى الدول العربية والأجنبية، وكان يمكنه بما له من خبرة ودراية وقرباً من مركز السلطة العليا التي يتولاها والده في إدارته للشركة.. كان يمكن لعمر والحال كذلك أن يتبوأ أعلى مراكز القيادة في الشركة فيصبح من أبرز العاملين في الصناعة والمال.. لكنه كان أبداً بعيداً عن إدراك المراد، ميالاً إلى الانطلاق في الربوع البعيدة،

هائماً مع الطيور فوق رُبى الجبال القاحلة، دون أن يكون هناك أمل في الهبوط إلى أرض الواقع، أو العودة إلى بيت القصيد..

أما عمر فقد كان ينظر إلى الأمور من منطلق بعيد.. يمتد إلى الفترة التي عاشها في الجبال بين مجاهدين بسطاء، كانوا على استعداد دائم للبذل والعطاء في سبيل الأهداف النبيلة، دون أن يفكر أحدهم في انتظار الجزاء.. بل أنهم مازالوا يأسرونه بالمعروف الذي أسدته إليه إحدى الأسر الجزائرية المجهولة التي أشرفت على علاج جروحه حتى تمام الشفاء، ورفضت حتى الإفصاح عن نفسها أو تقبل الشكر على الواجب الذي أدته نحوه، والذي كان يمكن لأى أسرة جزائرية أخرى أن تؤديه.. ومن هنا تعلم درس التعاون الأول المصطبغ بالعرق والدم والكفاح.. لذا فقد جاء دوره في خدمة أفراد الشعب البسطاء، استكمالاً لرسالته التي وهب نفسه لها، في بناء الصوامع وجمع القمح لإطعام الجائعين والفقراء، الالتحام بالفلاحين الكادحين لتوفير قوتهم وتصدير ما فاض عنهم، لاستبداله بما يحتاجونه من منتجات وأدوات الإنتاج.. ومن هنا فقد اتضحت خطته التي إنتهجها في عمله بفرع الشركة بالجزائر.. أن يقتصر دوره على البناء والتشييد، بينما يتولى الفلاحون العمل والإدارة والإنتاج..

* * *

في وداع جميلة لعمر عقب انصرافه الأخير من المستشفى.. أرادت أن تبكي، لكنها تجلدت وحبست دموعها لما بعد، فهناك لاشك

أيام مازالت تنتظرها سوداء قاتمة لا يمكن أن يسد فراغها أو يجلو سوادها سوى البكاء، فلكم هي الحياة قاسية أن تفرقها عن زوجها وحبيب قلبها عمر بعد أن وجدته مرة أخرى، وكان قريباً منها وملازماً لها ولابنتهما – كل تلك الأيام الماضية.. ها هما مرة أخرى يفترقان! لاشك هذه المرة فراقاً أبدياً لا رجعة فيه أو لقاء بعده.. فما الذي يمكن أن يجمعهما من جديد؟.. بل أن ظهوره الأخير في حياتها قد كان خطأً كبيراً، خاصة بعد أن كادت تنسى ذكرياتها معه، وأوشكت أن تتحرر من حبه الذي بلا أمل.. بل أنها كانت قد فكرت كثيراً بالارتباط والزواج من غسان، ذلك الذي أحبها ويكن لها في نفسه كل المعزة والإكبار.. فهي على كل حال لا يمكن أن تستمر هكذا، إذ لابد لها من زوج يرعاها ويرعى ابنتها أمل التي هي في أشد الحاجة إلى أب يشرف على تنشئتها وتربيتها، وغسان بمركزه المحترم وحبه لكليهما، هو الشخص المناسب الذي يمكن أن يوفر لهما الحب والأمان، ولقد كانت قبل ظهور عمر، على وشك أن تقبل عرض غسان المتكرر بالزواج منه، إلى أن كان لقاؤها الأخير الغير متوقع بعمر فانبعث حبه في قلبها وكيانها بكل شدة وضراوة مرة أخرى من جديد.. لذا فعليها الآن وأكثر من أي وقت مضى أن تقبل زواجها من غسان، ليس حباً فيه أو اشتهاء له! ولكن من باب اليأس، وكمحاولة لقطع خط الرجعة على نفسها وعلى عمر إذا ما فكر أحدهما في العودة للآخر مرة أخرى بعد الآن، خاصة بعد أن عاينت تلك الرغبة التي اشتعلت في عيني عمر كلما تلاقت عيونهما، الرجفة التي تنتابه كلما تلامست أيديهما، فكم هو

رائع ورقيق حتى ليسهل الوقوع في حبه مرات ومرات مهما كانت العقبات وفداحة التضحيات، لكأنما جسداهما وروحاهما متعارفان منذ الأزل وإلى الأبد.. لكن هناك الواجب الذي يأتي قبل الحب دائماً، ومن أجله يضحي الناس بحياتهم، فلا أقل من أن تضحي بنزواتها وآمالها في حب حبيبها، لتقنع بحياتها كما هي وكما قد كانت من قبل، ولتنس الماضي الذي لن ينتج من وراء نبشه سوى الأحزان..

بمجرد أن تماثلت أمل للشفاء، صحبتها جميلة في رحلة نقاهة واستجمام أمضياها سوياً بالمزرعة لدى أمها وأبيها، وسُرت لتجدهما برغم تقدمهما في السن، مازالا موفوري الصحة والنشاط وعودهما الصلب ما فتئ يتحمل العمل الشاق في الزراعة ورعاية الحيوانات، ولقد أمضت جميلة بصحبتهما – وكلبها الباشا – وقتاً مرحاً سعيداً، كانا في أشد الحاجة إليه ليغسل عنهما آثار المرض والأحزان، وليجدد نشاطهما لتقبل مرحلة أخرى جديدة من الحياة، صممت جميلة أن تجعلها مختلفة، ذات هدف واحد هو إسعاد أمل والحياة من أجلها.

في مرورها على آفلو، وجدت المزيد من الأنباء المفجعة في انتظارها هناك، فلقد وافت المنية والدها الروحي "الشريف بن أحمد"، بعد أن تدهورت صحته في الشهور الأخيرة، إلى أن لقى ربه شهيداً مبرراً، بعد أن قضى حياته مكافحاً في سبيل الله والوطن، ولقد كان الشريف بن أحمد بما جُبل عليه من ثبات على المبدأ وحب للخير وتباعد عن مجد الدنيا وزخرفها، هو الأب الروحي لكل سكان المنطقة،

لذا فقد كان حزنهم على فقدانه عميقاً وألمهم كبيراً.. كذلك كان حزن جميلة على وفاته، فقد كان لها بمثابة الوالد الحنون الذي نشأت في كنفه وعاشت سنوات طفولتها في قصره، لذا فقد اعتصر قلبها الأسى على رحيله، لكنها لم تلبث أن تأست عنه في حضرة الأميرة عائشة، التي طالما أمدتها شجاعتها جلداً في مواجهة الأخطار ومدداً للتغلب على الأحزان.. لذا فقد كانت الأميرة عائشة قوية صلبة في مواجهة مُصابها الأليم بفراق زوجها ورفيق دربها الشريف بن أحمد، بل أنها مازالت بجميلة تواسيها وتشجعها على التجلد والإحتمال..

كانت جميلة قد تمالكت نفسها حينما سألتها الأميرة عائشة عن أحوالها، حكت لها جميلة من أخبارها الشيء الذي طمأنها على أنها بخير، وافترقا وهى تزودها بالعديد من النصائح للعناية بنفسها وبأمل، وألا تتردد في اللجوء إليها إذا ما أعوزها ذلك، فشكرتها جميلة ووعدتها بالعمل بنصائحها.. في كل هذا حرصت جميلة على كتمان أمر عمر وما كان لها معه من لقاء جديد، هو بطبيعته محتوم بفراق أبدي لا رجعة فيه، خاصة وأنها في غير حاجة لنصائح الأميرة عائشة في هذا الأمر بالذات.. كفايتها نصيحتها التي أسدتها لنفسها ولعمر في لقائهما الأخير: "دع الماضي مدفوناً حيث هو، فلن ينتج من وراء نبشه سوى الأحزان".. وقد التزمت بالنصيحة وعملت بها بكل ما وسعها من عزم وإرادة وتصميم..

لحظة فراقها للأميرة عائشة بادرتها الأخيرة وهى تنظر إلى بعيد متسائلة: خبريني يا ابنتي.. ألم يرجع عمر بعد!؟..

أجابتها جميلة وهى تتشح برداء خروجها وتخفي وجهها بعيداً عنها – لتجيبها وهى صادقة – قائلة: ليس بعد يا أمي.. أنه مازال في عالمه البعيد لم يرجع إلينا بعد..

شيعتها الأميرة عائشة وهي لدى الباب قائلة: سيرجع يا ابنتي، إلى حيث ينبغي له أن يكون هنا، في بلاد المجد.. بين الثوار.

خفضت جميلة رأسها في خروجها إلى الطريق، لتزيل من على عينيها دمعة ترقرقت، وهى تنحني لحكم الأقدار..

في عودة جميلة إلى تيارت، عكفت بكل ما لديها من عزم وتصميم على إعادة تنظيم حياتها بهدفها الجديد، الذي صممت على الحياة من أجله وهو "إسعاد أمل وإعطاؤها فرصتها الكاملة في الحياة.. من أجل هذا فقد بدأت بإعادة تأثيث مسكنها الصغير وتجميله بأحواض الزهور وأقفاص الطيور المغردة، ليصبح جديراً بأمل التي تفتحت مداركها وكثرت مطالبها بحيث استحقت حياتها المستقلة في كنفها بعيداً عن جديها، سحنون وآمنة، اللذين لم يعارضا كثيراً هذه المرة في فراقها لها خاصة بعد أن تقدم بهما العمر وأزداد ضعفهما عما كان، لكنهما بقيا مع ذلك قريبين لا يكفان عن الزيارة وتقديم العون.

كان سكن جميلة عبارة عن شقة في عمارة حديثة تطل على منتزه المدينة العام، مكونة من حجرتين واسعتين خصصت إحداهما لجميلة والأخرى لأمل.. لكن أمل كثيراً ما كانت تغالط فتقفز إلى فراش جميلة ليلاً، لتستمع إلى قصصها وحكاياتها عن عوالم غريبة مليئة بالسحر والأساطير.. بطلها فارس هُمام يأتي غالباً حاملا سيفه البتار ممتطياً ظهر جواده الأبيض، يخوض بحثاً عن فتاته الحسناء، سبعة من أخطر البحار، ليحارب الغول في رحلة انتحار، لكنه ينجح دائماً في إنقاذ فتاته من الأخطار، ليعيش معها حياة هانئة سعيدة حتى نهاية العمر.

فكأنما كانت جميلة تتحدث بما في أمانيها عن فارسها الغائب الذي ما فتئت تنتظره وترتجيه.. فإذا ما تأخر الليل، ضمت إبنتها بين أحضانها الدافئة ليحتويهما نعاس لذيذ يستأنفان بعده حكاياتهما الجميلة في عالم الأحلام.. حيث لا حواجز ولا سدود..

انتظمت حياة جميلة بمتابعة عملها السابق في تدريس اللغة العربية داخل الحزب والولاية، إضافة إلى التحاقها بالعمل أستاذة بمعهد التعليم المُعمم بتيارت، حيث سعدت بالتدريس لتلاميذ المنازل وكانت واحدة منهم حتى عهد قريب.. ووجد غسان في زمالتها وقربها منه الفرصة لإعادة علاقتهما إلى سابق عهدها، وهو ما فتئ يكرر عرضه بالزواج منها، وهي تستمهله ريثما تنتهي من دراستها الجامعية الباقي عليها عام واحد تحصل بعده على الليسانس في اللغة العربية والآداب.. ذلك الحلم الذي راودها في أمانيها، فأعطاها دافعاً وحافزاً لتعيش من

أجله ولتناضل في سبيل الوصول إليه، في وقت تهاوت فيه معظم الحصون حولها، وفقدت الكثير من القيم معانيها، ومات الحب في قلبها بعد أن كاد يورق ويخضر من جديد.

عملت جميلة مع الوقت على حل مشاكلها الصغيرة التي تعرضت لها في حياتها الجديدة، أهمها رعاية أمل فترة عملها خارج المنزل، حيث عهدت بها إلى عجوز من جاراتها كانت لها نعم الراعي الأمين، بالقدر الذي طمأنها على إبنتها فهدأ قلبها.

كذلك حلت مشكلة متابعتها لدروسها الجامعية بالتنسيق مع أستاذها الدكتور برهان، الذي تفهم ظروفها الجديدة، فلم يتوان عن إمدادها بالكتب والمذكرات والدروس التي دأب على إرسالها إليها على عنوانها الجديد في تيارت، على أن تحضر لأداء الامتحان في وقته المحدد بنهاية العام، لذا فسرعان ما نسقت حياتها لتعيش في توازن وانسجام ما بين عملها ودراستها وبيتها وأمل، تلك التي كان يكفي أن تصل ابتسامتها الوادعة إلى جميلة، فتضيء حياتها بالقدر الذي يعبر بها بعيداً عن فجاج الأسى وبحار الأحزان..

عمل عمر بجد واجتهاد في سبيل إنشاء فرع شركة "أولاد حمدان" بالجزائر، وما تطلبه ذلك من اختيار للموقع وتأثيثه وإمداده بالعاملين، إنتهاءاً باللقاءات التي كانت تجمعه بكبار المسئولين الجزائريين والمصريين، لبحث امكانيات التعاون المشترك بينهم وتذليل العقبات التي اعترضت تنفيذ المشروع نتيجة لغرابة الفكرة، وتحفظ السلطات

الجزائرية أمام أي تدخل أجنبي في شئونها الداخلية، لكن عمر ما فتئ يوضح الأغراض المفيدة لمشروعه البعيدة كل البعد عن كل تدخل سياسي، واضعاً نُصب عينيه الصالح المشترك للبلدين والتعاون بينهما، إلى أن نجح في تصفية الأجواء وترسيخ قواعد شركته، التي حصلت على العديد من التسهيلات والامتيازات للتوسع داخل المدن الكبرى، من بينها وهران عاصمة الغرب الجزائري، وتيارت زهرة الجنوب.

وبالطبع فقد استلزمت كل تلك الأعمال من عمر مجهوداً فوق الطاقة، وساعات طويلة من السفر إلى البلاد المختلفة لمتابعة اتصالاته مع المسئولين بها، والإشراف على افتتاح فروع شركته بالأقاليم، مما كان يبعده كثيراً عن وفاء، التي كانت تقضي معظم أوقاتها وحيدة في مسكنها الهادئ بالعاصمة، مما كان يزيد من إحساسها بالسأم والفراغ..

حاولت وفاء أن تملأ فراغ حياتها الناتج عن غياب عمر بتبادل الزيارات مع زوجات المصريين الممليين بالجزائر، فتقضى برفقتهن الساعات الطوال في خوض الأحاديث التافهة، أو تتردد معهن على الندوات الثقافية والفنية التي أشرف على تنظيمها المركز الثقافي المصري بالجزائر.. حيث جاء لقاؤها مصادفة وبغير تخطيط بحازم، رفيق فترة ضلالها القديم..

كان حازم أحد الموفدين من قبل القيادة المصرية إلى الجزائر للتبشير بالمبادئ الاشتراكية الجديدة التي رسختها الثورة ضمن نصوص

دستورية هامة أسمتها "الميثاق"، نشرت مبادئه بين جميع طبقات الشعب، ووالته بالندوات والمؤتمرات بهدف الشرح والتفسير، انتهاءً بتدريسه في المدارس والجامعات، بل أصبح النجاح في فهمه واستيعابه شرطاً أساسياً لتولي المناصب القيادية في الدولة أو الارتقاء إليها.. ولم يقف الأمر عند ذلك، بل تعداه إلى خارج مصر بإيفاد مندوبي مصر لتصديره إلى الدول المجاورة، التي كان يأمل النظام في مد الثورة إليها ولتوعية المصريين العاملين بها، ليكونوا سفراء لعبد الناصر في توعية أهلها وتحريضهم على الثورة ضد الاستعمار والرجعية والاستغلال.. أعداء عبد الناصر المأثورين، وربما كانت تلك التعاليم والمبادئ في جملتها لا تختلف عما ورد بكتب الاشتراكية العالمية، من إدانة للاستعمار والرأسمالية المستغلة مع أنصاف الطبقات الفقيرة والكادحة.. لكن الجديد فيها قد كان في محاولة فرضها بشتى الوسائل بما في ذلك التخويف والإرهاب، وربما القيادة المصرية لم تفكر في الأمر على هذا النحو، لكنهم أعوانها من ضعاف السمع محدودي الرؤية، أرادوا أن يضيفوا إليها من رؤيتهم الكليلة قدراً من الحماس يساعدهم على الإقناع بعد أن عزهم الاقتناع.. وبغفلة منهم أنقلب حماسهم دون أن ينتبهوا إلى نوع رخيص من المزايدة والسعار، انتهاءً بتحولهم إلى زبانية متسلطين، وفد أحدهم اليوم إلى الجزائر لترسيخ قواعد "ميثاق" الثورة الجديد، فكان هذا الرسول هو حازم رجل المخابرات القوي، الذي التقى بوفاء وهى في قمة وحدتها هائمة على أرض الجزائر.. بلا رفيق أو ونيس..

في البداية أرادت وفاء أن تجفل وأن ترتد إلى الخلف فارة إلى الوراء.. لكن ما لبث حازم أن شدها إليه بنفس سلاحه القديم، المتمثل في بريق القوة ولمعان السلطة والنفوذ، وهو ما فتئ يتكلم بلهجة الحاكم الآمر الناهي، يزود الجميع بتعاليم القيادة الجديدة في مصر، مع التهديد والوعيد لكل مارق خارج عن تعاليم "الميثاق"، والكل لأمره خاضعون خائفون.. لذا فسرعان ما عاودها حنينها إلى البريق الخاطف للأبصار.. فتقدمت نحو حازم أولاً بخطوات وجلة مترددة.. ثم لم تلبث أن تلاحقت أنفاسها والنار تحتويها لتسقط فريسة سهلة لأقواله الحارقة وأحضانه الدافئة..

في عودة عمر من رحلاته البعيدة بين الجبال، هاله التغير الظاهر الذي ألم بوفاء فجعلها كعهدها القديم نافذة الصبر، غائبة العقل، عصبية المزاج، تثور لأتفه الأسباب، معلنة بذلك عدم رضاها عن حياتها المملة معه، خاصة بعد أن دأب على هجرانها وسفره المتكرر الطويل، إنتهاءاً بتمردها وحملها لحقائب سفرها في اتجاهها إلى القاهرة، لتعيش في كنف والدها صاحب النفوذ، حياة الدعة والرفاهية والجاه التي إعادتها في صباها البعيد.. ولتكون قريبة من فارسها ومعلمها حازم يستأنفان ما كانا عليه من لذة الضياع..

عبثاً ذهبت محاولات عمر لإثناء وفاء عن سفرها إلى القاهرة.. إذ برغم أن ما بينه وبينها لم يعد عاطفة مشبوبة كتلك التي أحس بها في بداية علاقته بها.. لكنه كان قد تحول مع الوقت إلى نوع من الألفة

والمشاركة، والاحتياج إلى امرأة كمصدر للحنان تقف بجواره وتشاركه فراشه وأفكاره، خاصة في بلاد غريبة مثل الجزائر، حيث العمل الشاق والمسئوليات الجسام الملقاة على كاهله مما يتطلب المزيد من المؤازرة والعطف والتشجيع.. لذا فقد خلفه فراقها له في شبه عزلة قاتمة وشجن خفي، يفكر في حياته التي خلت من الحب.. والحب الذي مات..

لكنه دائما وأبدا "محارب".. طالما خاض العديد من المعارك ونجا، وعليه أن يعتمد على غريزة الحرب والتصدي، وألا يستسلم لليأس أو الحزن مهما كانت التحديات.

الفصل الثامن

رسالة من الماضي

مر عامها الأخير في دراسة اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الجزائر بسلاسة وسلام، استطاعت جميلة أن تُحصل دروسها بانتظام عن طريق مساعدة الدكتور برهان لها، الذي وافاها بالكتب والمذكرات عن طريق البريد، إلي أن أتي وقت الامتحان بنهاية العام الذي اجتازته بنجاح، حصلت بعده علي شهادة الليسانس في آداب اللغة العربية وعلومها بامتياز، ثمرة طيبة لكفاحها المشرف في معركة التعليم، والتي لا تقل شجاعة عن معركة التحرر من المستعمر الغاصب للبلاد، ولكم كانت فرحتها عارمة وهي تتلقي التهنئة من الأهل والأصدقاء خاصة من أستاذها الدكتور برهان، الذي حثها علي المزيد من الاستزادة للحصول علي درجات أعلى تؤهلها للتدريس كأستاذة بالجامعة، لكنها أرجأته لما بعد، حتي تتفرغ للعناية بابنتها أمل التي ملأت حياتها، سرعان ما تلقفها "حزب جبهة التحرير" لتتبوأ من خلاله أعلى المناصب في الدولة بما يليق بتعليمها العالي الذي كافحت من أجل الحصول عليه سنوات، وبذا فقد استقرت حياتها ووصلت بمركبها أخيراً إلي بر الأمان.

في عودتها من العمل ذات مساء، وجدت جميلة خطاباً غريباً في انتظارها قادماً إليها من العاصمة، مكتوب بخط معروف لديها دق له قلبها دقاته العنيفة المتتابعة.. حتى وقبل أن تقلبه لترى عليه اسم "عمر

هاشم"، وعنوانه بالعاصمة الجزائرية، كانت قد عرفت أنه منه، هو وحده دون سواه صاحب هذا الخط الجميل، الذي أعادت تعليمه له بعد أن فقد بإصابته في الحرب كل قدراته في النطق أو الذاكرة، فكانت وسيلة تفاهمهما الوحيدة هي الكتابة، ولطالما وجدت الأخطاء في كتاباته الأولى نتيجة اضطراب تفكيره، فكانت تصححها له بصبر وأناة، كما تفعل الأم الرؤوم في رعايتها لابنها وإرشاده إلى جادة الصواب، وطالما كان يثور عليها أو يضيق بتوجيهاتها وإرشاداتها له، فيلقي بأوراقه وأقلامه إلى الأرض، لتعود تلتقطها له وتستحثه على متابعة محاولاته من جديد، خاصة حينما كان يتعلق الأمر بتعويده النطق على بعض الملافظ والحروف، وهو يجد المشقة في تقليدها حتى ليحمر وجهه ويتصبب بالعرق الغزير، كانت تأخذ بيديه بين يديها، تشجعه وتزوده بطاقة متجددة من الحب والحنان..

لكنها سرعان ما عادت إلى واقع حياتها التي انتظمت أو كادت، بعد أن خرج منها عمر ولم يعد له فيها مكان .. فبأي حق يدخلها مرة أخرى!؟ أ لكى يحطم كل ما كافحت من أجل بنائه؟! ويتركها في فوضى تحاول أن تبني ما تهدم من جديد؟.. لذا فقد كان رد فعلها الأول هو تمزيق هذا الخطاب وإلقائه بعيدا.. فلن ينتج من قراءته سوى إعادة الماضي الذي يسبب الآلام.. لكن جانبا آخر خفيا ما فتئ ينهاها، يخبرها بأن هذا الخطاب من حبيبها عمر، ومن القسوة البالغة أن تمزقه دون أن تعرف ما بداخله، فربما يكون في حاجة إليها، وربما

يحتوي على أخبار خطيرة يهمها أن تعلمها عنه، خاصة وأنها لا تعرف السبب الذي عاد به مرة أخرى إلى الجزائر بعد أن كان قد عاد إلى بلاده بصحبة الوفد المصري الذي كان يرافقه، وعجبت أكثر كيف استطاع أن يعرف عنوانها في تيارت على وجه الدقة!! فلابد أنه استطاع الحصول عليه من الدكتور برهان، وعلى كل فلن يمكنها معرفة الإجابة على كل تلك التساؤلات ما لم تفتحه وتقرأ ما به.

بقي الخطاب ملقى أمامها على المنضدة عدة ساعات دون أن تفتحه، حنت أحشاؤها عليه وهفت روحها اليه، تغالب أحاسيسها لكي لا تفتحه فتغلبها على أمرها.. حتى بعد أن أستقر رأيها على أن تفتحه وتقرأ ما جاء به.. لم تشأ أن تقوم بذلك إلا بعد أن نامت صغيرتها أمل، وخلت إلى نفسها في مخدعها كأنما تستقبل بداخله حبيباً في خلسة عن العيون.. وبيد مرتعشة قامت بفتحه وقرأت ما بداخله، فإذا بها بضع سطور مقتضبة يبلغها.. "بعد السلام" أنه سيحضر بعد أيام في زيارة إلى تيارت لبعض أشغاله بها، ويسره لو سمحت ظروفها أن يراها.. وبقيت كل تساؤلاتها بلا إجابة، لماذا عاد؟! لماذا يزور تيارت؟! ما هي أعماله التي أتى من أجلها؟! لماذا يود أن يراها؟!..

ومع ذلك فقد وجدت نفسها تقبل الخطاب وتضمه إلى صدرها العاري، كأنما تهدئ به ضربات قلبها المضطرب.. ثم ما لبث أن نامت وهو بين أحضانها نوماً هادئاً حتى الصباح..

كان أول شيء قامت به في الصباح، هو كتابة الرد لعمر الذي أخذته بسرعة إلى مركز البريد، حيث أسقطته في الصندوق الرئيسي ليكون على صدر بريد الصباح الذي يرسل مع الحافلة الوحيدة التي تغادر تيارت في صباح كل يوم إلى العاصمة.. ثم استندت بظهرها على جدار البريد تهدئ من اضطراب أنفاسها المتلاحقة كأنما قد جرت مشواراً طويلاً.. فهي ومهما كلفها الأمر لابد أن ترى عمر مرة أخرى.. ولو إلى لحظات قصار..

كانت الساعة تقترب من منتصف النهار، حينما وقفت جميلة بجوار نافذة مسكنها المطلة على الشارع تتأمل القادمين، وبجانبها ابنتها أمل لا تكف عن الحركة والضجيج، وهما في انتظارهما للقاء عمر، قد تزينتا بأجمل الأزياء في ذلك النهار المشمس الدافئ من أواخر شهور الخريف.. وعصفورها الأزرق يغرد بأجمل الألحان، لا يكاد يثبت داخل قفصه من الفرحة على حال.. دق جرس الباب، ودق معه قلبها دقاته العنيفة في غير انتظام، فأسرعت بفتحه ليدخل من خلاله عمر، وقد تحمل بهداياه للصغيرة أمل التي أسرعت للترحيب به واحتضانه، فتبعثرت الصناديق في كل أرجاء المكان، بينما أسرع بالتقاطها بين يديه وهو يرفعها ويطير بها في الهواء في تحية صاخبة تليق بلقاء أب بابنته بعد طول فراق، عبرت عما خالجهما من فرحة اللقاء، بينما تشاغلت عنهما جميلة بترتيب الزهور في أوانيها حتى تخفف من اضطراب مشاعرها بهذا اللقاء..

وبتلقائية وبساطة ركع عمر على ركبتيه فوق أرض الغرفة المغطاة بالزرابي السميكة، حيث بدأ في جمع صناديق الهدايا التي تبعثرت أثناء دخوله، وجلس بجوار أمل يفتحها واحداً تلو الآخر، حيث إحتوى أولها على عروسة كبيرة، بينما احتوت باقي الصناديق على العديد من الدُمى والتماثيل التي تمثل بعض الشخصيات الخرافية مثل الغول والسندباد والذئب الشرير، وكلما أخرج إحداها أخذ يتقمص شخصيتها، ويقلد حركاتها، فهو تارة غولاً وأخرى ذئباً، ويحكي بلسانهم القصص الغريبة التي تثير الرعب والضحك والخيال في تتال مدهش شد اهتمام أمل، التي علا ضجيجها وصخبها، وهى تستحثه على إكمال القصص، وتستفسره لشرح خوافيها، وعمر ما فتئ في استرساله ينبسط ثم يتكور ويعلو ثم يهبط ويجول ويصول في شتى الجوانب والأرجاء، إلى أن أنتهى أمره مستلقياً على ظهره فوق بساط الحجرة السميك، وأمل تحتل مكانها المفضل فوق صدره، وقد غابا عن العالم في حكاية طويلة مشوقة، أرادت أن تنهيها جميلة بتدخلها في الأمر قائلة: أمل.. عليك أن تشكري عمر على هداياه الجميلة إليك، ثم تدخلي إلى حجرتك فنحن على وشك الخروج..

لكن أمل اعترضت صائحة: ليس الآن يا أمي.. بعد قليل..

إلتفت عمر نحو جميلة وهو مستلق بجوار أمل على بساط الحجرة، وأجابها بصوت الدمية التي بين يديه قائلاً: سننتهي قريباً – يا أمي – أتسمحين؟..

قطبت جميلة جبينها برهة وهى تتأملهما مستلقيان على الأرض في ألعابهما الطفولية، وغالبت نفسها كثيراً، حتى لا تنطلق في الضحك، فقد كان منظرهما مسلياً حقاً.. وتذكرت المرات التي كان يحضر فيها غسان هداياه لأمل في زيارات شبيهة، كان يكتفي بتسليمها إليها، وهى مغلقة دون أن يهتم بفتحها، وكانت أمل تتناولها منه بأدب وهى تشكره في انصرافها لحجرتها بهدوء.. أما تلك الفوضى التي أثارها عمر في دخوله إلى المكان، فهذا شيء جديد لم يألفه هذا المنزل الصغير الذي إعتاد على الهدوء والنظام.. لكنها مع ذلك سعيدة بهذا الاستثناء الذي ينسجم مع منطق الحياة، والذي من شأنه أن يجمع بين الأب وابنته في لقاء حار.. بعد غياب طويل..

بعد فترة من اللعب الشيق، جمعت أمل هداياها وهى تودع عمر بقبلاتها الحارة، دخلت بها إلى حجرتها مع مربيتها العجوز.. بينما انتصب عمر في وقفته أمام جميلة، وهو يسوي شعره وملابسه المبعثرة، مد لها يده على إتساعها بسلامه الرقيق.. امتدت أصابعها لا شعوريا لتدير خاتمها الفضي داخل راحتها، لتخفي معالمه قبل أن تمد إليه يدها المرتعشة بالسلام.. استبقاها عمر بين يديه فترة قبل أن تسحبها ثانية وقد صعد الدم إلى وجنتيها اللتين زادتا اشتعالاً..

بعد أن اطمأنت جميلة على ابنتها برفقة مربيتها العجوز، تهيأت لمغادرة المكان، تقدمها عمر نحو الخارج بخطواته الرشيقة، في

طريقهما لتناول الطعام بفندق المدينة الضخم الذي يتوسط ميدانها الكبير..

على خرير النافورة الضخمة التي توسطت بهو الفندق بألوانها المتعددة الجذابة، جلس عمر وجميلة إلى مائدتهما الحافلة بشتى أنواع الطعام يتناولان غذاءهما ويثرثران..

عقب تناول الطعام انتقلا إلى صالون الفندق المطل على النافورة لتناول الشاي.. أسند عمر رأسه إلى وسادة الكرسي الضخم خلفه، في محاولة لاستجماع أفكاره قبل أن يبدأ حديثه لجميلة.. لكنه في أعماق نفسه كان يستمع إلى صوت آخر ما فتئ يأتيه من ماضيه، أشبه بصوت ماء يتدفق على قاع نهر ضحل، اختلط داخل عقله بخرير الماء المنساب على حافة النافورة، يشعر بأن له أهمية خاصة في ماضيه المفقود بالجزائر، أجهد ذاكرته كثيراً ليتذكره في الوقت الذي أتاه صوت جميلة وهى تنبهه من غفوته قائلة : سيد "عمر".. هل أنت بخير؟..

انتبه إليها وهو يجيبها قائلاً: نعم.. فقط بعض الإرهاق من مشقة السفر الطويل..

على رشفات الشاي الجزائري الأصفر المنعش.. بدأ عمر حديثه الجاد يحكي لجميلة عن سبب تواجده في تيارت.. فهو ليس إلا بقصد استكمال مشروعه الخاص بالحبوب الذي سبق أن تكلما مرة بشأنه،

حينما كان مجرد حلم في الأذهان وخطوطاً على الأوراق، فإذا به اليوم حقيقة ظاهرة للعيان بفضل إخلاص البعض وتفانيهم في خدمة البلاد.. ولقد وقع الاختيار على تيارت بعد دراسة متأنية لتكون مركزاً لبناء صوامع تخزين ضخمة تجمع بداخلها كل مخزون البلاد المحيطة بها باعتبارها تتوسط الغرب الجزائري الذي تجود فيه زراعة الحبوب، ويسهل الوصول إليها من شتى الأنحاء والأرجاء، كذلك فقد اتجهت النية للاستفادة من القمح محلياً، فتقرر إنشاء مطحناً آلياً ضخماً يعمل وفقا لأحدث النظم العلمية، ستقوم شركته بالإشراف على إنشائه في تيارت، مما سيحقق لها المستقبل الزاهر في صناعة الحبوب وإنتاجها..

كان عمر يتكلم طول الوقت بانفعال عكسته تقاطيع وجهه التي تهللت بالحماس الدال على عمق اليقين وسمو الغايات، مما شد إليه انتباه جميلة لتتابع بشغف حديثه الممتع، وهي تكاد تلتهمه بعينيها المحملتين بالدهشة والانبهار، حتى لقد سابقته في أحلامه فرأت منطقة تيارت وقد اصفرت بما تحملته من قمح وفير، فاض حتى أغرق الآفاق وأشبع الفقراء.. وبدا لها الأمر في لحظة طبيعياً ويتماشى مع منطق الأمور.. إذ هكذا هو عمر في عنفوانه، لا يعرف المستحيل.. ألم يهزم الموت مرة من قبل حينما كان جريحاً على الجبال فعاد من الفناء أبهى وأعظم مما كان!؟.. ألم يكن لها الزوج والحبيب الذي ملأ فراغ عقلها وجسدها؟!.. ألم يعد إليها بعد أن عز الرجاء فيه؟!.. ألم يلبى نداء ابنته إليه فيسرع إليها في مرضها طائراً بين الجبال، ليذود عنها

الأخطار ولينتشلها من بين براثن الهلاك؟.. لذا فليس ببعيد عليه – وهذا حاله – أن يحيل الجبال الجرداء جنة خضراء، وأن يروى العطاشى ويطعم الفقراء..

لكنها سرعان ما توقفت عن الجري وراء مشاعرها، أطلقت كلاب صيدها لتفترس عواطفها الحمقاء.. ثم ابتسمت وهي تعيد النظر في أمرها لتراه من وجهه الساخر داعياً إلى الشفقة والرثاء.. فماذا توقعت أن يكون سبب حضور عمر لزيارتها في تيارت؟.. هل توقعت أنه ما جاء إلا ليبثها حبه ويشكو لها هواه؟!.. لكنه بالدرجة الأولى رجل أعمال، وقته مشغول بالمشاريع والإنشاءات، أياماً وشهوراً قضاها الآن في الجزائر لم يفكر فيها، أو تدور له بحسبان، لم يتذكرها إلا عرضاً بمناسبة تواجده بالمدينة لإنهاء بعض أعماله بها، وما كانت زيارته لها إلا مجاملة للشكر على معونتها السابقة له في وهران، وللاطمئنان على إبنتها أمل التي خلفها في زيارته السابقة مريضة طريحة الفراش، فله الشكر على كل حال.. أما الحب فالأجدر به أن يبقى مدفوناً هناك في الأعماق السحيقة حيثما كان..

قبل أن تنطوي في خيبة أملها فاجأها عمر قائلاً: وبالطبع فأنا يلزمني في تيارت مدير أعمال، يقيم هنا ليشرف على التنفيذ، ولا أعرف في تيارت كلها من يصلح لذلك.. غيرك.

اتسعت عينا جميلة وقد أحمر وجهها من المفاجأة.. قبل أن تتمالك نفسها أو تحاول الكلام، استرسل عمر من خلال حماسه

المتدفق قائلاً: إنه في حقيقة الأمر مشروعك أنت.. أنت التي اقترحت.. أنت التي خططت.. وأنت التي سوف تقومين بالتنفيذ.. مبروك..

حينما لمح عمر شكها وعدم اقتناعها، استرسل مؤكداً بساطة الأمر قائلاً: أما عن الأعمال المطلوبة، فهي ساعات قليلة من النهار في أيام متفرقة، للرد على المراسلات وتنظيم المواعيد والترجمة، وأعتقد أنك لن تبخلي بها من أجل مشروعنا العظيم..

تخيلته قائلاً: "من أجل .. حبنا العظيم"..

اختتم عمر حديثه قائلاً: أما عن حضوري إلى تيارت، فلن أجعله يضايقك كثيراً.. فسوف أحضر برهة قصيرة كل بضعة أيام للاطمئنان على سير العمل في المشروع..

كان رد الفعل الأول لدى جميلة أن ترفض العمل مع عمر مهما كانت الإغراءات، فهما ومنذ فترة ما فتئا يسيران في طريق مغلق لابد سوف يعودان منه خائبين، وبعد ما قد كان، فأي أمل لهما في لقاء جديد؟!.. أن هما إلا يسيران وراء أوهام خطرة من شأنها أن تعيد الماضي المدفون، الذي لن ينتج من ورائه سوى الأحزان والآلام، ولقد وصلت من قبل في هذا الأمر إلى قرار، فليس لها أن ترجع فيه الآن خاصة ولا شيء تغير، بل ازداد اقترابهما من منطقة الخطر مما يحتم عليها اتخاذ موقف حازم سريع، خاصة وأن جانباً كبيراً من المسئولية

يقع عليها وحدها، فهي وحدها التي تعلم كل أبعاد الموضوع، أما هو فله عذره في الجري وراء أوهام حبه لها وافتتانه بجمالها، دون أن يعلم أنه ما فتئ يسير وراء سراب خداع يظنه ماء، ويسير فوق كثبان رملية متحركة.. يمكن أن تبتلعهما معا..

لكنها برغم كل ذلك، وجدت نفسها عاجزة وغير قادرة على الرفض القاطع البات السريع.. على الأقل حتى لا تجرح مشاعره الرقيقة.. وبعد ما كان معها غاية في الرقة والكرم، لا يمكن أن يكون هذا ردها أو ذاك جزاءه، خاصة وهو ما جاء إلا ليدعوها لإعانته في مشروعهما الذي خططا له وأراداه محققاً لنهضة عمرانية واقتصادية هامة في البلاد، فكيف بها بعد ذلك كله تخذله أو ترده! وهو الذي اختارها من بين جميع من يسكنون تيارت ليضع فيها ثقته لمعاونته والوقوف بجانبه؟ فكم سيكون رفضها البات ظالماً مجحفاً شديد الإيلام!.. بل خالياً من المودة والرحمة والعرفان بالجميل.. لا .. لا يمكنها الرفض للغريب.. فما بالك بالحبيب؟.. لذا فقد استمهلته للتفكير في الأمر، علها تجد لها مخرجاً مناسباً لما هي فيه من حيرة وضياع، وافترقا على وعد بإبلاغه برأيها عن قريب..

بعد أن خلت بنفسها، فكرت في الأمر على نحو جديد، فماذا لو قبلت العرض الذي عرضه عليها عمر؟! إنه عرض كريم وسخي، فضلا عن كونها دون سواها أنسب الناس للأشراف على تنسيق العمل بهذا المشروع الحيوي الذي ينمي الزراعة الوطنية ويفيد التعاون

المشترك بين البلدين، فأهدافه القومية لا يمكن تجاهلها، واشتراكهما فيه هو خدمة وطنية وجزء متمم من نضالها.. عليها ألا تتردد في القيام به مادام يمكنها ذلك، خاصة بعد أن أنهت دراستها الجامعية بحصولها علي ما تمنته من تفوق ونجاح، وأصبح لديها الوقت الكافي للعمل الإضافي بالمشروع، ولقد بسط لها عمر الأمور، فالعمل المطلوب لن يستغرق منها سوى بضع ساعات قليلة في الأسبوع، وحتى لو تضخم العمل فيه، فبإمكانها الاعتذار عن أعمالها الأخرى التي تقوم بها في الولاية والحزب لتوافر البدائل ممن يمكنهم القيام بتلك الأعمال هناك.. بل أنها بما لديها من صلات طيبة بكل المسئولين بالولاية، لهي أقدر الجميع على تذليل العقبات ومعاونة عمر في هذا المشروع الهام، فلماذا الرفض إذن؟!.. أتخاف من لقائها بعمر؟!.. لكن عملهما معاً سيكون في معظمه من بعيد، هو في العاصمة، وهى في تيارت، فلها أن تأمن على نفسها منه، فسيكون لقاؤهما في أضيق نطاق.. وهو على جهله بما كان بينهما من قبل، لن يؤذيها أو يقترب منها، ما دامت هي لا تشجعه، وهي لن تضعف أمامه أو تلين، لذا فلن يكون هناك خطر عليها إلا من نفسها، وهى هذه المرة مصممة على سلوك جانب الحذر، لذا فلا خوف هناك..

لكل هذا فقد عزمت أمرها.. وأبرقت له بالقبول..

* * *

في بداية الأسبوع ذهبت جميلة لاستلام عملها الجديد بمكتب عمر الذي أحسن إنشاءه وتأثيثه بإحدى الفيلات الفخمة المقامة على مشارف المدينة.. كان المبنى عبارة عن طابقين أُعد الأول منهما للعمل والمقابلات والاجتماعات، بينما خُصص الثاني منهما كاستراحة لمبيت عمر في الأيام التي يتأخر عمله فيها حتى الليل فيقضى بقيته بها.

في الحجرة الداخلية المخصصة لمكتب عمر، جلست جميلة في مقابل مكتبه، وقد انتصبت في جلستها لتبدو في مظهر المرأة العاملة الجادة، بينما بادرها عمر وهو يتأمل المطر المتساقط بغزارة على إطار النافذة من الخارج قائلاً: كم هو الشتاء هنا بارد والأمطار غزيرة، بعكس ما هو عليه الحال في مصر حيث الدفء والشمس الساطعة طوال الشتاء..

وافقته جميلة على أقواله بعبارات سريعة مقتضبة، وهي تستشعر الحرج الذي ساد بينهما، إلى أن قطعه عمر بنهوضه المفاجئ حيث أسرع بخطواته السريعة في الدهليز الداخلي، وهى تتابعه بخطواتها المتعثرة إلى أن قادها إلى حجرة صغيرة خصصت لها توسطها مكتب مكتظ بالأوراق، سرعان ما احتلت مكانها خلفه، وهو ما فتئ يوضح لها سير العمل في المشروع والأعمال التي تتطلب الإنجاز في فترة غيابه الطويل، أما أثناء تواجده فعملها ينتهي عند عرض ما تم من أعمال عليه، فيتولى إتمامها ومتابعتها مع باقي الفروع بالتنسيق مع المركز الرئيسي بالعاصمة..

سرعان ما انتظم العمل بفرع تيارت بفضل إخلاص جميلة وتفانيها في متابعة الأعمال به، خاصة في بداياتها الأولى حيث ثقل الإنشاءات وجسامة المسئوليات، مما تطلب الكثير من الجهود والاتصالات، مع العديد من اللقاءات والاجتماعات للتنسيق بين شتى الجهات.. كل هذا مما أتقنته جميلة وأنجزته بدقة ومهارة داعيان إلى الفخر والإعزاز، وكثيراً ما كانت تجد بعيني عمر نظرات التقدير لها والعرفان بجميلها، فكانت تجد في ذلك خير الجزاء.. والعزاء..

كان اليوم ممطراً بارداً شأن العديد من أيام الشتاء الباردة في تيارت، حينما جلست جميلة إلى مكتبها الذي أكتظ بالعديد من المكاتبات العاجلة قضت الساعات الطويلة من الصباح في فحصها وترتيبها وترجمة الأجنبي منها وإعداد الردود عليها، ليوقعها عمر قبل رحيله إلى العاصمة في حافلة منتصف النهار.. لم ينس قبل سفره أن يزودها بتوجيهاته وتعليماته، وهو يجيب في عجالة على أسئلتها واستفساراتها، ثم ودعها وانصرف.. على وعد بالعودة بعد عدة أيام..

برغم أن عمر عاملها طول الوقت بحسم واحترام شأن رجال الأعمال العظام.. إلا أن جميلة أحست قربه برغبة جامحة تتملكها فلا تكاد تملك منها الفكاك، وهي بجوار عمر وحدهما، يحادثها.. يحاورها، تكاد تلتصق به في الفراغ الضيق بين الأثاث والمنقولات.. تتشمم رائحة عرقه المحببة لها.. تخفي نظراتها في الأوراق حتى لا تشي بها لديها.. عاودها حنينها إليه بكل شوقها الطاغي العنيف، قفزت إلى مخيلتها كل

أيام حبهما القديم.. لذا فقد أحست بفراغ موحش يداهمها بعد رحيله عنها، همدت حواسها وهي تعود وحيدة منهكة بعد انتهاء عملها بالمكتب دون رفيق أو أنيس، وتشتهي ضمة حانية من ضماته الدافئة إليها فتحمل لها البرء والشفاء..

انتظم حضور عمر إلى تيارت يوماً أو يومين كل أسبوع، ينجز خلالها الأعمال التي تعرضها عليه جميلة، فيصدر أوامره وتعليماته بشأنها، ثم يلتقي بالشخصيات الهامة في الحزب والولاية، أو رؤساء البلديات المحيطة بالمدينة ليستمع إلى طلباتهم وملاحظاتهم على المشروع الذي بدأ ينتقل من التصميم إلى التنفيذ، وبدأت جحافل من الخبرة الفنية المصرية والجزائرية المشتركة تفد إلى مواقع العمل، حاملة معداتها لبناء الانشاءات المطلوبة، وكثرت المشاكل المعقدة والطلبات العارضة، التي تستدعي التصرفات العاجلة بما لا يحتمل التأخير.. في البداية لم تكن جميلة على علم ودراية بكل التفاصيل التي تمكنها من سرعة التصرف واتخاذ القرار، لكنها مع الوقت تعلمت الكثير من دقائق العمل التي زودها بها عمر بالقدر الذي جعلها تحل الكثير من المشاكل فور حدوثها، وتلبي المتطلبات بمجرد طلبها، مما سار بالمشروع خطوات حثيثة إلى الأمام.. تذكرت جميلة أيام أن كانت هي المعلمة التي تزود عمر بمعلوماته عن الحياة حينما كان مصاباً فاقداً للنطق والإدراك، ها هي ذي تعاليمها قد أثمرت أخيراً فجعلت من عمر

الرجل العظيم الذي أفلحت تعاليمه بجعل الحياة تتدفق في الجوار حاملة في طياتها الخصب والنماء.

انتظم العمل في المشروع، بفضل دأبهما وصبرهما وكفاحهما الطويل المشترك، خاصة جميلة التي بذلت من وقتها وجهدها الكثير لتقوم بالإنجاز والتنسيق، وفي سبيل ذلك فقد عهدت بأمل لجديها أو لمربيتها العجوز، حيث لم تكن لتجد الوقت الكافي للعناية بها إلا ساعات قليلة مختلسة يقضيانها قبل النوم في ألعابهما المشتركة وحكاياتهما الطويلة ريثما يطويهما النعاس.. أما عطلة نهاية الأسبوع فقد كانا يقضيانها معا، أغلبها في الحدائق والغابات المحيطة بالمدينة، خاصة في الأيام الربيعية المشمسة حيث تجد أمل فرصتها للجري وتسلق الأشجار، لجمع ثمار التوت البري أو البلوط الذي يجود في فصل الشتاء.. يرافقهما غسان تابعهما الأمين، يتنقل بهما داخل سيارته بين الحدائق البعيدة والوديان السحيقة لمزيد من المغامرات والألعاب الممتعة البريئة المسلية..

الفصل التاسع

الوجه الآخر لجميلة

كانت جميلة تهتم في عملها الجديد بكل الدقائق والتفاصيل، فلم تكن تشعر أنها تعمل لدى عمر كسكرتيرة أو أجيرة، وإنما كان هناك ذلك الدافع الأقوى للنضال الذي ما فتئ يتجدد حتى وجد الفرصة مهيأة للظهور إلى الوجود من خلال عمل وطني فذ، ليعيد إليها ذكريات المجد القديم.. لذا فقد كان وقوفها بجوار عمر ومساندتها له ينطلق في أحيان كثيرة من حقيقة كونها "زوجة" و"عاشقة"، من واجبها الوقوف بجوار حبيبها لتشاركه ما في حياته من أفراح وأتراح.. لذا فكثيراً ما كانت تمر وهى في طريقها إلى المكتب على المحلات لتشتري منها الحلوى والأطعمة والزهور، تنتقى منها أنواعا معينة تعلم مسبقا أن عمر يحبها ويشتهيها، تفاجئه بتقديمها إليه في مكتبه فتسعده بها وتخفف من حدة العمل الثقيل، بحيث جعلته يعيش جواً أسرياً مفعماً بالمحبة والحنان.. لكنه كثيراً ما كان يجد نفسه محرجاً أمام مشاعرها الفياضة التي لم يكن يدرك أبعادها الحقيقية، حتى أنه كثيراً ما كان يخاطبها قائلاً: إن ما تفعلينه من أجلى لكثير جداً.. ولست مجبرة على القيام به..

لكنها كانت تجيبه قائلة: إنني أفعل ذلك لكسر حدة الملل التي أشعر بها أثناء غيابك عن المكان..

لكنها سرعان ما تتدارك نفسها وقد توردت وجنتاها من شدة الخجل وهى تكتشف انسياقها في قول الكثير، وبالكاد تمنع نفسها عن أن تقول: هذا واجبي تجاهك كزوجة وأم لابنتك.. على أن أعتنى بك وأن أرعاك كما اعتنيت بك ورعيتك دائماً..

لكن أحدهما كان يسرع بتغيير الحديث والخروج به بعيداً عن المناطق الحارة والساخنة، حتى لا تطول فترة الحرج الناتجة عن فيض المشاعر الرقيقة بينهما.

قبل أن ينصرف عمر ظهر أحد الأيام، ألتفت نحوها وهو يرشوها بابتسامة رقيقة كجزاء لها على صبرها الطويل، ثم قال: أرجوك أن تحضري نيابة عني اجتماع المساء، فأنا مضطر للسفر والعودة إلى العاصمة الآن..

تقبلت جميلة هديته لها بامتنان، ثم أجابته من خلال ابتسامتها الوديعة التي شيعته بها قائلة: لك أن تطمئن إلى ذلك.. فسوف أقوم بالعمل المطلوب..

* * *

كان الاجتماع الذي حضرته جميلة في المساء بدلاً من عمر عاصفاً عنيفاً.. فلقد تعرض فيه عمر بمشروعه كله لهجوم حاد من بعض المتطرفين السياسيين الذين يشغلون مناصب هامة في الحزب والولاية، كانت حجتهم في ذلك: أن عمر مصري.. أجنبي عن الجزائر،

مهمته في المشروع محددة بالتنفيذ دون التخطيط، وأنه قد دأب على تجاوز دوره المحدد له، بالتدخل الدائم في أعمال الإدارة وشئون البلديات، للسؤال عن أدق التفاصيل الخاصة بأماكن زراعة القمح ومساحاتها، مما يعد من أسرار البلاد التي لا يجوز للأجانب الاطلاع عليها أو كشفها، بل أنه أكثر من ذلك ذهب لزيارة مواقع العمل والمزارع والاتصال بالمزارعين والبقاء في ضيافتهم وقتا طويلاً مما يعد تدخلا في الشئون الداخلية للبلاد، ويلزم لذلك "تحجيمه" بوضعه داخل الدور المحدد له في التنفيذ بحيث لا يتعداه إلى سواه..

تداخلت الأصوات وعلت ما بين مستحسن ومؤيد للهجوم الكبير الذي شنه خصوم عمر عليه، فجأة أحست جميلة بالنار تكوي قلبها، فانتفضت واقفة بعد أن أخذت الكلمة، ثم بدأت حديثها بصوت خفيض، إلا أنه كان حاداً قاطعاً كالسكين، قائلة: "عمر حمدان".. رجل الصناعة المصري.. المتعاون مع الجزائر، ترك وطنه وأهله، ليعاون بلادنا النامية التي بالكاد تنهض من كبوتها بعد الاحتلال الطويل، ليساهم بكل ما لدى شركاته العريقة من خبرة ورجال وأموال.. ثم تتهمونه بأنه أجنبي عن البلاد، ولا حق له في التدخل في الإدارة أو التخطيط!؟.. "عمر هاشم حمدان".. أيها السادة ليس أجنبياً تماماً عن الجزائر، ولا هو أتى طامعا في ثرواتنا وأموالنا.. فلقد حضر إلى بلادنا مرة سابقة من قبل.. عرفته تلك الربى جنباً لجنب مع أشقائه من المجاهدين الذين جلبوا لكم النصر، وأتاحوا لكم الفرصة لتجلسوا على

مقاعدكم العالية تلك وتتهمونه بأنه أجنبي عنكم، ولا حق له في الإدارة والتخطيط..

كان لدفاع جميلة الحار عن "عمر أبلغ الأثر في إسكات الأصوات العالية التي انبرت لمعارضته والهجوم عليه حسداً وغيرة من نجاحه الذي حققه في مشروعه العظيم، فلم يجدوا منفذاً ينفذون إليه من خلاله إلا أنه "مصري" أجنبي عن البلاد.. فإذا به في لحظة وقد انكشف ماضيه المشرف في الجهاد.. الذي نسيه الكثيرون.. إذا به يعود بطلاً جديراً بالاحترام والتقدير، فأنمحق خصومه وتزايد وقوى مؤيديه، بعد أن زال عنه الشك وظهر اليقين... وهكذا إنفض المجلس وإنتهى الاجتماع وقد ترسخ مركز عمر وقوي داخل الحزب والجهات الحاكمة، بفضل ما قدمته عنه جميلة من دفاع، لم يكن في إمكان غيرها القيام به.

في عودته التالية، وجد عمر العمل يسير في المشروع سيره المنتظم المعتاد دون أن يعكر صفوه أية مشاكل أو تعقيدات، فقام بدوره المعتاد في موالاته ودفعه خطوات حثيثة إلى الأمام، دون أن يدري شيئاً عن ذلك الهجوم الغادر الذي سحقته جميلة في غيبته، وحرصت على ألا تتسرب أنباؤه إليه، خشية أن يكدر صفوه أو يمس مشاعره، كدأبها في رعايتها له منذ أن عرفته جريحاً غائباً عن الوعي حتى الآن.. حتى لقد تحول مع الوقت داخل مشاعرها بغض النظر عن

حبها له وغرامها به.. تحول إلى فكرة وهدف وأسطورة، يجب أن يبقى ويستمر، وغير مهم – هي – أو فداحة التضحيات..

كانت الثلوج تهطل بغزارة في الشوارع والطرقات، حينما أشعلت جميلة كل المدافئ داخل مبنى الإدارة العتيق لتبدد الصقيع المنبعث من خلال جدرانه السميكة.. في الوقت الذي ظهرت فيه أعراض النزلة الشعبية الحادة على عمر بجلاء ووضوح، فانتفخت أوداجه واحمرت عيناه، وانتابته حالات متكررة من العطس والسعال الحاد، بينما كان يمكن لجميلة أن تتبين سوء حالته بجلاء، من جسده المرتعش المنتفض من الحمى والحرارة التي ما فتئت تتدرج نحو الارتفاع..

تقدمت جميلة نحوه برفق، وبحركة عفوية نحت من أمامه الأوراق والملفات قائلة: لقد انتهى عملك اليوم، وما عليك إلا أن تصعد إلى فراشك بالطابق الأعلى لتتدثر وتنام في الدفء قليلا ريثما تتحسن حالتك..

حاول عمر الاعتراض، فلقد كانت هناك العديد من المواعيد والأعمال في انتظاره لم يتمها بعد، لكن جميلة طمأنته لعدم أهميتها وأنها سوف تقوم بها نيابة عنه، مما خفف من قلقه وجعله يقوم متثاقلاً يغالب ضعفه ومرضه المتزايد..

شيعته وهو في طريقه إلى الطابق الأعلى قائلة: ستجد القهوة ساخنة على إناء الموقد، وستجد الطعام في المطبخ كالمعتاد، ولكن

عليك بالنوم جيداً ولا تنسى إشعال المدفأة.. واترك الباب مفتوحاً، فسوف أحضر لكى أطمئن على حالتك قبل انصرافي..

بقيت جميلة تعمل وحدها في تصريف أمور العمل ولقاء الزوار والرد على المكاتبات، إلى أن حان وقت انصرافها فجمعت حاجياتها ورتبت أوراقها، وصعدت الدرج الفاصل بين الطابقين إلى حيث مخدع عمر، ذلك الذي لم تصعده من قبل إلا أثناء غيابه، للأشراف على تنظيفه وتنسيقه وتزويده بما يلزمه من أطعمة ومشروبات.. لكنه الآن عامر بالحياة وقد ضم حبيبها عمر، لذا فقد تسارعت دقات قلبها وهى تقترب من مخدعه، تعمدت أن تحدث جلبة في طريقها لتنبهه إلى قدومها، بينما صاحت قائلة: عمر.. أين أنت؟ إنني في طريقي إلى المنزل، فهل تريد شيئا قبل أن أنصرف؟..

لكن عمر لم يرد.. حسبته في بادئ الأمر نائماً فدخلت المخدع في سكون حتى لا توقظه، وجدته مستلقياً في فراشه وقد أنزاح عنه الغطاء، تقدمت نحوه لتحكم حوله الغطاء، وبطريقة عفوية تلقائية لامست يدها جبهته أثناء تسويتها لبعض شعيرات تناثرت على وجهه، فهالها الوهج المنبعث منه مع عرقه الغزير.. تنبه عمر للمستها الحانية، حاول أن يعتدل في فراشه وهو يبتسم لها ابتسامة واهنة، لكن خارت قواه وإنهار في هذيانه غير مدرك لما حوله من مجريات.. فأنتابها الهلع، أسرعت نحو الخزانة القريبة وفتحتها على مصراعيها في بحثها عما يمكن أن تستعين به من أدوية ومعدات لعلاج عمر

وتخفيف ما أنتابه من تدهور والتهاب، لكنها لم تجد إلا القليل.. في الوقت الذي ازدادت حالة عمر سوءاً، مما جعلها تهرع إلى المدينة في بحثها الأعمى عن صيدلية لم تغلق أبوابها بعد، في ذلك المساء العاصف من فصل الشتاء، إلى أن وجدت إحداها في أقصى المدينة يستمر بها العمل أثناء الليل، فاشترت منها بعضا من الأدوية الخاصة بالبرد والمضادات الحيوية، وتزودت بالعديد من الأطعمة والمشروبات، ثم عادت إلى عمر الذي وجدته وقد ساءت حالته يهذي وينتفض كيانه من شدة الحمى، فمازالت تعتنى به وتواليه بما جلبته من أدوية، حقنته ببعضها وسقته بعضها الآخر.. سهرت الليل بجوار فراشه تدثره وتزيد النار في المدافئ من حوله، تجفف عرقه الغزير وتوالى قياس درجة حرارته لتطمئن على هبوطها التدريجي إلى معدلها المعتاد، إلى أن أستفاق، فسقته وأطعمته.. لم تتركه إلا بعد أن أسلمته إلى نعاس هادئ معتاد.

في طريقها آخر الليل إلى منزلها، وهى وحيدة شريدة تمر كشبح هزيل يتخفى في الشوارع الخالية التي اكتست بالثلوج البيضاء، والهواء البارد يلفح وجهها بشدة فتحاول الاستتار منه بمزيد من التدثر بردائها الصوفي السميك.. انهالت أفكارها هادرة عنيفة، وتتالت على مخيلتها أحداثها مع عمر، منذ اللحظة التي وقعت عيناها عليه في آفلو وهو مضرج بدمائه غائب عن الوعى يصارع مرضه بسبب ثلوج الشتاء، لكأنما الزمن ما فتئ يعيد نفسه، بل كأنما يوم واحد لم يكد ينقض ما

بين الحدثين، كلاهما محفور داخل كيانها مقرون بإحساس واحد، ما فتئ يدق دقاته العنيفة في قلبها، ليؤكد لها الحقيقة التي حاولت أن تفر منها مرارا عديدة دون جدوى.. وهى أنها لعمر جد عاشقة، وأنه قد ملك عليها أمرها، حتى لقد ملأ عليها كل الوجود..

نهض عمر في الصباح في حالة جيدة بعد أن زايلته الحمى، لكنه كان في حيرة من أمره بسبب الأحداث الغريبة التي مرت به في الليلة الماضية وهو تحت تأثير الحمى، لا يكاد يذكرها إلا كحلم باهت بعيد، رأى نفسه فيه نهباً لخيالات مزعجة في عالم بعيد غريب، بداخله جميلة، أو تلك الأخرى الشبيهة لها، تعتني به أثناء مرضه الخطير، لكنها بدت له أحياناً كثيرة وهى تلبس ملابس أخرى أكثر شفافية تبين من خلالها مفاتن جسدها، وأنه قد نال من حبها الكثير.. لكنه أسرع يلوم نفسه على تفكيره الغير مهذب في جميلة، ذلك الملاك الطاهر العفيف، فما كان ينبغي له أن يسمح لخياله بأن يفكر فيها ذلك التفكير المشين.. فهي قد تحولت داخله إلى رمز للأمومة والحنان والاحترام، يصعب عليه والحال كذلك أن يفكر فيها بطريقة غير مهذبة.. صحيح أنه يشتهيها ولكن هدفه شريف، فأما أن ينالها كزوجة عفيفة، وأما أن تبقى مفاتنها مصانة لا تمس بسوء..

لكنه أحياناً ما كان يفكر في الأمر على نحو مختلف، يتساءل عما إذا ما كان قد رآه صحيحاً! وأن تكون جميلة في رعايتها له الليلة الماضية قد تخففت من بعض ملابسها فظهرت له من مفاتنها ما قد رآه

وهو بتأثير الحمى التي انتابته غير قادر على التذكر أو التركيز، لكنه أسرع ينفي هذا الاحتمال، فلقد كانت تلك التي تشبهها ما فتئت تروح وتغدو في مبنى حجري عتيق، يختلف كثيراً عن تلك الفيلا الأنيقة التي يعيش فيها الآن، وهى بشعرها المرسل ومفاتنها المكشوفة تبدوا أصغر سناً وأكثر نضارة من جميلة التي يراها الآن معظم الوقت – برغم رقتها – متجهمة وقور.. لكنها على كل حال أفكاره الطائشة التي تضافرت مع الحمى فصورت له هذا الهذيان عن جميلة، وعليه أن يحذر وأن يخفي تلك الخزعبلات عنها فلن ينتج من وراء كشفها سوى الآلام..

زارته جميلة في الصباح الباكر لتطمئن عليه قبل مباشرة أعمالها بالمكتب، وداخلها الارتياح حينما وجدته وقد زايلته الحمى يقترب من التحسن والشفاء، لكنه كان منهكاً ضعيفاً مما جعلها تصر على بقائه في فراشه والخلود إلى الراحة اليوم كذلك، ثم أشرفت على أعداد فطوره وإعطائه الدواء..

بعد أن قدمت جميلة لعمر فنجان من قهوته الساخنة الشهية، جلست في مقابله على المقعد الواسع الوثير، وبيدها فنجان قهوتها ترتشفه على مهل، ثم جالت ببصرها في المكان لتطمئن على وجود كل شيء في موضعه الطبيعي الذي ينبغي أن يكون فيه، بما في ذلك عمر، الذي ينبغي له أن يكون في فراشه الوثير، ثم نظرت نحوه نظرة طويلة حالمة، وحيته قائلة: عيد ميلاد سعيد..

أجابها عمر وهو يغالب ضعفه قائلاً: لقد ولدت بفضل عنايتك – مرة أخرى – من جديد.

دق قلب جميلة في صدرها بنزق لهذا الإطراء الغريب الذي يطابق مقتضى الحال فيما بينهما منذ أن عرفته حتى الآن، تذكرته وهو فاقد للنطق والذاكرة في المرة الأولى التي إلتقته فيها، لا يدري من أمره شيئاً، وكيف أخذت بيده – في ظروف شبيهة – خطوة بخطوة لإعادته إلى الحياة.. أيكون قد تنبه بعقله الباطن للدور السابق الذي قامت به في حياته الماضية.. وأن شكرها على إعادته إلى الحياة – مرة أخرى – إنما هو تصفية لحساباتهما القديمة معا، من يدرى!! فربما هو يقترب دون أن يشعر في طريق الذكريات، ولقد سبق للدكتور سرباح أن أبلغها بأن ذكراها سوف تطفو على سطح ذاكرته، وأنه سوف يسترد وعيه كاملاً عن الفترة التي عاشها معها، فقط إن هي إلا مسألة وقت، تتخلص فيه ذاكرته من تأثير صدمة أحداث الحرب المزعجة، ثم يعود مسترداً لوعيه وإدراكه بكل دقائق وتفصيلات ماضيه..

لكن ماذا يحدث لو استرد عمر ذاكرته فجأة عن تلك الأشهر المجهولة لديه التي عاشها معها، ووجدها بجواره تعتنى به وتبادله تلك النظرات الولهة العاشقة التي تشى بكل حبها وعشقها له؟! أتستطيع في تلك الحالة أبعاده عنها أو التعلل بأي مانع يحول دون متابعتهما لما كان بينهما من حب وغرام؟! أليس من الأفضل لكليهما أن تنسحب من حياته الآن والفرصة مازالت ممكنة؟، وأن تتركه لزوجته وأسرته ووطنه

وحياته السابقة التي تنبغي أن تكون له وأن يكون لها، أما هي فبكفايتها أمل.. ابنتها التي أهملت أمرها في الفترة الأخيرة الماضية أثناء عنايتها بعمر، وموالاة أعماله ومشاريعه الضخمة في المدينة.. لكنها من أجل أمل لابد لها أن تترك عملها لدى عمر لتعطيها حقها في العناية والرعاية اللذين نذرت نفسها لتحقيقهما لها مرة من قبل حينما تعرضت للأخطار، ومن أجل أمل وفي سبيل تأمين مستقبل حياتها يجب عليها أن تقبل الزواج من غسان الذي ما فتئ يكرر عليها طلب الزواج، خاصة وأنه على وشك أن ينهي فترة إعارته للجزائر، لذا فبإمكانها الرحيل معه بعد زواجهما إلى موطنه في سوريا، وبذا تختفي من حياة عمر إلى الأبد.. فهذا أفضل لكليهما جداً، فما الذي يمكن أن يعود من نبش الماضي مع عمر سوى الحزن والدموع..

تمالكت جميلة نفسها وأخفت مشاعرها تحت ستار العمل الكثيف، الفترة التالية على شفاء عمر، وعودته إلى العمل سليماً معافى كما قد كان، لكنها باعدت بقدر إمكانها فيما بينهما وحافظت على مسافة تفصلهما، حتى لا يفكر في اللجوء إليها أو الاقتراب، ولكم تمزق قلبها شفقة وأسى وهي تلمح في عيني عمر المتطلعتين إليها دائما ذلك التساؤل الممزوج بالألم، يسألها كما يسأل الطفل الصغير أمه: لماذا تمنع عنه ما أعتاد أن تغمره به من عطف وحنان؟

لكن عمر لم يعد طفلاً صغيراً، ولم يعد في حاجة إلى رعايتها بعد، بل هو رجل كبير مهم ويمكنه تدبير أمر نفسه، وكل ما عليها أن تبتعد عن حياته وتتركه بسلام..

خططت جميلة لرحيلها عن عمر بخطوات متأنية مدروسة، كما تخطط الأم في فطام طفلها عن الرضاعة، وهي تعلم أنها لابد سوف تتخذ القرار الذي لا مفر من اتخاذه، رحمة وشفقة بطفلها الذي يجب أن يكبر وأن يواجه حقائق الحياة..

بدأت بأن أقحمت مشاكل أمل في حديثها مع عمر، وأن أمل يجب أن تحصل على المزيد من رعايتها وعنايتها بعد أن اعتلت صحتها، وأنها لذلك يمكن أن تقضي بصحبة أمل عطلة طويلة تكون بمثابة نقاهة واستجمام يقضيانها خارج المدينة في ربوع الجبال البعيدة، حيث الدفء بعيداً عن صخب المدينة ومشاكلها.. ثم عمدت جميلة بعد ذلك لتوزيع أعمال المكتب على العديد من الأتباع والمعاونين المخلصين الذين قاموا به بجد وإخلاص، مما خفف العبء عنها وعن عمر فلم يعد باق منه الكثير، خاصة بعد أن انتظمت الأمور بدخول المشروع إلى حيز التنفيذ.. ثم أرسلت تبلغ عمر بأجازتها العارضة قبل نهاية الأسبوع، ثم أخذت أمل وأغلقت مسكنها وحملت حقائبها وتوجهت إلى قريتها البعيدة النائية الكائنة على ضفاف نهر سيبيجاج.. حيث ينبغي لها أن تكون الفترة القادمة اللازمة لها لكى تسترد أنفاسها الضائعة وتكتسب توازنها المنشود، في فراقها لعمر وارتباطها بغسان..

الفصل العاشر

النـــــداء الخفي

كطفل صغير.. أحس عمر بجميلة تتباعد عنه دون عذر أو سبب معقول، خاصة بعد تلك الفترة التي غمرته فيها بعواطفها التي رآها عارية تشي بحبها له وحنانها نحوه، والتي ظهرت بجلاء أثناء مرضه الأخير.. وكثيرا ما سائل نفسه وهو يتخبط في حيرته: أيكون قد صدر منه – خاصة أثناء مرضه الأخير– أي تصرف طائش نفرها منه، وجعلها تسلك نحوه هذا السلوك المفاجئ الغريب في بعدها عنه!؟.. تساءل في غير تصديق: أكانت مفاتنها التي رآها أمامه مكشوفة عارية أثناء عنايتها به في مرضه الأخير وهماً أم حقيقة؟ أو تكون قد حدثت أشياء بينهما في تلك الفترة من شأنها أن تبعد جميلة عنه، فتكرهه هذا الكره المفاجئ وتتحاشاه كما فعلت في أيامها الأخيرة معه؟.. وأن لم يكن هذا ولا ذاك؟ فلماذا تغيرت معاملتها له ذلك التغير الخطير الذي انتهى بجفاء وقطيعة؟!

لذا فقد انطوى على نفسه يجتر ذكرياته في صمت، وهو يفقد تدريجياً الثقة بالنفس التي اكتسبها على مدى سنوات نجاحه الماضية، انتابه إحساس غامر بالذنب لابد أنه أبعدها عنه ونفرها منه.. أخيراً أفلت زمامه وحدث ما حذر نفسه من مغبته دائماً، لذا فهو وحده الذي يتحمل اللوم والمهانة، كما قد تحملهما مرة من قبل في علاقته المؤسفة بسوزي.. لكن هناك فارق، فسوزي جاسوسة خائنة تجوز معها كل

أساليب الخداع والتضليل، أما جميلة.. ذلك الملاك الوادع الرقيق.. فهي شيء آخر غالى وراق ونفيس.. لذا فقد كان من الأنسب والأسلم له أن يكتفي منها بهذا العطف المشوب بالاحترام، بدلاً من أن يمنى نفسه بأماني لا طائل من ورائها، خاصة مع علمه بأنها مرتبطة بآخر إسمه غسان والعلاقة بينهما تبشر بزواج قريب..

لكنه مع ذلك لم يستطع أن يتخيل نفسه لحظة واحدة بعيداً عن جميلة، فلقد أحس بها تحتل في حياته الشيء الكثير، خاصةً بعد أن ألقى عليها عبء أعماله وتدبير أدق شئون حياته، حتى أصبحت رمزا للأمومة والحنان، أستند عليها بكل ثقله، فلما ذهبت.. أنهار كل كيانه الذي أحس به تلك اللحظة فقط ضعيفاً متناهياً في الضعف، كريشة تطايرت في مهب الرياح العاتية.. لذا فقد ناشدها – في خياله – أن تبقى، ناداها ألا ترحل، لتفعل بحياتها ما تشاء، فلتتزوج بسواه، فلتبقى في مكتبه بلا عمل.. فقط لتظل بالقرب منه وألا تحرمه من مرآها الذي إعتاده وأنس إليه وأعتبره جزءاً متمماً لوجوده في الحياة، إذ أنه – بدونها – لا محالة.. ضائع.

* * *

توقفت جميلة في آفلو لتزور الأميرة عائشة التي تدهورت صحتها وساءت حالتها بعد وفاة زوجها الشريف بن أحمد الذي لازمها طوال سنين عمرها الطويل، فكانا معاً على السراء والضراء.. حتى لقد استوحشت حياتها بعده، واختل توازنها بضياعه المؤلم، فلزمت جنبات

القصر، واعتكفت خلف أسواره العالية أسيرة ذكرياتها القديمة وحياتها الماضية، ودعت الدنيا بكل زخارفها في انتظارها اليوم الذي تلحق بأليفها فيه.. لكنها ما كادت تلتقي بأمل وجميلة، حتى دبت فيها الحياة مرة أخرى، فتدفق نبض الوجود في شرايينها اليابسة، فانتعشت روحها الذابلة، وعادت من العدم لتعيش معهما ومن خلالهما ذكريات شبابها، وقد انطلقت مع أمل تسابقها في ألعابها المرحة، وقد علا صراخهما وضجيجهما حتى ملأ جنبات القصر الفارغة فأعاد إليه بهائه من جديد..

في لحظة انصرفت فيها أمل لبعض ألعابها في حديقة القصر الواسعة، قطعت الأميرة عائشة شرود جميلة، وأفاقتها من أفكارها البعيدة، بسؤالها قائلة: خبريني يا ابنتي عن أسباب زيارتك غير المألوفة تلك.. ومالي أراك على غير العادة مصفرة باهتة وقد زاغت نظراتك إلى بعيد؟.. ما الذي حدث؟..

أجابتها جميلة من خلال نظرتها الكسيرة البائسة قائلة: لقد عاد الغائب يا أمي..

أطرقت الأميرة عائشة برأسها إلى الأرض برهة في تفكير، ثم ما لبثت أن جالت ببصرها في الأفق البعيد كأنما تستشف حجب الغيب الخفي.. هزت رأسها هزات متتالية حكيمة قبل أن تجيب جميلة قائلة: لقد كنت على يقين من ذلك.. لكن ما الذي حدث فجعلك تفرين هلعة إلى هنا؟..

من خلال صوتها المتهدج الخفيض، راحت جميلة تحكي للأميرة عائشة عما حدث بينها وبين عمر منذ لحظة لقائهما المفاجئ في العاصمة، وسفرهما معا إلى وهران.. ثم كيف تداخلت الأحداث وتتالت لتجعل عمر يسافر برفقتها إلى تيارت ليلتقي بابنته أمل في صراعها من أجل البقاء دون أن يعلم بأنها ابنته.. ثم فراقهما التالي الذي ظنت أنه منه لقصتهما معاً.. لكنه ما لبث أن سعى مرة أخرى إليها ليلقاها وليعملا معاً بكل شوقهما القديم، إلى أن كانت فترة مرضه الأخير، فتعرت عواطفها نحوه وضعفت بالدرجة الأولى أمام نفسها، فتركته وفرت إلى بعيد..

كانت الأميرة عائشة تستمع إلى جميلة طول الوقت في صمت، وهى تهز رأسها علامة الفهم والإدراك، كأن كل ما قالته لا يعدو كونه شيئاً عادياً غير خارج عن التوقع والمألوف، كأنما هو من بساطته لا يحتاج إلى إعمال الفكر أو إسداء النصيحة، كأنما قد وجدت فيه ما طابق خيالاتها ورؤاها البعيدة.. لكنها أمام حيرة جميلة البادية لم تلبث أن سألتها قائلة: ما الذي تنوين عمله الآن يا ابنتي؟..

أجابتها جميلة من خلال أوهامها قائلة: من أجل أمل ومن أجل عمر.. سوف أقبل الزواج من غسان، فهو فتى طيب وكريم، يحبني ويحب أمل وسوف أسافر معه إلى بلاده بعيداً عن كل ذكرياتي هنا لأبدأ معه حياتي من جديد..

عاجلتها الأميرة عائشة قائلة: تخطئين يا ابنتي..

بادرتها جميلة متسائلة: أخطئ بتركي لعمر!؟.. أم أخطئ بزواجي من غسان؟..

أجابتها الأميرة عائشة: أنت مخطئة في الأمرين معا..

ثم ما لبثت أن عنفتها باستنكار قائلة: ثم كيف تتزوجين بغسان وأنت حتى هذه اللحظة ما زلت زوجة لعمر؟..

اهتزت جميلة في سماعها لما قالته الأميرة عائشة، وعجبت كيف لم تتبادر تلك الحقيقة إلى ذهنها من قبل برغم بساطتها ووضوحها، ربما لأن مرور الزمن كان قد كرس نسيانها فلم يعد يذكرها أحد.. لكن حيرتها ازدادت وهى تكتشف أنها بتلك الحقيقة الجديدة قد أغلق المنفذ الوحيد المتاح أمامها للهرب، فبدت محاصرة وهى تتخبط في تساؤلاتها قائلة: إذن فكيف السبيل لفسخ هذا الزواج، لأكون حرة في الزواج بمن أشاء؟..

أجابتها الأميرة عائشة وهى تهز رأسها قائلة: أخشى ألا يكون ذلك ممكناً الآن.. فبعد وفاة الشريف بن أحمد الذي حضر زواجكما، وتفرق الشهود الذين حضروا معه، لم يعد هناك من يستطيع أن يشهد على وجوده، وبالتالي لا يمكن لأحد فسخه أو إبطاله.

أُسقط في يد جميلة وهى تكتشف مدى سوء حظها، وعدم إمكانها الهرب من مصيرها التعس الذي ارتبط بعمر برباط وثيق منذ زمن بعيد، بحيث أنها كلما حاولت الإفلات منه زادته الأحداث تشابكا

وتعقيداً.. لكنها ما لبثت أن تعللت بآخر خيط يمكن أن يحل مشكلتها، فأجابت الأميرة عائشة وهى تغالط قائلة: إن زواجي من غسان والسفر معه إلى بلاده البعيدة، لهو الحل النهائي لكل مشاكلي، وإنهاء لعذابي بملاحقة عمر لي..

أجابتها الأميرة عائشة بحكمتها قائلة: لا يا ابنتي.. فلو أن تلك كانت رغبتك الحقيقية لتركتك تفعلين بنفسك ما تشائين، لكنك تهربين من نفسك إلى مصير غير مأمون العواقب، وما هكذا عهدتك ضعيفة متخاذلة.. جميلة التي عرفتها.. كانت بطلة مناضلة..

انخرطت جميلة في بكاء مر طويل، قبل أن تجيب الأميرة عائشة من خلال دموعها المنسابة قائلة: لقد أضعفني حبي لعمر.. وأذلني حنيني إليه..

أجابتها الأميرة عائشة وهى تشمخ برأسها إلى أعلى قائلة: حاشاك من الضعف والإذلال.. وعليك أن تعلمي بأن الضعف للحبيب هو أعلى درجات القوة، والذل له هو أسمى درجات العز والكبرياء..

سألتها جميلة وهى تستشف معانى الكلمات قائلة: إذن ماذا أفعل؟.. وإلى أين السبيل؟..

أجابتها الأميرة عائشة كأنما تعلم من أمر جميلة مالا تعلمه هي، قائلة: لا حيلة للإنسان أمام حكم الأقدار إلا الصبر.. إنه النداء الخفي للروح التي وضعها الله داخل الإنسان لتقوده في الظلام عبر الأخطار،

فتهديه إلى وادي السلام.. لا مهرب يا ابنتي ولا فكاك.. فقط عليك أثناء المحنة أن تنحني لحكم الله.. ثم أن تؤمني بعدالة حبك ونبل غايتك، وبحسب إيمانك ليكن لك..

أجابتها جميلة بخضوع وتسليم قائلة: أومن يا أمي.. واصبر..

* * *

جلس عمر في مكتبه بمدينة تيارت وحده عشية يوم غائم كئيب، بعد أن غادرته جميلة واختفت من حياته كل البهجة والنشاط، وأحس بعزوف عن ممارسة أعماله في مشروع الحبوب، حتى لقد أرجأ مواعيد هامة، واعتذر عن اجتماعات كان قد أرتبط بها من قبل، حتى المكاتبات التي تكدست فوق مكتبه لم يعد يشعر بالرغبة في تفقدها أو الرد عليها، فكأنما أخذت جميلة معها برحيلها كل قواه المحركة التي كانت تدفعه للعمل والنجاح..

بحث عمر طويلاً بين الأوراق المكدسة على مكتبه، التي اختلطت بالعديد من الأدوية والأقراص وأكواب القهوة الفارغة.. حتى عثر على بعض الأقراص المسكنة، تناولها مع قليل من الماء لتهدئة الصداع الحاد الذي ما فتئ يدق داخل عقله دقاته العنيفة المتتالية، يبلغه بأنه يحب جميلة، وأنه بدونها إنسان ضائع لا يقوى على الصمود.. استلفتت أنظاره بعض الخطابات المغلقة وردت حديثاً ضمن بريده المكدس، فأخذ يفضها بلا مبالاة ليعرف ما بها من أنباء:

– كان أولها من وفاء تخبره بأسلوبها الفظ العنيف، بأنها قد أحيطت علماً عن طريق مصادرها الخاصة (لابد عن طريق جهاز مخابرات حازم)، بإهماله لعمله وفضائحه التي انتشرت على كل لسان، نتيجة لجريه المشين وراء الشقراء الجزائرية الساكنة بمدينة تيارت، وتطلب منه أن يعود إلى رشده ويقلع عن غيه ويعود إلى مصر، وإلا فسوف تتسبب له في فضيحة تستخدم فيها نفوذ أبيها في الحزب والدولة للقضاء على مستقبله وعمله بالجزائر.. ومصر على حد سواء.

أخذه العجب قليلاً، وهو يفكر في مغزى خطاب وفاء، فلقد مضت شهور طويلة منذ فراقهما الأخير بما يفيد استحالة العشرة فيما بينهما نتيجة لخلافاتهما المتكررة، فلم اهتمامها المفاجئ به؟! خاصة وقد وصلته أنباء علاقتها بحازم الذي ارتقى أعلى المناصب القيادية في جهاز المخابرات العامة، ونصب من نفسه عدواً لعمر، ما فتئ يكيل إليه اللكمات ويلفق له الاتهامات الباطلة.. وعمر في منفاه البعيد غير قادر على التصدي أو رد العدوان.. عجبه الأشد كان من صحوة وفاء المفاجئة ومطالبتها بعودته إليها وإلا.. لكنه وبقليل من التفكير الهادئ استطاع أن يصل إلى الأسباب الكامنة وراء معاني خطابها، فهي بما جُبلت عليه من أنانية ورغبة في التملك، لا ترضى أن تفوز امرأة أخرى بعمر حتى ولو كانت تعلم جيداً استحالة عشرتهما معاً، فالتفسير الوحيد المنطقي هو أن وفاء وقد تملكتها شهوة الانتقام .. تريد أن تمتع نفسها أولا بتمزيقه قبل أن تلقيه بعيداً عنها، ثم تمضى عنه باسمة هانئة لتبدأ

مع حازم صفحة جديدة وهى تسير فوق ما تبقى من أشلائه في خيلاء..

– كان الخطاب الثاني من والده بمصر، يدعوه لتجميد نشاط الشركة في الجزائر وجعله في أضيق الحدود، استعداداً لقرارات اشتراكية جديدة ينتظر صدورها في مصر، يتوقع أن تشمل شركاته بالتأميم، خاصة بعد أن ازداد نشاط حزب "الاتحاد الاشتراكي" الذي فرض سيطرته على كل نواحي النشاط في الدولة، وينفرد فيه "منصور باشا فهمي" والد وفاء بصنع القرار، خاصة والعلاقة بينهما متوترة نتيجة لمشاكل عمر المتكررة مع وفاء، لذا فالحيطة والحذر واجبان في مثل تلك الظروف التي تجعل صدور قرار تأميم شركات "أولاد حمدان" مرجحاً ومتوقعاً..

وبقليل من إعمال الفكر، اكتشف عمر أن ما جاءه بخطاب والده لم يكن مفاجئاً له.. فمنذ فترة ربما سنوات، وهو مازال في اليمن بعد، وميزان السياسة المصرية يميل نحو التحكم والاستبداد، مما نتج عنه اتخاذ قرارات هامة بمشيئة فردية، من أخطرها حرب اليمن التي استنزفت إمكانيات مصر فيما لا طائل وراءه أو منفعة منه.. كان الرأي الواحد في البداية مستساغاً ومقبولاً حينما نادت الثورة بتصفية الاستعمار وأعوانه، لكن التصفيات ما لبثت أن امتدت تحت مسميات عديدة، بحيث شملت الكثير من الأبرياء والشرفاء دون أن يكون هناك رأي معارض يدافع عنهم أو يقف بجانبهم، وانتهى الأمر بسيطرة أجهزة

قوية على حكم البلاد على رأسها "الاتحاد الاشتراكي" الذي انفرد بالسلطة دون رقيب أو حسيب، وهو ما فتئ ينادى بتكريس الاشتراكية وسحق المشاريع الفردية، لذا فلا غرو أن تكون شركة "أولاد حمدان" بعد أن نجحت وتضخمت، إحدى ضحاياه، وفرصة لكي يظهر فيها "منصور باشا فهمي" انتقامه من آل "حمدان" الذين طالما شعر أمام عظمتهم بضآلة كبريائه، ولإرضاء شهوة الانتقام في ابنته وفاء.

– كان الخطاب الثالث من حزب جبهة التحرير الوطني في الجزائر العاصمة، يبلغه فيه أنه بعد بحث التقارير المقدمة عن مشروع الحبوب الذي تشرف شركاته على تنفيذه.. فلقد تقرر عدم التوسع فيه بالنظر للاحتياج المتزايد للبلاد من الحبوب وعدم كفايتها للتصدير، لذا فقد رؤي الاكتفاء في المرحلة الحالية بنشاط الشركة في العاصمة، وأن يستغنى مؤقتاً عن فرع المشروع في تيارت، وعليه لذلك اتخاذ اللازم نحو تصفيته والعودة في أسرع وقت إلى العاصمة..

وبقليل من التفكير، تبين له أن ما جاء بالخطاب الثالث قد كان متوقعاً أيضاً، فالتزايد السكاني في الجزائر، وربما في كل دول العالم الثالث أيضاً، ما فتئ يلتهم بنهم كل مشاريع التنمية بها، بحيث تحولت دولها التي كانت منذ حين منتجة ومصدرة للقمح بكميات كبيرة، تحولت إلى دول مستوردة له، تستنزف أموالها في البحث عنه وشرائه من الدول الأخرى التي حافظت على معدلات مواليدها، فنمت محاصيلها وفاضت عن الاحتياج..

فكر عمر في مغزى الخطابات الثلاثة التي أتته في وقت واحد، أدت إلى معنى واحد.. يخبره بجلاء أنه قد ذهب إلى أبعد الحدود الممكنة في الجري وراء أوهامه في تيارت.. وكلها تدق أمامه أجراس الخطر، وتدعوه إلى العودة إلى أرض الواقع، وغلق وتصفية أعماله في تيارت والرحيل..

وهو على كل الأحوال لابد.. راحل.. فما الذي له في الجزائر ليبقى من أجله؟ ماض مظلم مجهول ما فتئ يراوده في أحلامه الكئيبة، يتبدى على شكل خيالات مزعجة لحرب ودمار؟.. أم امرأة شقراء ما فتئ يتقرب إليها وهى تتباعد عنه إلى أن هجرته نهائياً، وارتبطت بسواه بما لا أمل بعده في لقاء؟..

نعم.. عليه أن يطوي ماضيه وأن يفك خيامه ويرحل عن المكان، بعد أن جف الكلأ.. وغاضت آبار الآمال.. وأن يتجه في رحيله شمالاً نحو العاصمة، حيث رحلة الذهاب هذه المرة رحلة أبدية بلا عودة أو أمل في رجوع.. ومن يدري إلى أين يقوده مصيره بعد ذلك؟ أ إلى جنة أم جحيم؟!.. أ إلى أعلى مراكز السلطة والحكم في مصر؟ أم حبيس زنزانة مظلمة في سجونها العتيقة؟..

هكذا ركب عمر سيارته الفارهة في صباح يوم غائم من أيام الربيع، بعد أن صفى أعماله بفرع الشركة في تيارت في طريق عودته إلى الجزائر العاصمة.. لكنه استجابة لرغبة مجنونة تملكته فجأة، أعطى أوامره للسائق بأن يتجه بسيارته نحو الجنوب، ليبدأ بذلك رحلته

الطويلة التي أرادها وصمم عليها في بحثه عن حقيقة ماضيه الضائعة طوال شهور عاشها جريحاً فاقداً للذاكرة بين تلال الجزائر ووديانها الجنوبية، منذ سنوات قليلة ماضية..

الفصل الحادي عشر

الأسد المعقوف

عقب انتهاء زيارة جميلة وانصرافها من قصر الأمير عبدالقادر في آفلو، عادت الأميرة عائشة إلى عزلتها تجتر ذكرياتها القديمة، لكنها فكرت كثيراً في الأحداث الفذة التي مرت بجميلة، وكيف أنها في كل مرة تقف على قدميها، تعود الحياة لتطيح بها إلى الأرض من جديد.. ومع ذلك لم تهرب ولم تنثن، بل ناضلت الجيوش وكافحت سوء حظها، وانتصرت دائماً.. إلى أن كانت الضربة الأخيرة التي أطاحت بها وعصفت بكل كيانها ففرت أمامها هلعة، ولم تستطع المقاومة أو الثبات.. أنها ضربة الحب القاضية، التي طالما هزمت قادة وأذلت ملوكاً، وقوضت ممالك وهزت عروشاً، وناء تحت وطأتها كيان جميلة الذي كان حتى الأمس قوياً صلباً لا ينثني ولا يلين.

لكن الأميرة عائشة ما لبثت أن أفاقت من عزلتها، وعادت من أفكارها البعيدة، وقد أنتفض كيانها كله على وقع دقات غير عادية على أبواب القصر، تبينتها فإذا بها لعمر الذي مثل في حضرتها ووقف أمامها منتصب القامة، وقد جاء يسعى وراء ماضيه المفقود..

* * *

عقب أن اختفت جميلة من حياة عمر هذا الاختفاء المفاجئ الغير مفهوم، ظل فترة يتخبط في حيرته وقد أكتنفه الشك وأحاط به الظلام،

وداهمته أحلامه المزعجة القديمة التي كان قد نسيها فترة بقربه من جميلة التي مثلت له بر الأمان وشاطئ السلامة.. كان يصحو من نومه فزعاً وهو يتخيل نفسه ملقى على الأرض ممرغاً في الأوحال، وحوله آلاف من البشر بملامحهم المشوهة يحاولون الإمساك به وتمزيقه، وهو ما فتئ يهرب منهم ويتخفى بين الحفر والشقوق، ثم ما تلبث أن تداهمه سلسلة أخرى من الرؤى الغامضة أقل عنفاً وأكثر سلاسة تصور له حياة باهتة لابد أنه قد عاشها في الفترة التالية على إصابته، فيرى نفسه يعيش خلالها مع أسد أليف معقوف الذيل ما فتئ ينبح بين تلال وهضاب بالقرب من نهر صغير، وملامح لامرأة تشبه جميلة وهي تلوح له بيديها تحية وداع.. وشعرها الأشقر يتطاير مع الرياح.. فيصحو من نومه مرهقاً معذباً وهو يشعر بنداء خفي يدعوه إلى واحة ذكرياته الضائعة بين التلال البعيدة.. حينئذ قرر أن يترك كل شيء خلفه، وأن يخوض المعركة الشرسة بحثاً عن ماضيه المفقود، وقد عزم أن يواجهه مهما كانت بشاعة ما فيه من ذكريات..

في البداية، استعرض كل الخيوط التي خُيل إليه أنها يمكن أن تربطه بهذا الماضي الغامض، كانت جميلة بشبهها الكبير من المرأة الأخرى هي أقوى الخيوط التي تخيلها وثيقة الصلة بماضيه، خاصة بعد اختفائها المفاجئ الذي أثار في نفسه المزيد من الشبهات، لذا فقد قرر البحث عنها والاهتداء إلى مكانها مهما كان الأمر.. عبثاً سأل عنها في كل مكان، فلقد اختفت من منزلها وعملها، أخذت معها ابنتها

أمل واختفت في مكان غير معلوم لأحد، حتى من أصدقائها وأقرب المقربين لها..

في بحثه التائه عن الحقيقة الضائعة، قبل رحيله عن تيارت بأيام، أتجه إلى قلعتها التي ضمت حاميتها العسكرية بعد الحرب، لكنه وجدها قد تغيرت كثيراً، بعد أن هجرتها قواتها إلى ثكناتها الجديدة التي أنشئت على الطراز الحديث خارج المدينة، بينما ظلت هناك قوة صغيرة تحمي القلعة وتقيم بها على سبيل التذكار.

في جولته العشوائية داخل القلعة التي تحولت إلى شبه متحف حربي غاص بالزوار من المدنيين والأجانب، لفتت أنظاره صوراً متعددة لأسد معقوف الذيل بيده سيف مسلول إلى أعلى، وقد زينت بنقوشه جدران القلعة بالمطابقة للنقش الموجود على خاتمه الفضي.. ثم هزه الكم الهائل من مخلفات الحرب المكدسة في متحف القلعة، والتي أعادت إلى ذهنه ضراوة المعارك الطاحنة التي شارك فيها على الجبال، حيث شعب أعزل في مواجهة أقوى الترسانات العسكرية الفرنسية بكل ما حوت من أسلحة الفتك والدمار.. أراد أن يولي هارباً، فلقد أخذ نصيبه من الحرب كاملاً، لكن جندي من جنود القلعة أستوقفه وهو يمعن فيه النظر، تأمله ملياً قبل أن يخاطبه قائلاً: سيدي.. إن لم أكن مخطئاً، فأظنني رأيتك داخل أسوار القلعة هنا منذ سنوات.

أجابه عمر وقد داخله سرور خفي: أظنك لست مخطئا.. إذ أنني بالفعل كنت نزيل القلعة منذ سنوات ماضية..

أجابه الجندي قائلاً: ألست الضابط المصري الذي أحيطت أخباره بالسرية التامة أثناء تواجدك بيننا، لقد كنت أحد حراسك الذين رافقوك في تسليمك لقوات العاصمة، لذا فما زلت أذكرك جيداً..

أجابه عمر باهتمام قائلاً: إنني هو بلا شك، لكنني الآن في زيارة عابرة للمكان، فهلا تكرمت لتجيبني على بعض تساؤلات أسألها لك؟..

أجابه الجندي: اسأل.. وسأجيبك بقدر ما أعلم.

سأله عمر: ألم يحدث أثناء عملك هنا، أن وجدت إنساناً سأل عني أو تعرف علي أو عرف من أين أتيت إلى قلعتكم، أو ماذا كنت أفعل قبل حضوري إليكم..

أجابه الجندي: القصة التي سادت هنا، أنك كنت في مكان ما قريب من هنا، وأنك كنت فاقداً للذاكرة..

ثم توقف قليلا وهو يقطب جبينه كمن يتذكر شيئاً قديماً، ثم ما لبث أن أجابه قائلا: نعم.. تذكرت الآن تلك المرأة التي أتت إلى هنا سائلة عنك، ولما علمت برحيلك انصرفت وهى حزينة..

دق قلب عمر بين ضلوعه وهو يربط الأحداث ببعضها، لذا فسرعان ما سأل الجندي قائلاً: أكانت تلك المرأة تلبس "برنوس" أزرق وتخفي وجهها بخمار أبيض رقيق؟..

أجابه الجندي وهو يحاول التذكر قائلاً: أظن ذلك، فلقد مضى وقت طويل على ذلك، وأظنني نسيت أمرها في زحمة الأحداث..

– حسناً.. ولكن حاول أن تتذكر جيداً ما قالته لك عني، ألم تبلغك بمعلومات عني؟ أين كنت؟ أو ما هو المكان الذي قدمت منه؟.

– لا أظن.. فهي لم تقل الكثير، كل ما أذكره أنها سألت في لهفة عن وصولك إلى القلعة سالماً، فلما أبلغتها بأن ذلك قد حدث، أجابت الحمد لله، ثم انصرفت في هدوء، كأنما أتمت مهمتها التي جاءت من أجلها..

– ألم تطلب أن تراني؟..

– لا.. فقد أبلغتها أنك قد سافرت إلى العاصمة، وكنت أظنك قد سافرت فعلاً، لم أكن أعلم بوجودك بيننا إلا بعد أن انصرفت المرأة، ولو أنني علمت بوجودك لأبلغتها، فلقد كان يبدو أنها صادقة وأمينة..

هز عمر رأسه هزات متتالية وقد بدأت المعرفة تلمع في عينيه، لكنه قبل أن ينصرف من القلعة، التفت نحو أحد النقوش التي تزين جدران القلعة للأسد المعقوف الذيل، ثم سأل الجندي المرافق له وهو يشير على النقش قائلاً: أمكنني أن اسألك عن هذا النقش؟ أو ما الذي يرمز إليه؟..

إنتصب الجندي في وقفته العسكرية علامة المهابة والاحترام قبل أن يجيب عمر قائلاً: إنه شعار أجدادنا من الهلاليين الذين حكموا بلادنا منذ أقدم العصور.. ولقد أتخذه معظم أمرائنا رمزاً لحكمهم، وآخرهم الأمير عبدالقادر، بطلنا الثائر الذي كافح فرنسا حتى هزمها..

– هل يمكنك أن تدلني على كيفية الوصول إلى قصر الأمير عبدالقادر؟!

– لقد تمركز هنا فترة من الوقت، وكانت تلك القلعة أحد قصوره.. لكنه تنقل في أماكن عديدة، وشغل قصوراً كثيرة في شتى أنحاء البلاد.. لذا فمن الصعب أن أدلك على أحدها بالتحديد.

في طريقه إلى خارج القلعة توقف عمر قليلاً، ثم التفت نحو الجندي المرافق له وسأله بإمعان قائلاً: بقى لي سؤال أخير.. تلك المرأة التي تكلمنا عنها.. أيمكنك أن تصفها لي..

فكر الجندي قليلا قبل أن يجيب عمر قائلاً: لست أذكر الآن الكثير عنها، سوى أنها كانت امرأة جميلة.. شقراء..

شكر عمر الجندي ثم إنصرف من القلعة دون أن يحصل على المزيد من المعلومات التي يمكن أن تبين حقيقة تلك المرأة التي سألت عنه صباح تواجده بالقلعة.. لكن كل الدلائل تشير إليها.. المرأة الأخرى الشبيهة لجميلة، التي رآها تقف عند سور القلعة وهى تجهش بالبكاء، مازال يذكر شعوره الجارف بحنينه إليها وشفقته عليها، حتى لقد ود أن يخاطبها أو يلفت نظرها إليه لتراه، لكنه أحجم.. فليته فعل، إذن لكانت قد عرفته ولأمكن لها التعرف عليه وإبلاغه من تكون! وماذا كان!!.. أتراها هي جميلة حقا؟.. إن الشبه بينهما كبير حتى لكأنها هي، لكنه يذكر أنه سأل جميلة هذا السؤال من قبل فنفت أن تكون

هي، بل أنها لم تحضر إلى تيارت لتقيم فيها إلا بعد الاستقلال بكثير.. أم تكون هي حقيقة جميلة ولكنها تخفي عنه أشياء عرفتها عنه في ماضيه لا تريده أن يعرفها؟.. ترى ما كنه تلك الأشياء التي حدثت في هذا الماضي الغامض، التي يمكن أن تكون قد عرفتها جميلة فتخفيها عنه، بل تفر بها إلى بعيد؟..

تخبط عمر كثيراً في إجابته على التساؤلات الغامضة!.. لكنه تذكر فجأة خيطاً مازال لم يتتبعه بعد، التقرير الذي كتبه عنه الشريف بن أحمد، حاكم آفلو وزعيمها الروحي الذي عاصر كل أحداثها منذ إصابته حتى عودته وتسليم نفسه إلى القلعة، لقد ذكر في تقريره أنه كان لاجئاً لدى بعض العائلات الجزائرية التي أشرفت على علاجه ورفضت الإفصاح عن نفسها، وربما لو سأله لأفصح له عن تلك العائلة الكريمة، وربما ساعدوه على تذكر ماضيه، وربما وجد جميلة به، أو ربما تلك المرأة الأخرى الشبيهة بها، ولعرف مدى صلته وعلاقته بها، والتي يرجو أن تكون طيبة خالية مما قد يزعج أو يشين.. إذ لو ثبت أن علاقته بها كانت مزعجة، فمعنى ذلك أنه سوف يفقدها مرة أخرى وإلى الأبد.. وهو وبعد ما كان، لا يطيق مجرد احتمال هذا الخاطر المزعج، وأفضل له أن يعيش على أوهامه بذكراها الطيبة معه، عن أن يفقدها بلا أمل أو رجاء..

لكنه مع ذلك صمم على متابعة الأثر ومعرفة ما قد كان له في آفلو عقب إصابته بها، ولقائه بالشريف بن أحمد ليسأله عما كان له

في بلاده من أحداث.. وهكذا كانت دقاته الغريبة على القصر الذي خلا من شريفه ومازالت تسكنه الأميرة عائشة التي مثل في حضرتها ووقف أمامها مرفوع الرأس منتصب القامة، وهو يطلب لقاء الشريف بن أحمد..

انغلق باب الأمل في وجه عمر بعد ما أبلغته الأميرة عائشة بأن طلبه أصبح غير ممكن ومستحيل، برحيل الشريف بن أحمد عن الدار الدنيا إلى الدار الآخرة، ليلحق هناك بالأبرار والصديقين جزاء على جهاده في سبيل الله والوطن..

حينما لمحت أمارات الأسى على وجه عمر، أجابته الأميرة عائشة قائلة: لا تحزن يا ولدي، فلقد أحبك الشريف بن أحمد كأحد أبنائه، لبطولاتك المشرفة وكفاحك من أجل تحرير الجزائر، لذا فلك أن تكون على ثقة من أنه مات راضياً عنك وهو يباركك..

أجابها "عمر" وهو يجول بعينيه في أرجاء القصر قائلاً: إنني ما زلت أذكره حينما دخلت هذا القصر للمرة الأولى مع زملائي من الثوار، لقد كان كريماً معي، وفياً للثورة وسنداً للمجاهدين، فليرحمه الله برحمته رحمة واسعة ولينزله في جناته مع الأبرار والشهداء والنبيين..

تردد عمر قليلاً قبل أن يتابع حديثه قائلاً: لكن مجيئي هنا اليوم، قد كان لسبب آخر كنت أرجو أن يكون الشريف بن أحمد معيني عليه وموصلي إليه..

هشت الأميرة عائشة في وجهه وهى تجيبه قائلة: إسألني عما تريد، فربما أمكنني إفادتك فيه..

أجابها عمر وهو يغالب تردده قائلاً: قد كنت آمل في أن أعلم منكما عن تلك الفترة التي عشتها بالقرب من هنا فاقداً للذاكرة في الجبال، وما الذي كان لي خلالها من أحداث؟؟..

أجابته الأميرة عائشة وهى تشيح بوجهها بعيداً عنه إلى بعيد قائلة: عليك وحدك أن تبحث عنها وأن تهتدي إليها..

مرة أخرى أحس عمر بالحلقة تضيق حوله والإصرار الكامن في كل من قابلهم على عدم إجابته على أسئلته بشأن ماضيه، برغم أن إحساساً لديه ما فتئ ينبئه بأنهم جميعاً يعلمون عنه ما لا يعلم، وأنهم يتعمدون الإخفاء، لذا فلم يشأ متابعة السؤال في الموضوع لعلمه بعدم جدواه، لكنه ما لبث أن بادرها بسؤاله، وهو يشير على أحد النقوش بالقصر، قائلاً: أتسمحين لي سيدتي بسؤالك عن معنى ذلك الأسد معقوف الذيل المرسوم على ستائر القصر وجدرانه!؟..

أجابته الأميرة عائشة وهى ترفع برأسها إلى أعلى بفخر واعتزاز قائلة: إنه شعار أسرتنا الممتدة عبر تاريخها العريق إلى جدنا المبجل صاحب القصر الأمير عبدالقادر..

عاجلها عمر بسؤاله التالي، وهو يقرب نحوها خاتمه الفضي قائلا: فكيف تأتى سيدتي أن يكون شعار أسرتكم على هذا الخاتم الفضي الملتف حول إصبعي!؟.

أجابته الأميرة عائشة بثبات دون أن تهتز قائلة: بل أنت الذي عليك أن تجيبني على هذا السؤال، فتخبرني عمن أوصل خاتم أسرتنا إليك؟

أخيراً أحس عمر بأنه يقترب من منابع الحقيقة، فها قد ظهر أصحاب الخاتم الذي هو دليله الأوحد الذي يعلمه عن ماضيه، وأنه بالضرورة قد كان ملكاً لأحد أصحاب القصر هنا، لكنه تخبط في أقواله وهو يجيب الأميرة عائشة بما في علمه قائلاً: لقد وجدت هذا الخاتم في إصبعي عشية شفائي من مرضى الخطير منذ سنوات ماضية، وأقسم لك سيدتي بأنني لا أعلم كيف وصل إلي أو من الذي أوصله لي..

أجابته الأميرة عائشة بعطف قائلة: أصدقك يا ولدي، وأعلم أنك من الشهامة والنبل بحيث لا ينبغي لك أن تأخذ ما ليس لك أو ما لا حق لك فيه..

تردد عمر قليلاً قبل أن يستطرد قائلاً: أرجوك سيدتي إذا لم يكن هذا الخاتم ذو قيمة كبيرة لكم، أن تبقيه معي، فهو قطعة عزيزة من نفسي ما فتئت تذكرني بحياتي هنا وتشدني إلى الماضي المجهول..

أجابته الأميرة عائشة وقد رق صوتها له قائلة: خذه يا ولدي فكله لك، فلقد ربحته بكفاحك من أجل الجزائر، وأن الأمير عبدالقادر وأحفاده من الشرفاء والنبلاء الذين لبسوا هذا الخاتم قبلك، ليرقدون الآن في مثواهم بسلام، وهم على يقين من أن خاتمهم في يد أمينة شريفة، لا تقل عنهم نبلاً وشهامة وإقدام..

وقع كلام الأميرة عائشة على قلب عمر برداً وسلاماً، فطمأن خواطره الحائرة بشأن ماضيه، وأنه قد كان داعياً إلى الفخر بدرجة تجعل حفيدة الأمير عبدالقادر تأمن على خاتم جدها معه دون أن يكون في ذلك إنتقاصاً من قدره.. لذا فقد كفاه هذا القدر الذي وصل إليه عن ماضيه المجهول، وإنحنى أمام الأميرة عائشة وهو يودعها قائلاً: أرجو أن أكون على مستوى ثقتك سيدتي، وأن أحافظ بشرف على خاتم أسرتك طالما كنت حاملاً له.

– أذهب الآن يا بني على بركة الله ترافقك السلامة، فأنت بكفاحك من أجل الجزائر أثبت أنك قطعة عزيزة منها ينبغي لها أن تبقى هنا.. أذهب أبحث عن الحقيقة الضائعة وأنا على يقين الآن من أنك لابد واجدها.. فقط ما عليك إلا أن تغمض عينيك وأتبع أحاسيسك، وسوف تقودك إلى هناك، وحينما تصل إليها، ستجد أنها أجمل بكثير مما تتوقع، وسوف يكون في اكتشافك لها الأجر والثواب على معاناتك الطويلة..

أجابها عمر وهو يقبل يدها بخشوع قائلاً: سأفعل يا أمي.. فتأكدي من هذا.. والشكر لك على كل حال..

ودعها عمر وإنصرف بعد أن انقطع آخر أمل كان يعول عليه في البحث عن ماضيه المفقود، فبرحيل الشريف بن أحمد الذي كان يعلم تلك العائلة التي استضافته أثناء إصابته في الجبال.. يكون قد انمحى كل أثر يمكن أن يتتبعه أو يقوده إلى هذا الماضي الغريب، فتلك إذن هي مشيئة الأقدار التي لا تقهر، وعليه شاء أم أبى الامتثال إليها، إذ أن للقدر قانون غير مكتوب، يحمل في ثناياه برغم قسوته الشفاء للجروح والحل للكثير من المشاكل القديمة المستعصية، التي يجب أن تبقى حبيسة الماضي، لما في إعادة نبشها من تجديد للآلام والأحزان.

لكنه ما فتئ برغم ذلك يذكر تلك الكلمات الغريبة التي ودعته بها الأميرة عائشة، كأنما هي تعلم من أمره ما يجهل.. بل أنه لعلى يقين الآن من أنها، مثل كثيرين غيرها ممن ألتقى بهم، تخفي عنه ما تعلمه من ماضيه لأسباب لا يعلمها.. لكنها مع ذلك لم تشأ أن تتركه إلا بعد أن زودته بالشفرة التي يمكن بها أن يحل خريطة الكنز المجهول، فلقد أبلغته بأن الحقيقة الضائعة أجمل مما يتوقع.. لذا فقد نزعت بكلماتها تلك المهابة التي ما فتئت تبعده عنها كلما أحس باقترابه منها، إذ أنه في كل مرة يقترب من الوصول إلى الحقيقة، كان يتراجع لخوفه من أن تكون تلك الحقيقة مؤلمة أو مخيفة، لكن ها هي ذي الأميرة عائشة تخبره بأن تلك الحقيقة جميلة، وأنها ثمرة وأجرة لدأبه وكفاحه الطويل

من أجل الوصول إليها.. مثلما قصص الأطفال والغزاة في بحثهم عن جزيرة الكنز.. إذ لابد أن يقطعوا في سبيل الوصول إليها سبعة بحور مظلمة.. يحاربون خلالها الغول.. والتنين، وينتصرون في نهايتها على أعتى المردة وأضل الشياطين.. لذا فما عليه إلا أن يعمل بنصيحتها، فيغمض عينيه ويدع أحاسيسه تقوده إلى ماضيه المجهول..

الفصل الثاني عشر

الحصـــاد

في طريق عودته من آفلو، طلب عمر من سائق سيارته الدوران حول المدينة في محاولة للتعرف على ما يذكره من آثارها، علَ أحدها يمكن أن يشد انتباهه إلى ما يحاول البحث عنه، ولقد هاله التغيير الكبير الذي حل بالمدينة فغير من ملامحها، بعد أن أُزيلت الكثير من مبانيها القديمة، وأُقيمت بدلاً منها أحياء جديدة لتدارك الدمار الذي خلفته الحرب بها.. لكن بعض الملامح بقيت على حالها كما كانت قبل الاستقلال، منها الحانة التي آوته مع أعز رفقائه: قدور وبن دحمان عشية انتصارهم الساحق على الفرنسيين وإجلائهم عنها، كذلك كانت هناك التحصينات الجنوبية للثكنات الحربية التي تحصن بداخلها قبل هزيمة قوته الصغيرة أمام هجمة الفرنسيين الغاشمة على المكان.. ففي هذا المكان كان مقر قيادته، وهنا سقطت القذيفة التي أسقطته.. أغمض عينيه وهو يستمع لدوي الطلقات وانفجار المدافع وهجوم الدبابات، فلم يتمالك سوى أن يضع يديه على أذنيه كأنما يمنع عنهما الخطر المحدق، مما جعل سائق سيارته يهب لمعونته وهو يسأله باهتمام قائلاً: هل أنت بخير يا سيدي!؟..

أجابه عمر وهو يتمالك نفسه قائلاً: نعم.. أعتقد أن في ذلك القدر الكفاية، ولنعد الآن من حيث أتينا..

في طريق عودته إلى تيارت، والسيارة تقطع الطريق الأسفلتى الناعم الملتوي بين الجبال في بطء، اعتمد عمر رأسه بين يديه وقد توزعته الظنون، فها قد عاد من كل الطرق خائباً.. حتى نصيحة الأميرة عائشة إليه، التي ظنها تحمل في طياتها الشفرة التي سوف تقوده إلى البحث عن الكنز المفقود، إذا بها مزيفة، فهو في اللحظة التي أغلق فيها عينيه في المعبر الجنوبي لمدينة آفلو حيث كان يرابط، لم يسمع سوى دوى القنابل وأزيز الطلقات التي أعادت إليه كل الذكريات المؤلمة القديمة، لذا فلم يبق أمامه الآن إلا أن يفتح عينيه جيداً يتأمل الجبال الشاهقة من حوله في انحداره نحو الوادي الأخضر في ذلك الأصيل الممتع من فصل الربيع الدافئ، وقد اكتست الرُبى بشتى أنواع الزهور فبدا منظرها بديعاً خلاباً، أجمل صورة يمكن أن يطبق عليها عينيه في إغفاءته القصيرة التي حاول أن يسترد بها بعضاً من قواه الخائرة، ويستجمع من خلالها مشاعره المشتتة، وقد أطبق عينيه وأسلمها لنعاس رفيق..

فجأة.. وصلت أسماعه أصواتاً خافتة مميزة استطاعت حواسه أن تلتقطها من خارج السيارة، أشبه بخرير ماء ينساب على صخور نهر متدفق الجريان.. أغمض عينيه أكثر وهو يجهد ذاكرته ليتذكر.. ها هو ذا يعمل بنصيحة الأميرة عائشة – مرة أخرى وأخيرة – يغمض عينيه ليتبع أحاسيسه، وهو يستمع لصوت الماء ينساب على قاع النهر الضحل.. أنه نفس الصوت الذي ما فتئ يتردد في ذاكرته من نهر

الذكريات، فإذا عقله قد تنبه فجأة وقد انتفضت معه كل مشاعره، حتى لم يتمالك إلا أن صاح في سائق سيارته قائلا: قـف..!!

تردد السائق في إطاعة الأمر، وهو يحاور عمر مستفسراً: ماذا؟.. هنا؟.. في وسط الماء؟! ربما بعد أن نغادر النهر؟..

لكن عمر كرر الأمر وقد تعالى صراخه قائلاً: قف حيث أنت.. مكانك.. لا تتحرك خطوة واحدة..!!

أمام صرامة الأمر ووضوحه، أطاع السائق وقد كف عن النقاش، فتوقف بسيارته في عرض النهر المتدفق في اللحظة التي أفاق فيها عمر من تأملاته الداخلية.. يفتح عينيه ببطيء كأنما يخاف أن يشاهد الحقيقة التي بدأت تغزو عقله في دفعات هائلة.. لقد كان المكان الذي يقف فيه هو نفس المكان الذي انطلق منه إلى تيارت في الليلة التي أسلم نفسه لقلعتها عشية عودة الذاكرة إليه.. هو بنهره المتعرج الضحل، وقنطرته الحجرية العتيقة الضيقة التي تعلو جانب سيارته، بأحجارها التي حفرت أخاديدها في أعماق ذاكرته، في ليلة هائلة قضاها مجاوراً لتلك الأحجار يتأملها في بلادة، وهو لا يعرف شيئاً عن نفسه، من أين جاء وإلى أين يجب عليه المسير؟.. وتلك هي شجرة البلوط الضخمة التي قضى ليلته الهائلة تحت أغصانها محتمياً بها من البرد والصقيع، جوعاناً عطشاناً في انتظار أيد رحيمة تمتد إليه فتعينه على ما هو فيه، إلى أن أدركته شاحنة الرعاة الذين أطعموه وسقوه وآووه مع خرافهم

أعلى الشاحنة إلى أن أوصلوه إلى تيارت فأسلم نفسه إلى حاميتها وكان له من بعد ما قد كان..

نعم أنه نفس المكان الذي أتى منه، وولد فيه للمرة الثانية ميلاداً جديداً عقب استرداده لذاكرته التي كانت مفقودة، هو بعينه مطابقاً للصورة التي ما فتئت تراوده في أحلامه البعيدة.. ولقد جاء إليه خائضاً في مياه النهر من هذا الاتجاه الآتي من منبعه، إنه يذكر أنه في المرة الماضية كان يسير فيه كما نصحه الصبى في اتجاه مصب النهر إلى أن وصل إلى هنا، ومعنى ذلك أنه لو سار في عكس اتجاه النهر، لأمكنه أن يصل إلى المكان الذي استرد فيه ذاكرته، والذي لابد أنه كان يعيش فيه مع تلك الأسرة الكريمة التي ساعدته في محنته وظلت من بعد في طي الكتمان.. إنه يذكر حاله حينما غادر المكان لآخر مرة، كان الوقت قريباً من الأصيل كما هو الآن، وحينما وصل إلى حيثما يقف بسيارته الآن كان الليل قد أوشك على الدخول، فلو أنه سار في عكس الاتجاه لأمكن له إدراك المكان الذي كان فيه قبل الليل.. ظروف مشابهة لميلاد آخر جديد عليه ألا يتردد في الاستجابة لنداءاتها، عليه أن يحزم أمره وأن يتخذ القرار ويبدأ حالا قبل أن يحل الظلام فيتعذر تمييزه للكائنات، عليه أن يختار: الآن.. أو إلى الأبد..

فجأة.. فتح عمر باب سيارته، ترجل منها وهو يخلع عنه سترته، كما كان حاله ذلك اليوم، وخاض برجليه في الماء الضحل، بين دهشة السائق وعجبه وهو لا يصدق عيناه!.. لكن عمر لم يمهله كثيراً، إذ

سرعان ما أصدر إليه تعليماته وهو يبتعد عنه، يأمره أن يتابع سيره إلى تيارت وأن يتركه وحده.. وأن ينساه.. ثم سرعان ما صعد إلى أعلى النهر دون أن يعبأ بصيحات السائق وتحذيراته التي تابعه بها إلى أن اختفى في داخل الأدغال والأحراش الكثيفة الملتفة حول النهر، فأنصرف السائق بسيارته وقد ظن بعمر مساً من الجنون.

لكن عمر لم يكن مجنوناً، فلقد كان يسير أخيراً على الطريق الصحيح الموصل إلى الحقيقة الضائعة أو الكنز المفقود..

* * *

أن المتتبع لطريق تيارت/ آفلو، يمكن أن يعلم من أمره ما يفسر لنا هذا الغموض، إذ يمكن لسائل ما أن يسأل: لماذا مادام هناك ماء يعترض الطريق تخوض فيه السيارات، لماذا لم ينتبه إليه عمر في سفره من تيارت إلى آفلو؟!.. ولماذا لم ينتبه إليه إلا أثناء عودته فقط.. وليس قبل ذلك؟..

الذي على علم ودراية بطريق آفلو القديم في ذلك الوقت، يعلم أنه بالقرب من مدينة آفلو يوجد وادي يقطع الطريق يسمى "نهر سيبيجاج".. تتجمع بداخله مياه الأمطار والسيول في أوقات معينة من السنة فتتدفق داخل مجراه الضحل مكونة شبه نهر موسمي يجف في فصلى الصيف حيث الجفاف والشتاء حيث الثلوج.. ولقد أقيمت أعلى هذا النهر الضحل قنطرة حجرية قديمة لا يكاد تتسع إلا لسيارة واحدة

تسير في اتجاه واحد، أُتفق على تخصيصها لمرور السيارات الصغيرة القادمة من جهة تيارت في وصولها إلى آفلو.. أما الشاحنات الكبيرة، أو السيارات القادمة بعكس الاتجاه، فلا مفر من أن تخوض في ماء الوادي الضحل بجوار القنطرة في مكان معبد بالأحجار الضخمة، حتى لا تغوص عجلاتها في الوحل أو الرمال، وبذا يمكنها أن تجتاز النهر لتواصل سيرها بعد ذلك على الطريق الذي يستقيم ويتسع إلى أن يصل إلى تيارت..

وهكذا فإن عمر في قدومه من تيارت إلى آفلو يكون قد مر بسيارته على القنطرة الحجرية أعلى وادي سيبيجاج، فلم ينتبه لخرير الماء الذي خاض فيه من قبل ذات مرة وهو محملاً مع الخراف أعلى الشاحنة في طريقه إلى تيارت في ليلته الليلاء التي قضاها مستوحشاً مع البرد والخيالات.. فلما رجع عمر من آفلو في رحلته الأخيرة، وهو على متن سيارته الفارهة، وخاضت سيارته داخل مياه النهر الضحل، استعادت ذاكرته على الفور ما كان لها مع ذلك الصوت الغريب لخرير النهر الذي قل أن يوجد مثيل له في أي مكان آخر سوى هنا.. في سيبيجاج، لذا فقد استعادته ذاكرته على الفور، وتداعت بالتبعية له كل ما ارتبط به من ذكريات ماضيه المفقود..

كان كل شيء يسير سيره الحسن في رحلة عمر الصاعدة خلال نهر سيبيجاج، فالوقت ربيع.. كما كان حاله آخر مرة غادر فيها المكان، وهو يرتدى ملابس خفيفة.. كما كان يرتدي آخر مرة غادر

فيها المكان.. وهو ما فتئ يتبع أعالي النهر كما كان دأبه في هبوطه منه آخر مرة غادر فيها المكان.. لذا فقد كانت ذاكرته تعمل بطريقة آلية منتظمة، ولكن في عكس الاتجاه.. وكلما وصل إلى مكان تذكر الذي يليه، إلى أن وجد نفسه أخيراً بجوار القنطرة التي أسترد عندها ذاكرته، وكان من اليسير عليه بعد ذلك أن يسترد ما قبلها من ذكريات سطعت فجأة في عقله، فقادته إلى المزرعة، وكلبها "الباشا" الذي طالعه بترحاب وهو ما فتئ يتمسح به ويلاحقه بنباحه الأليف.. إلى أن وصل إلى الكوخ الحجري المقام أعلى المزرعة على مشارف الجبل، ليدق بابه دقات وجلة بعد حلول الظلام.. وهو يخشى مما سوف يجده خلف الباب.. يتساءل في اضطراب: أفقد وصل أخيراً إلى حقيقة ماضيه؟! أم أنه ما فتئ يسير وراء أوهامه – كما قد كان دأبه دائماً – في طريق مسدود..

* * *

حينما انغلقت كل السبل أمام جميلة لم تجد من سبيل سوى أن تلجأ إلى مزرعة أبويها في الضواحي القريبة لقرية "سيدى بوزيد"، فاصطحبت معها أمل وتوجهت إليها في ساعة مبكرة من النهار، حيث استقبلها أبويها بالشوق والترحاب بعد غياب طويل، لكنهما لم يستطيعا أن يخفيا دهشتهما من تلك العودة المفاجئة، ولم تغب عن فطنتهما ذلك الصمت المريب الذي إكتنف إبنتهما جميلة، فجعلها غائبة اللب شاردة النظرات، وفي كل مرة يهم فيها أبوها بسؤالها عن حالتها تنهاه أمها

العجوز، التي أحست بفطرتها بعظم ما تعانيه ابنتها من قهر وعذاب، مما جعلها تفر إلى المزرعة البعيدة، تاركة خلفها كل الطموحات الكبيرة والتطلعات التي طالما سعت إليها وحلمت بها.. وهي تعلم ابنتها جيداً، فهي كتومة دائما، ولن يجدي معها كثرة النصح والكلام، وأن كل ما تحتاجه هو الوقت لتعالج نفسها – كما اعتادت – بنفسها فتبرأ من جديد..

هكذا أمضى الجميع ما تبقى من النهار في تجهيز الكوخ الحجري المقام أعلى التل تحت شجرة البلوط العتيقة العالية، ذلك الذي شهد الفترة القصيرة التي زفت فيها جميلة لعمر، والذي أصرت جميلة على إعادة تجهيزه لتلوذ به وتنفرد بمعيشتها فيه مع ابنتها أمل، تجتر ذكرياتها وتستعيد أمامها أحداث حياتها التي حفلت بكل غريب عجيب، بداية من زواجها بعمار، والتحاقها بالعمل المسلح مع المجاهدين، ثم موت عمار ومقتل عزوز الخائن.. ثم منحة الأقدار لها بعمر، الذي التقته وهو بين الموت والحياة فأعادته إلى الحياة، فكان لها نعم العوض، ثم ما تلا ذلك من فقدانها له وولادتها لأمل.. وكفاحها الجديد من أجل الحياة، إلى أن التقت بغسان الذي أوشكت أن تتزوجه، إلى أن ظهر عمر فجأة مرة أخرى، فقلب كل حساباتها، وعاد حبه يملأ قلبها، ذلك الحب الذي ظنت في لحظة أنه مات لأنه مستحيل، فإذا به مازال يعيش نابضاً بكل قوة الحياة، لكنه مع ذلك مازال على العهد به مستحيلاً.. فكيف التصرف؟ وإلى أين السبيل؟!.. كيف الفكاك من

قبضة الزمن الذي ما فتئ يلاحقها بأحداثه الصعبة ومفاجآته المستحيلة؟..

أفضل شيء أن تبقى حيث هي، ترتد إلى مهد طفولتها ومدارج صباها، تلوذ بالمكان الوحيد الذي عرفت فيه طعم السعادة مع عمر حينما كانا زوجين حبيبين، يقفل عليهما باب الكوخ الحجري العتيق، فربما وجدت بين جدرانه السكينة والسلام اللذين افتقدتهما خارجه، وربما هداها تفكيرها إلى حل ومهرب من الدرب المظلم والطريق المسدود الذي وصلت إليه نهايته الصعبة..

ثم فجأة أنار ذهنها خاطر مفاجئ غريب، وهى تتذكر آخر كلمات الأميرة عائشة لها، وهى تطلب منها أن تؤمن بعدالة حبها لعمر ونبل مقاصدها فيه، فهي لم تحبه لمال أو جاه، بل أنها التقته جسداً مهترئاً وروحاً معذبة، صبت فيه من روحها بالقدر الذي أعاده إلى الحياة، فلما عاد إليه المجد والجاه والسلطان زهدت فيه وتخلت عنه إلى سواها، من عرفها قبلها وعاد إليها بعدها.. فأي نبل يمكن أن يسمو على ذلك في علاقة المحبين؟.. لذا فهي تشعر الآن عن يقين، بأن الله لابد سوف يكافئها على صبرها وامتثالها، فيعود إليها عمر هذه المرة خالصاً إلى الأبد..

تنبهت جميلة لليل الذي غلف المكان بعد أن ولى النهار، فقامت إلى مصباحها تشعله فأنار الموجودات بلونه الأصفر الباهت الضئيل، ثم عمدت إلى المدفأة لتزودها بالمزيد من الأخشاب لتدرأ برد الليل الذي

إجتاح المنطقة.. بينما كانت أمل منهمكة في بعض ألعابها في جانب من الكوخ تدعوها لمشاركتها اللعب، وهى تستمهلها بعض الوقت ريثما تفرغ من طعام العشاء.. كان هناك نباح مفاجئ لكلبهم "الباشا" الضخم أسفل المزرعة، لكنه ما لبث أن هدأ واستكان وهو يصدر أنيناً ولهاثاً كأنما قد عرف القادم وأنس إليه.. ثم سمعت وقع خطوات مترددة وجلة على الطريق الصخري الذي يصعد إلى كوخها، فدق لها قلبها في اضطراب ونزق.. حتى وقبل أن تفتح الباب.. عرفته، وأنه بالضرورة لابد أن يكون عمر.. حبيب قلبها ومالك روحها وعقلها، فهو وحده صاحب تلك الخطوات الرشيقة القوية، وهو وحده صاحب تلك الدقات المميزة على الباب، وهو وحده.. صاحبها وصاحب الدار..

* * *

سمع الشيخ عمران والد جميلة نباح الكلب الغاضب في لقائه بالزائر الغريب للمزرعة، في البداية حسبه قد رأى قطة أو حيوانا أفزعه، لكن نباح الكلب ما لبث أن تزايد بطريقة يصعب تجاهلها مما جعله يهرع إلى بندقيته يجهزها في انطلاقه إلى الخارج لمعرفة الزائر الغريب، فلم يكن من المعتاد زيارتهم في الليل، خاصة وأن عمال المزرعة ينصرفون قبل حلول الظلام إلى منازلهم القريبة، ولا يبق أحد سواهم للمبيت في المزرعة.. لكن نباح الكلب ما لبث أن توقف إثر صوت خفيض لرجل ينادي على الكلب في ألفة، ثم ما لبث أن تحول نباح الكلب إلى أنين المعرفة والتمسح بالزائر الغريب..

حينما هم الأب العجوز بالخروج لتبين الأمر، نهته زوجته، طلبت منه البقاء وأن يظل كما هو فلا خطر هناك، بل أنها أضافت في هدوء ويقين قائلة: لقد عاد..

فكأنما فهم الأب آخر الأمر ما عنته امرأته، فألقى من يده سلاحه، وعاد إلى فراشه الخشن يستكمل رقاده كما قد كان..

* * *

كان "الباشا" هو أول قاطني المزرعة الذي إلتقى بعمر، وحدث بينهما التعارف بعد طول غياب، فهذا هو أذن الأسد معقوف الذيل ما فتئ يراوده في أحلامه وهو ينبح ويتمسح به.. ها هو ذا أمامه الآن حقيقة واقعة ولم يكن وهماً أو خيالاً كما ظن أنه يكون، ظل عمر لحظات يربت على ظهره في ألفة ومحبة وقد استكان له الكلب وهو ما فتئ يتمسح به ويلعق يديه الممتدتين نحوه مرحبا بعودته..

لكن عمر كان مشغولاً عنه بالتفكير في ذلك الكوخ المقام أعلى الجبل، الذي أضيئت نوافذه وانبعثت منه رائحة الطعام الشهي بينما تصاعد دخان مئذنته إلى أعلى السماء.. لكنه سرعان ما تخلص من الكلب وتقدم بخطواته الوجلة يرتقى الطريق الحجري الصاعد إلى الكوخ، كأنما يصعد من خلاله إلى السماء.. وبيد مرتعشة دق الباب الذي ما لبث أن انفتح على مصراعيه.. في نفس اللحظة التي ارتد فيها عمر خطوات إلى الوراء، وهو يمسح عينيه بيديه مرات كأنما لا يصدق

ما يرى، بل يظن أنهما تخدعانه.. فلقد شاهد على العتبة تقف اثنتان من النساء.. إحداهما هي تلك المرأة التي ما فتئ يراها في أحلامه الجميلة، والأخرى "جميلة".. تقفان جنباً إلى جنب.. ثم ما لبثتا أن اجتمعتا في واحدة.. هي زوجته وحبيبته جميلة، تقف أمامه في صمت وهي ترتدى قميص نومها الشفاف الذي يظهر تلك المفاتن التي طالما حلم بها وعلى شفتيها ابتسامة.. ما أسرع ما ارتمت بين أحضانه وقد أطلقت لدموعها العنان.. ضمها عمر إلى صدره بقوة كأنما يخشى أن تهرب أو تعود إلى عالم الخيال، أجابها وقد اتضحت لعقله الحقيقة كاملة وصفت أمامه الرؤية قال: جميلة.. لقد عدت،.. أنه أنا.. عمر..

أجابته جميلة من خلال دموعها وهى تلوذ بأحضانه قائلة: أعلم يا حبيبي.. لقد كنت في انتظارك دائماً..

أبعدها عمر عنه لحظة ليتأملها ملياً، وهو يمسكها بين يديه بقوة كأنما ليتحقق من وجودها أمامه حقيقة وأن خياله لا يخدعه، ثم ما لبث أن قال: إذن فقد كنت دائماً أنت.. من البداية حتى النهاية.. أنت دون سواك.

أجابته جميلة وهي تبتلع دموعها قائلة: نعم.. نعم.. كنت أنا..

انتزع عمر يد جميلة ليضعها بين يديه، راح يتفقدها بعناية وهو يضع خاتمه الفضي بجوار خاتمها، فتطابق النقشان بأسديهما المعقوفي الذيل حاملي سيف الحق البتار.. والحقيقة تترسخ في ذهنه، تذكر

الأميرة عائشة وزوجها الشريف بن أحمد، اللذين أهدياه هذا الخاتم وغمراه بالفضل والجميل حتى أوصلاه إلى هنا، خاصة الأميرة عائشة التي أمدته بتعليمات الوصول، ولولاها لكان حتى الآن مازال سابحاً في الظلام.. فتمتم من خلال عينيه المندتيين بالدموع قائلا: ليرحمهما الله..

لكنه ما لبث أن التفت عن جميلة ليتبين خلفها أمل القابعة في ركن الكوخ تتأمله في صمت متحفز، كأنما لتقرر اللحظة المناسبة التي تنطلق فيها إليه.. لكن عمر بقى لحظات يقف أمامها حائراً، يتأملها في حيرة كأنما يسترجع الأحداث ليعرف منها من تكون في ماضيه، وحينما فشل في الربط والاستنتاج.. أسرعت جميلة تحمل أمل بين يديها، وتقدمت نحوه لتلقيها بين ذارعيه قائلة: أمل.. أنها كلها منك.. ولك..

إحتضنها عمر بين يديه لحظات في صمت، يستشعر من خلال أحضانها الدافئة قوة المشاعر الدافقة.. يحس بدقات قلبها الصغير متداخلة مع نبض وجوده.. فكأنما يستشعر من خلال نبضها الواهن قوة الروح المستمدة منه الكامنة فيها.. ثم ما لبث أن رفعها بين ذراعيه ليطيح بها في الهواء إلى أعلى وقد تعالت ضحكاتهما معا..

وهو في قمة السعادة ونشوة الانتصار، ترددت في ذاكرته آخر كلمات الأميرة عائشة له، وهى تخبره بأن الحقيقة الضائعة هي شيء جميل، تستحق من أجل الوصول إليها مشقة البحث والتفكير، وأن في

اكتشافه لها الأجر والثواب اللذان سوف يعوضانه عن كل المشقة والعناء..

تلقف عمر أمل بين يديه وهى تسقط من الهواء.. ثم ضمها إلى صدره بحنان وهى تتعلق إلى رقبته بكلتا يديها في محبة غريزية معبرة عن صلة الدم بينهما، بينما أحاط جميلة بذراعه الأخرى، وهو يبتعد بهما عن تيار الهواء البارد في مدخل الكوخ، ثم بقدمه .. أغلق الباب..

* * *

عبثاً أجرت السلطات الجزائرية أبحاثها لاقتفاء أثر عمر الذي اختفي ما بين الوديان السحيقة.. تلك التي اخضرت وأينعت على ضفاف نهر سيبيجاج، غسل عمر في مياهه ماضيه فعاد ناصع البياض، وتنعم في كنفه بحبه لجميلة وأبوته لأمل، دون أن يفكر في العودة أو الرجوع.. كأنما يختفي في ولاية "سيدي علي" و "سيدي بو زيد"، من هول أعظم ما فتئ يتقدم ليغطي المنطقة العربية بردائه الأسود الثقيل، والذي تحدد لمقدمه الخامس من يونيو/ جوان/ حزيران عام 1967، حيث كانت محصلة غفلتنا وحصاد أخطاء السنين..

* * *

أما القمح.. فهو مازال ينمو بغزارة وتجود زراعته ويطيب حصاده مع الأغاني في الربيع.. على ضفاف نهر سيبيجاج،،،

انتهى الجزء الثاني

كلمة المؤلف

طبعت **سيبيبجاج** طباعة أولية عام 2001، قلائل هم من لاحظوها في ذلك الحين، منهم سيادة الدكتور/ سليمان الشيخ، سفير الجزائر في أوائل الألفية الثالثة، والذي أعطى **سيبيبجاج** شهادة بكلمته الطيبة التي تصدرت طبعتها الأولى، وزاد فأكرمني بدعوته لي بزيارة الجزائر ضمن الإحتفالية السنوية لوالدة شاعر الجزائر الراحل/ مفدي زكريا، حيث كُرمت بمدينة "غرداية" بأقصى جنوب الجزائر، والتقيت بمن تبقى من مجاهدي ثورة التحرير الجزائرية على قيد الحياة، وفي كلمتي التي ألقيتها في المؤتمر نيابة عن الوفد المصري، رفعت رواية "**سيبيبجاج**" عالياً في الهواء، وسألت الحاضرين ومن بينهم الرئيس الجزائري/ عبدالعزيز بوتفليقة، ولفيف من السادة الوزراء، أذكر منهم بكل إعتزاز الوزيرة الأديبة/ زهور ونيسي، والدكتور/ عز الدين ميهوبي وكان رئيساً لاتحاد كتاب الجزائر في ذلك الوقت (وزير الثقافة الجزائري حالياً)، حيث ربطت بيننا صداقة امتدت لسنوات، رفعت **سيبيبجاج** عالياً في الهواء وسألتهم: من منكم يعرف **سيبيبجاج!؟** لكن أحداً لن يجيبني على السؤال، فلم تكن قد طبعت طبعات تليق بها..

وها أنذا أعيد **سيبيبجاج** مرة أخرى إلى النور في طبعة جديدة، وظني أنها لن تغيب عن سجل الخلود، خاصة بعد أن شحذها لفيف من كبار الفلاسفة والمفكرين، أبوا إلا أن يدبجوها بكلماتهم الحكيمة بعد أن سبروا أغوارها، وساحوا في فيافيها، أخص منهم بالشكر وعرفان الجميل كل من العلامة الكبير الدكتور/ محمد حمدي إبراهيم، النائب الأسبق لرئيس جامعة القاهرة، وأستاذ الأدب بكلية الآداب جامعة القاهرة، وهو أحد المحكمين الستة الذين أهدوني جائزة الدولة التشجيعية في أدب الرحلات عام 1996م، عن روايتي بعنوان "آخر العائدين من بني هلال"، والتي طُبعت بالهيئة المصرية العامة للكتاب، رحلة بالصحراء الأفريقية وبلدان المغرب العربي طولها أربعة آلاف كيلومتر، قطعتها مع المهالك والأخطار، رأيت خلالها ما لا عين رأت، فكتبت عنها وكوفئت.

كذلك أخص بالشكر وعرفان الجميل الصديق الأوفى والعالم الجليل سيادة السفير **الدكتور/ عبدالولي الشميري**، الذي أبى إلا أن يزين **سيبيبجاج** بإحدى قصائده، أعني كلمته التي فاقت قصائده في الصدق والإحساس، لتكون المدخل لروايتي **سيبيبجاج** لمن أراد الدخول، وأخيراً وليس آخراً أقدم شكري وعظيم إجلالي لسيادة الدكتور/ **يوسف نوفل**، أستاذ النقد بجامعة عين

شمس، ناقد وشاعر وقصاص وعضو المجمع العلمي المصري، وعضو اتحاد الكتاب، من أتحفني وأتحف **سيبيبجاج** بنقده البناء.

فلجميعهم أقدم خالص شكري وتقديري،،

وإليك عزيز القارئ أهدي **سيبيبجاج** في ثوبها القشيب، علك تجد فيها واحة فكر وخليط من المشاعر والدراما المغلفة بالأحداث التاريخية،،،

فاروق عبدالله

2016

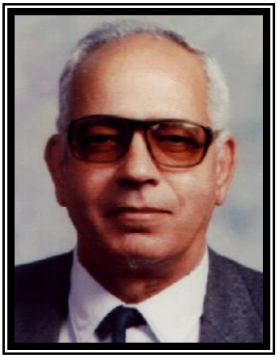

التعريف بالكاتب

الاسم: فاروق عبدالله عبد البر (اسم الشهرة: **فاروق عبد الله)**

العمل: محامى بالنقض والإدارية العليا والدستورية.

محامي اتحاد الكتاب للدفاع عن قضايا الأعضاء.

التليفون : 02 23896393 Tel 01005365200

E-Mail: Farouklaw@hotmail.com

- عضو مجلس إدارة اتحاد الكتاب، رئيس شعبة الترجمة، رئيس اللجنة القانونية/ سابقاً، عضو مجلس إدارة جمعية أنصار التمثيل ورئيس اللجنة الثقافية سابقاً، عضو مجلس إدارة نادي القصة بالقاهرة/ رئيس لجنة الترجمة
- أستاذ زائر لتدريس مادة القانون باللغة الإنجليزية بالجامعة.
- فاز بالجائزة الأولى للرواية من نادى القصة عام 1985، وجائزة الدولة التشجيعية لأدب الرحلات عام 1996

- تَعقد باسمه "**مسابقة عمر الفاروق للقصة القصيرة**" لطلبة الجمهورية تحت رعاية وزير التربية والتعليم، عقدت للعام التاسع عشر على التوالي، ويقوم بمنح جوائزها الأولى لأفضل الأعمال الفائزة، وتُطبع في كتاب.
- تدرس بعض كتبه بالجامعات، وزودت مكتبات التربية والتعليم ببعض منها.
- يعقد بمكتبه ندوة شهرية يحضرها العديد من الأدباء والكتاب والمثقفين.
- قام بالدفاع في كثير من قضايا الرأي منها : عن العميد/ حمدي البطران، أمام مجلس التأديب الأعلى لضباط الشرطة، وعن الشاعر/ أمين الديب أمام نيابة أمن الدولة العليا، وعن د. لواء شرطة بالمعاش/ حسن فتح الباب انتهاءً ببراءته، وعن مجلة إبداع إنتهاءً بإعادة صدورها، وعن ألف ليلة انتهاء ببراءتها.
- قام بزيارة معظم دول العالم، وحضر بها العديد من المؤتمرات العلمية والثقافية.
- شارك في منتدى ثقافي بالجزائر 2002 ومنحه شهادة تقدير لمؤلفاته التي أشادت بالثورة الجزائرية.
- شارك في مؤتمر اتحاد الكتاب العرب الذى عُقد بالقاهرة عام 2003 وحاضر عن حرية الكلمة.

- شارك في العديد من اللقاءات الأدبية وورش الترجمة التي عُقدت في أستراليا عام 2004، تُرجمت فيها بعض كتبه
- شارك بمحاضرة عن الملكية الفكرية في المؤتمر العالمي لاتحاد الكتاب في نوفمبر 2005
- شارك في المؤتمر العالمي للملكية الفكرية بأكاديمية الشرطة في إبريل 2006
- شارك برئاسة المائدة المستديرة عن الملكية الفكرية بمؤتمر اتحاد الكتاب العرب بالقاهرة 2006/11
- شارك في المؤتمر العربي الأول للملكية الفكرية تحت رعاية الدولة يناير 2007
- شارك في المؤتمر الدولي للترجمة باتحاد الكتاب، عقد في ديسمبر 2008
- شارك في المؤتمر الدولي للموروث الشعبي بالأقصر نوفمبر 2009
- شارك في المؤتمر الدولي عن دول حوض النيل بالأقصر يناير 2011
- شارك في مؤتمر الثقافة الجماهيرية بشرم الشيخ – شخصية عامة – يناير 2013
- شارك متحدثاً عن الملكية الفكرية بكلية رياض الأطفال جامعة القاهرة في مارس 2013

- شارك متحدثاً عن الملكية الفكرية في مؤتمر الملكية الفكرية باتحاد الكتاب مايو 2014
- شارك متحدثاً عن التعديلات القانونية المواكبة للدستور الجديد باتحاد الكتاب يوليو 2014
- **شارك متحدثاً عن حقوق الملكية الفكرية بمعرض الكتاب فيراير 2015**
- **شارك بمؤتمر المركز العربي للوعي بالقانون بجامعة الدول العربية أكتوبر 2015**
- **شارك بالمؤتمر الدولي لتجديد الخطاب الثقافي وتجديد القانون مايو 2016**

أهم مؤلفاته:

1-"**رحلة إلى نهاية العمر**" رواية في حلقات بروز اليوسف 1986

2-"**كيراك**" رواية عن الهيئة العامة للكتاب عام 1987م الجائزة الأولي من نادي القصة 1985

3- قام بنشر قصص قصيرة بمعظم صحف ومجلات مصر والخارج منذ عام 1986 حتى تاريخه.

4- " **ملوك الظلام**" / رواية/ طبعة أولى عام 1994

5 - " **واحة العشاق**" / رواية عام 1994

6- "**آخر العائدين من بنى هلال**/ رواية/ طبعة أولى/ جائزة الدولة التشجيعية 1996

7-"**رباعيات حائرة**" شعر العامية المصرية 1995

8-"**ملك ليلة**" مجموعة قصص قصيرة عن الهيئة العامة للكتاب 1996

9-"**واحة الأمل**" رواية 1998

10-"**سهرة مع الأشباح**" مجموعة قصصية عام 1998

11- "**أشعار من قندهار**" ديوان شعر الفصحي 1998

12-"**وردة الصباح وقصص أخرى**" قصص للأطفال 1998

13-"**أم الأبطال**" تمثيليات للأطفال 1998

14- "**آخر الداخلين من المكافحين**" رواية 1999

15-"**فراق مع الأشواق** / يوميات محقق" رواية 1999

16 - "**العالم الآخر**" مسرحية عام 2000

17- "**أرجوك أوقفى القتال**" رواية في لمحات شعرية 2001

18- "**بندورا**" رسائل حب 2001

19- "**سيبيجاج 1**" رواية جزء أول عام 2001

20- "**سيبيجاج 2**" رواية جزء ثاني عام 2002

21= واحة الأمل ، رواية ، عن الهيئة العامة للكتاب 2008

22 = آخر العائدين من بني هلال، أدب رحلات، الهيئة العامة للكتاب مارس 2011

23= سيبيجاج 1، 2 طبعة ثانية 2016

24= أيام همام / بالله حاذر ، رواية تحت الطبع 2016

25= سيناريو واحة الأمل، فيلم سينمائي 2016

26= سيناريو شيطان البحر عن قصته: هو وهي والبحر ونسائم الصباح 2016

27= سيبيجاج 3 – تحت الطبع

Books In English

1-An Introduction to LAW 1998

2- Commercial LAW 1999

3-Thou Shalt not Kill/ Short Stories, Translated by Betty Pascoe 2004

4- Robaiyat, poems translated by Betty Pascoe 2005

5-Short Stories, translated from Arabic to English, 2015 (Association with Irina Dunn, Head of Australian Writers Union)

6- Project of Translation from Arabic or French: Association with (Tunisia, Algeria, Morocco)

Ambassade
la Republique Algerienne
Democratique et Populaire
Le Caire

سـفارة
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
بالقـاهرة

35/01/02

القاهرة في : 10 جانفي 2002

الأستاذ فاروق عبد الله المحترم
الكاتب والمحامي بالنقض والإدارية العليا

تلقيت بكل ابتهاج كتابكم بجزءيه والذي يحمل عنوان " سـيبيجاج " والذي تفضلتم بإهدائه لي ، وقد تأثرت بلفتتكم الكريمة هذه ، وزاد تأثري عندما تصفحته ووجدته رواية أدبية تاريخية رائعة تناولت موضوع الثـورة الجزائريـة المجيدة ، ورصدت بعض معالمها وبعض أحداثها بمنطقـة الغـرب الجزائـري وعرضت أحداثًا تاريخية حقيقية بأسلوب رائع ينم عن تعاطف صادق وإعجـاب كبير بهذه الثورة التي رفعت رؤوس كل الجزائريين وكل العرب .

وأني إذ أشكركم جزيل الشكر آمل في لقائكم عن قريب .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام وتحياتي الأخوية

السفير

د . سليمان الشيخ

فهرست

.1	الفصل الأول – الانتصار الصعب	15
.2	الفصل الثاني – سوزي	31
.3	الفصل الثالث – غسـان	51
.4	الفصل الرابع – اللقاء الثاني	69
.5	الفصل الخامس – الرحلة الطويلة	89
.6	الفصل السادس – البحث عن الماضي	109
.7	الفصل السابع – حكم الأقدار	129
.8	الفصل الثامن – رسالة من الماضي	147
.9	الفصل التاسع – الوجه الآخر لجميلة	163
.10	الفصل العاشر – النداء الخفي	175
.11	الفصل الحادي عشر – الأسد المعقوف	187
.12	الفصل الثاني عشر – الحصـاد	201